نديم البيطار

نحو الارتباط بثورة ٢٣ يوليو *

الثوري هو الذي يتميز ، فيما يتميز به ، بالقدرة على اعتماد مواقف تكتيكية قد تأباها نفسه وتنكرها المفاهيم الثورية الاساسية التي يؤمن بها .

نديم البيطار

في كتبي المختلفة ١ ، كنت أحدد باستمرار الفكر العربي الثوري الراهن بانه فكر تبشيري ميتافيزيقي يتميز ، فيما يتميز به ، بكونه فكراً لا يشتق مواقفه من دراسة موضوعية علمية لتجارب التاريخ وفي طليعتها التجارب الثورية ، بل من أهواء ونوازع وآمال واشواق لا ترتبط بهذه التجارب او تعكسها ، كما انها

* أجرى نديم البيطار عدة تعديلات في دراسته جاءتنا في رسائل على فترات متقطعة . تمكنا من تنفيذ بعضها ، اما بعضها الآخر فقد حالت دون تنفيذه أسباب تعود الى تأخر وصول رسائل الصديق البيطار والبدء في طباعة العدد . لكنها ، في اية حال ، ليست تعديلات تؤثر في جوهر الموضوع ، وانما هي ايضاحية . ونثبت هنا ما لم نستطع اثباته في سياق الدراسة .

يحرص الصديق البيطار على الاشارة :

- الى انه كتب مقاله دون ان يعلم مسبقاً بان «مواقف» ستطلب الى بعض الكتاب ان يناقشوه في العدد ذاته . ولو علم لافاض قليلا فيه ووسعه .

- الى انه يضيف بعد كلامه على القوانين المتعلقة بشخصنة السلطة ما يلي : « ان التدليل على هذه القوانين والاتجاهات بالرجوع الى تجارب التاريخ الثورية يخرج ، بالطبع ، عن نطاق مقال من هذا النوع . كما ان الاسباب التي تفسر الميل الى شخصنة السلطة في المراحل والحركات الثورية عديدة تفرض كذلك دراسة خاصة تخرج عن حدود مقال محدود كهذا المقال . ان ايفاء هذه النقاط حقها من العرض والتحليل والتفسير يتطلب اكثر من مجلد ضخم . وهو عمل أرجو ان اتمكن من تحقيقه في المستقبل القريب .

- الى انه كتب المقال في كندا ، ايار ١٩٦٩ .

١) راجع بشكل خاص فصل «الانحراف الفكري» وفصل «التمثيل على الانحراف الفكري» في كتاب «من النكسة الى الثورة ».

لا ترتبط بالواقع العربي الثوري ، او تعكس التحولات التي يعانيها . فهو في معظمه فكر يتشدق «بالعلمية» و«الموضوعية» دون القدرة على معاناتها .

احاول في هذا البحث معالجة قضية الاعتراف بثورة ٢٣ يوليو قاعدة للعمل الوحدوي الثوري في الوطن العربي ، ليس لاهمية الموضوع الكبرى وحسب ، بل لان الموقف منه كذلك وبخاصة من قبل المناوئين لهذا الاعتراف او الارتباط — يعطينا مثلاً واضحاً عن طبيعة الفكر العربي الثوري التي ما تزال ، كما ذكرت ، تبشيرية ميتافيزيقية .

في كتابي «من النكسة الى الثورة» دعوت الى الارتباط بثورة ٢٣ يوليو قاعدة للعمل الوحدوي الثوري ، وبنيت هذا الموقف على بعض القوانين الموضوعية التي سادت ، بحسب قناعتي العلمية على الاقل ، تجارب التاريخ الوحدوية . وفي كتاب « الفعالية الثورية في النكبة » ، عرضت الموقف ذاته من زاوية اخرى . ولكن ما استوقف انتباهي باستمرار هو ان جميع الذين تحدثوا معي بالموضوع ، ما عدا اثنين او ثلاثة ، وبعض الذين كتبوا حول كتبي وتعرضوا لهذه الناحية ، كانوا دائماً اما انهم يتجاهلون تماماً القوانين الوحدوية والثورية التي بنيت ذلك الموقف عليها ، واما انهم يتناسون الارتباط الذي دعوت اليه هو ارتباط تكتيكي يطرح نفسه على هذا الصعيد التكتيكي ، وليس على صعيد المفاهيم والمبادىء الثورية ، خصوصاً ان المفاهيم الثورية التي قدمتها في كتبي المختلفة كانت دعوة جذرية الى التحرر العربي تحرراً جامعاً تاماً من الوجود القائم في شتى ابعاده ، تعلن باستمرار ان الواقع العربي الثوري بما فيه من حركات ونظم هو واقع باهت ، مزور ، مشوه ، يجب تجاوزه ، وخلق صعيد ثوري جديد ، وتدعو الى افراز طلائع جديدة تتجاوز النظم «الثورية» القائمة لانها مفلسة عاجزة يجب التحرر منها ، الخ ... على الرغم من هذا كان هؤلاء يتكلمون كأنني ابني موقف الارتباط الذي ادعو اليه ، على ميزات عبد الناصر الشخصية المجردة ، او ميزات ثورة ٢٣ يوليو في ذاتها ، أي بشكل مجرد . ولئن دل هذا على شيء ، فانه يدل على ان الاطارات النفسية والعقلية التي ما يزال يعمل فيها هذا الفكر الذي يزعم «العلمية» و«الموضوعية» هي اطارات غيبية ميتافيزيقية تبشيرية ، وهي الاطارات التي نشأ عليها وفيها ، كجزء من الوجود العربي التقليدي .

قد احب عبد الناصر او اكرهه قد اعتبره انساناً عادياً او كبيراً ، قائداً ناجحاً او فاشلاً ، الخ ... هذه مواقف اخلاقية مجردة لا قيمة لها ، لان اي تقييم

لعبد الناصر ، يجب ان يتم على ضوء الواقع العربي ذاته ، والقيادات والقوى التي تسوده .

التكتيك الثوري يعني ، كما يعبّر تروتسكي ، موقفاً او مجموعة من المواقف نتخذها في خدمة قصد معين او ناحية محددة من الصراع الثوري ككل . اما الاستراتيجية الثورية فانها تشمل مجموعة من المقاصد يجب ان تؤدي بتطورها وترابطها وانجازها الى الاستيلاء على السلطة وانشاء الدولة الثورية .

هذا يعني ان الاستراتيجية الثورية تتقدم على التكتيك الثوري ، اي ان الحركة الثورية الناجحة هي تلك التي تستطيع ان تخط خطاً استراتيجياً واضحاً تعتمده في صراعها . وهو يعني ، ثانياً ، ان التكتيك الثوري الناجح هو ذلك الذي يعتمد استراتيجية معينة واضحة ، وانه يستحيل في الواقع دون هذه الاستراتيجية .

الاستراتيجية الوحدوية الثورية تعني ، من ناحية اخرى ، تعيين الاتجاهات العامة التي تميز ، على ضوء التجارب الوحدوية والثورية في التاريخ ، العمل الوحدوي . والتكتيك يعني تعيين الأدوات المباشرة التي يجب اعتمادها على ضوء اوضاع يومية معينة في دفع تلك الاتجاهات نحو الدولة الواحدة ؛ التكتيك الصحيح يعني اذن العمل على ضوء حقائق وقوانين نصل اليها عن طريق دراسة موضوعية علمية لتجارب التاريخ الوحدوية والثورية . فما هي هذه الحقائق والقوانين التي يمكن لهذه التجارب ان تكشف عنها فيما يتعلق بموضوعنا ؟

كان سان جوست يردد: «ان قوة الأشياء تقودنا الى نتائج لم نفكر بها ابداً». الحدث يقود الى حدث آخر ، والصراع ينتج صراعات اخرى ، بشكل متسلسل يعطي الاحداث والصراعات منطقاً مستقلاً قد يكشف عن نتائج مدهشة لم تكن في الحسبان . لذلك ، اذا لم ندرك ، عند الانطلاق في عمل او صراع ما ، بوضوح وموضوعية معطيات الواقع الاساسية ، خضع عملنا للتسرع والاهمال والارتجال والمشاعر الشخصية .. ولا نلبث ان نجد انفسنا امام نتائج تتناقض مع مقاصدنا الاولى . فما هي هذه المعطيات ؟

موضوع نشوء الدولة والنظم السياسية يخرج طبعاً عن بحثنا ، ولكن من الدراسات الاجتماعية والسياسية المختلفة التي ظهرت حول الموضوع يمكن تعيين بعض الحقائق الاساسية التي تجمع عليها تقريباً هذه الدراسات ، وهي :

١ ــ لقد اصبح من المعترف به الآن ان النظم السياسية الاولى نشأت ، وكانت

تمتد وتتطور عن طريق القوة والغزو .

٢ ـ في ذلك التطور السياسي كانت كل حركة تطوير او توسيع للنظام القائم تعتمد عادة قاعدة اساسية تبرز منها وتتركز حولها .

٣ ـ درجة الالتفاف والوحدة حول تلك القاعدة كانت في طليعة الاسباب في تطور النظام السياسي . لذلك كانت مثلاً اية مجموعة من العائلات او القبائل التي تحقق ذلك الشرط تنتصر على مجموعة اخرى لا تجد قاعدة لها ، فلا تحقق بالتالي الوحدة الضرورية في معركة البقاء والتطور .

٤ ـ «نوع» النظام السياسي لم يكن الامر الاساسي ، بل وجوده ذاته كان اهم ظاهرة ساعدت في تحقيق التطورات السياسية . كانت قيمة النظام السياسي، بكلمة اخرى ، فاعليته السياسية العملية . كان الشرط الاول لكي يتطور الانسان والمجتمع سياسياً وجود نظام سياسي اولاً ، وليس نوعية النظام . كان دور النظام السياسي ، بعد تحققه ، هو خلق تقليد جديد وعادات تقوم عليه ، تثبت جذوره ، تربط الناس به ، وتجعل الوحدة التي فرضها جزءاً من نفسية الشعب ذاتها .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

٥ ـ الامر الثاني في الأهمية من حيث تطور الانسان السياسي كان ، بعد خلق النظام السياسي ، خلق المزاج العام وبلورته . كان ذلك دائماً يعتمد على حاسة التقليد التي كانت تركز مشاعر وافكار الافراد والجماعات على نموذج عام يتمثل في قائد كبير واحد او اكثر .

مما تقدم نستنتج حقيقة اساسية ، وهي اننا اذا اردنا الدولة الواحدة وجب علينا الوصول الى قاعدة تتركز عليها الحركة الوحدوية . هذا الشرط يتحقق لنا ، حتى الآن على الأقل ، في ثورة ٢٣ يوليو وليس في غيرها . فان اردنا الدولة الواحدة وجب علينا ، شئنا أم ابينا ، كرهنا ثورة ٢٣ يوليو ام رضينا بها ، وعلى الرغم من كل ما يمكن ان نجد فيها من ضعف وعجز ، ان نركز جهودنا عليها كتكتيك مرحلي .

فمن يأبى ذلك ويرفضه وجب عليه ، ان أراد أن يكون ، اولاً ، موضوعياً علمياً ، وثانياً ، ان يعمل كوحدوي ، ان يدل ، اما على وجود قطر او نظام عربي ثوري آخر تتوفر فيه شروط القاعدة اكثر من ثورة ٢٣ يوليو ، واما ان يدلل على ان الحقائق التي ذكرتها حقائق لا تؤكدها العلوم الاجتماعية السياسية الحديثة .

فان لم يستطع ذلك او هذا ، يسقط حقه في الحوار العلمي ، او في ان يكون وحدوياً ، ويصبح موقفه ، اما موقف مهاترة ، او انحراف ، او اقليمية ، او طفولة فكرية .

هذا من ناحية . اما من ناحية اخرى ، فان تجارب التاريخ تدل بوضوح كما بيّنت في كتاب «من النكسة الى الثورة » على الحقائق والقوانين الثورية التالية :

١ ـ الجماهير لا تستطيع ان تكشف تماماً عن طاقاتها ، وان تفجر امكانات الحماسة والتضحية فيها دون قيادة مشخصنة تعطيها ولاءها . الناس عامة لا يعطون هذا الولاء لمجردات ونظريات ، بل لقائد يرمز اليها ويقدم عنها صورة حسية ، من لحم ودم .

٢ ـ جميع الحركات الثورية ، مهما اختلفت في مضامينها الايديولوجية ومهما نقضت هذه المضامين اية فردية او قيادة مشخصنة ، ومهما اكدت على جماعيتها كانت دائماً تنتهي في قيادة مشخصنة تجد في شخص القائد رمزاً لها وقاعدة لولائها وحماستها .

٣ ـ ان الاوضاع المستقرة ذاتها ، وليس المراحل الانتقالية والازمات الداخلية والخارجية وحسب ، تكشف دائماً عن هذا الاتجاه النفسي الاجتماعي نحو شخصنة القيادة .

٤ ـ القيادات الثورية كانت دائماً قيادات مشخصنة ومركزة ، ودرجة الشخصنة والتركيز فيها كانت تزداد حدة بازدياد حدة الازمات والمشكلات التي تتكشف عنها المرحلة الثورية .

٥ ـ الاوضاع الحضارية الحديثة ذاتها تقوي ، بسبب تركيبها المعقد ذاته ، هذا الميل الى شخصنة القيادة .

٦ ـ الامكانات الثورية التي تنطوي عليها الاوضاع الموضوعية تحتاج الى هذه القيادة المشخصنة المركزة كي تتفجر وتحقق ذاتها ، وهي تعتمد على هذه القيادة وكفاءتها في تحققها ، وفي الشكل الذي يتخذه هذا التحقق . جميع الحركات الثورية اعترفت بهذه الحقيقة .

التدليل بالأمثلة التاريخة والاجتماعية على هذه الحقائق والقوانين امر يخرج عن اطار هذا البحث . ولكن من يرفض دور ثورة ٢٣يوليو كقاعدة ، او الارتباط بها كقاعدة ، يجب عليه هنا كذلك ان يدلل ، اما على ان العلوم الاجتماعية

السياسية تنقض هذه القوانين ، واما على ان هناك قائداً عربياً آخر يمثلها اكثر من عبدالناصر . فان لم يستطع التدليل على ذلك او هذا ، كان الاحرى به السكوت وعدم الدخول في حوار يفترض فيه ان يكون علمياً وموضوعياً .

قد تكون ثورة ٢٣ يوليو ، من ناحية مجردة ، او على ضوء مفاهيم مطلقة ثورة « عاجزة » ، ولكنها من ناحية نسبية – اي على ضوء وضع اجتماعي سياسي معين هو الوضع العربي في عام ١٩٦٩ – لا تزال احسن ثورة عربية عندنا . وعبدالناصر ، قد يكون من ناحية مجردة ، او على ضوء مفاهيم مطلقة ، قائداً « عادياً » ، ولكنه على ضوء وضع اجتماعي سياسي معين هو الوضع العربي عام ١٩٦٩ ، احسن قائد متوفر لنا . أي جدال حول اصالة ثورة ٢٣ يوليو الثورية او قيادة عبدالناصر ، لا يرتبط بهذا الوضع ويطرح ذاته في اطاره ، هو جدال تبشيري ، وميتافيزيقي غيبي .

الموقف الذي يحكم نهائياً على الارتباط ، له او ضده ، هو موقف الجماهير . والخط الذي تتبعه هذه الأخيرة هو الخط الذي يفرض الارتباط او يلغيه . الجماهير العربية اعطت حتى الآن ولاءها لقيادة عبدالناصر ، وكان عبدالناصر القائد العربي الوحيد الذي كسب ولاءها من المحيط الى الخليج . فالى ان تغير الجماهير موقفها وخطها يكون الانحراف عن الارتباط بثورة ٢٣ يوليو ، انحرافاً عن الثورة والوحدة . وبما ان الجماهير العربية ما تزال حتى الآن تتبع هذا الخط ، يصبح كل موقف خاصم الارتباط ، حتى كتابة هذه السطور ، موقف انحراف ، هذا ان لم يكن – كما هو فعلاً في كثير من الحالات – موقفاً انفصالياً او خيانة مقصودة *

ليس هناك ابعد عن الجماهير من هؤلاء « المثقفين » الذين يتكلمون باسمها . فهي ارتبطت وترتبط بقيادة عبدالناصر وثورة ٢٣ يوليو ، ولكن هؤلاء يعملون ضد الارتباط باسمها . وهي تريد الوحدة بشكل تلقائي ، وترى فيها امراً

---

* هذا لا يعني طبعاً استمرار الجماهير في هذا الخط . فنكسة اخرى في معركة تحرير فلسطين مثلا ، لن تؤدي هذه المرة الى اعادة يومي ٩ و١٠ يونيو ، بل الى انهاء ولاء الجماهير لقيادة عبدالناصر . القبول بحل سلمي نهائي ، عجز ثورة ٢٣ يوليو عن تحرير الارض المحتلة في حرب حزيران على الاقل ، تطور المقاومة المسلحة الى حرب شعبية تفرز قيادة جديدة تستقطب الجماهير ، الخ ... هي بعض الحالات التي تدفع الجماهير الى تغيير خطها ، وهذا يعني ان الموقف الثوري العام ، السياسي والفكري ، يجب ان يتبع هذا الخط . عندما يحدث هذا ، اكون اول من يؤكد الخط الجديد ويدعو اليه ، لانه ليس هناك من دولة واحدة او ثورة اجتماعية دون الجماهير وخط الجماهير .

طبيعياً عفوياً ، ولكن هؤلاء يتحدثون عن العثرات والأوضاع الموضوعية التي تحول دون تحقيقها أو تعثّر هذا التحقيق . هذه الوصاية على الجماهير من قبل هؤلاء الذين «يمجدون» زوراً وبهتاناً ارادتها ، شكلت ولا تزال تشكل احد الأسباب الرئيسية في استمرار التجزئة ، وبالتالي احتلال الأرض العربية . فلو ان الجماهير استطاعت ان تسمع صوتها مباشرة لما كان هناك رفض للارتباط بثورة ٢٣ يوليو ولما كانت هناك تجزئة .

ان موضوع الوحدة لا يزال حتى الآن موضوعاً فلسفياً « يتفلسف » حوله عادة « الثوريون والمثقفون » ، واجب الفكر الثوري ، العلمي الموضوعي ، هو الاعتماد على تجارب التاريخ الثورية والوحدوية ، والتدليل عن طريق عرض منسق لوقائع هذه التجارب ، أنه من الممكن الوصول ، على ضوئها وضوء الاتجاهات والقوانين التي تنكشف عنها ، الى تحديد وسائل استراتيجية عملية في الوصول الى الدولة الواحدة وتحقيقها .

القصد الوحدوي لا يتحقق بذاته او من ذاته ، بمجرد اننا نريده او ندرك ضرورته . فهو يحتاج في ذلك الى جهود مستمرة وتنفيذ واع في قلب الواقع والتاريخ ، مما يعني وسائل استراتيجية وتكتيكية قد تكرهها انفسنا وتمجها . فالقصد هو « الممكن » ، والوسائل هي وحدها الواقعية ، لانها هي التي تمارس عبر الواقع مهمة تحقيق القصد . لهذا كان لا يمكن لاية استراتيجية صحيحة ان تعتمد وسائل محتملة او احتمالات ممكنة ، بل تعتمد ما هو متوفر منها مادياً وواقعياً . فطالما ان الارادة الوحدوية لا تنزل من نطاق القصد الى صعيد هذه الوسائل المادية والواقعية المتوفرة ، تكون شوقاً ونزوعاً ، لا فعلاً او حتى قراراً بالمعنى الصحيح للكلمة .

كل من يتخذ موقفاً ثورياً دون وعي تاريخي يخسر فعاليته وقد يضر بالحركة الثورية اكثر مما يفيدها . فدون هذا الوعي يضطر الى اعتماد آني لاحداث منفصلة ، مرة هذا الحدث ، ومرة ذاك ، دون ان يستطيع رؤية المنطق او الاتجاه العام الذي تنطوي عليه والذي يسودها عبر الوقت .

الثوري هو من يعي قوى التاريخ الفاعلة في المرحلة التي يعانيها ويعبر عنها ، هو من يحقق درجة من الادراك يستطيع بها ان يتلمس التحولات الاساسية التي

تكابدها هذه المرحلة والاتجاهات العامة التي تخضع لها ، هو من يستطيع ان ينطلق من واقع هذه التحولات والاتجاهات ، وهو الذي يستطيع ان يربط بين اي عمل يقوم به او اي تحول ثوري يعمل له بالتحول الثوري العام للوجود العربي التقليدي ، وللمرحلة الانتقالية التي يمر بها . من لا يحقق ذلك لا يكون ثورياً بالمعنى الذي يراه لينين ، بل يكون بالاحرى ، مشاغباً ، أي فرداً يتمرد على بعض الأمور دون الأخرى ، يركز على ناحية ، دون ان يربط بينها وبين النواحي الاخرى ، ينطلق من مجموعة من الشعارات والمشاعر وليس من وعي ثوري .

المواقف الثورية هي مواقف نسبية ، قصدها وتسويغها ان تكون في خدمة المجتمع الذي تبرز وتعمل فيه . فليس هناك من مفاهيم صحيحة في ذاتها ،بل هناك مفاهيم نافعة او مضرة بالنسبة الى الأوضاع التي تنشأ وتمارس ذاتها فيها ، فما يكون صالحاً صحيحاً في مجتمع او مرحلة ما قد يكون فاسداً مضراً في مجتمع او مرحلة اخرى . فاكثر المبادىء والنظريات والمفاهيم صحة من ناحية مجردة قد يكون اسوأها عندما يفصل بينها وبين ما يحيط بها من اوضاع ، كما ان اكثرها خطأ قد يكون ذا اثر حسن ان ارتبطت بهذه الأوضاع .

عندما سئل صولون عما اذا كانت الشرائع والقوانين التي اعطاها لسكان اثينا احسن الشرائع اجاب بانه اعطاهم احسن ما يمكن تقبله . ليس هناك ، في دنيا الاجتماع والتاريخ من خير او شر مطلق ، من مبدأ صحيح او خاطىء في جميع الأزمنة والأمكنة . الحياة الانسانية التاريخية تفيض باستمرار بأشكال اجتماعية سياسية غير محدودة ، كل منها يتميز بصحة نسبية . فهي لا تعرف المبدأ او النظام الكامل بل مبادىء ونظماً «تسعى» الى التكامل . ثورة ٢٣ يوليو ، على الرغم من المساوىء والنقائص والاخطاء ومكامن الضعف والعجز ،الخ.. دللت على انها تتميز اكثر من الثورات العربية الاخرى بالقدرة على هذا «السعي» ، بالقدرة على تصحيح ذاتها .

انا في المرحلة الحالية مع ثورة ٢٣ يوليو وقيادة عبدالناصر ضد اية ثورة او قيادة عربية اخرى ،ولكنني ضد قيادة عبدالناصر وثورة ٢٣ يوليو باسم تكامل الثورة . اما عناصر هذا التكامل وكيفيته فامور تخرج تماماً عن نطاق مقال من من هذا النوع . في كتبي الأخرى ، وخصوصاً كتاب «من النكسة الى الثورة»

تعرضت لهذه الناحية ، من بعض الزوايا الأساسية .

كل مناقشة او مفاهيم مجردة حول شكل الدولة ودورها امور عابثة ، وكل مفكر اجتماعي حديث يستحق هذا الاسم ، ابتداء من مونتسكيو وروسو ، قال هذا القول . انها عابثة لان شكل ودور أي حكم ، واية دولة ، يرتبطان بالأوضاع التاريخية والاجتماعية والسياسية التي تحيط بها . فكل نوع منها يمكن ان يكون احسن ما يكون في دور ما ، او أسوأ ما يمكن في دور آخر .

المشكلة الاساسية ليست الرجوع الى الماضي والتأمل فيما كان يمكن فيه ، الرجوع الى امكانات كان من الممكن بروزها ، وفرص كان من الممكن استغلالها ، الرجوع الى اوضاع وحركات فيه وتحليل ما كان يمكن ان تتكشف عنه من طاقة ثورية ، وانما هي اعتماد اكثر القوى الموجودة في الأوضاع الموضوعية كفاءة في تجاوز حاضرنا الى الدولة الواحدة . ثورة ٢٣ يوليو هي ، عند المقارنة ، اكثر القوى المتوفرة لنا كفاءة في تجاوز هذا الحاضر المجزأ . الارتباط بها اذن ليس اعترافاً بانجازاتها ، ليس تقديراً لخدمات سابقة ، ليس احتراماً لجهود بذلت ، ليس محبة بعبدالناصر ، بل هو ارتباط يجد تسويغه باسم المستقبل العربي ، لأن الأوضاع الموضوعية التي تحيط بها تجعلها اكثر قدرة من غيرها على قيادة العمل العربي الوحدوي وتحمل مسؤوليته حالياً كما نحياه عام ١٩٦٩ .

عار على من يرى جاره او صديقه او أي انسان آخر جريحاً في الطريق فيقف متسائلاً عن طبيعة الجرح والاصابة بدلاً من الاسراع الى اسعافه ، او يقف متسائلاً عن نوع الطبيب الذي يجب السماح له باسعافه بدلاً من اللجوء الى الطبيب المتوفر لذلك الاسعاف . عار على من يرى النار تلتهم بيت جاره ، فيتساءل عن طبيعة النار ، بدلاً من ان يهرع الى اطفائها . عار ، كل العار ، على الثوري الذي يرى وجوده القومي في خطر ، فيتساءل في عالم مجرد عن احسن الوسائل واكملها في درء الخطر ، بدلاً من ان يعتمد اقرب الطرق المتوفرة في تجاوز الخطر . ثورة ٢٣ يوليو رغم اماكن الضعف والعجز فيها ، لا تزال اقرب الطرق في مجابهة الخطر . فعار كل العار على من يقف فيتساءل ان كانت ثورة ٢٣ يوليو تنسجم مع عالمه الخيالي المجرد ام لا ، فينكرها وينكر الارتباط بها لانها لا تنسجم مع ذلك العالم ، وذلك دون اية قدرة على تقديم أي بديل لها .

الثورية المجردة لا تساوي شيئاً . وهي تصبح ذات قيمة عندما تلتزم بمواقف ايجابية تشتق من قوانين واتجاهات المرحلة التاريخية الاجتماعية التي تعانيها ، وتجاري تحولاتها الموضوعية .

النتائج التي تترتب على اي عمل سياسي او استراتيجي هي نتائج يتداخل فيها الخير بالشر ، والنواحي السلبية بالنواحي الايجابية . فليس هناك من نتائج تتميز بخير او شر مطلق ، ولذلك وجب علينا ان نقبل في كل عمل سياسي نقوم به درجة ما من الشر .

التحفظات الفكرية والمبدئية والثورية حول أي موقف تكتيكي او استراتيجي يجب ان تزول او تجمد امام التحديات الخارجية التي تواجه الثوريين العرب في حركتهم الوحدوية . قياس هذه التحفظات يجب ان يكون السؤال التالي : هل يفيد العدو منها ؟ فان افاد منها تصبح خيانة وانحرافاً مهما كانت صحيحة في ذاتها ومن ناحية مجردة ، مهما كانت النوايا التي تتفرع عنها صادقة . هنا نجد مثلاً احد مبادىء لينين الاستراتيجية الأساسية التي كفلت له النجاح : كل قضية جزئية وكل التحفظات الممكنة يجب ان تجمد ان استطاع العدو ان يفيد منها . بما ان اهم معركة نواجهها هي معركة فلسطين ، بما ان اهم خطر هدد العرب في تاريخهم هو خطر الغزو الصهيوني ، بما ان ثورة ٢٣ يوليو شكلت ولا تزال تشكل حتى الآن قاعدة معركة تحرير فلسطين ، وبما ان الاستعمار والصهيونية يركزان جهودهما اولاً وبشكل رئيسي على هذه الثورة ، كان أي موقف يؤذي هذه الثورة ودورها كقاعدة ، نصراً للعدو في حربنا ضده *

ان العفيف الأخضر ، وهو شيوعي ، يكتب : «ان العدو يعول على المصاعب

---

* ادركت القوى الاستعمارية وفي طليعتها الصهيونية ، دور قيادة عبدالناصر وثورة ٢٣ يوليو ، فتركزت منذ اواسط الخمسينيات على عبدالناصر تريد رأسه ، وعلى ثورة ٢٣ يوليو تريد قتلها ، بينما عجز « المثقفون والوحدويون » العرب عن رؤية ذلك . على سبيل المثال اذكر هنا آخر ما قرأته حول هذا الموقف الاستعماري ، وكان ذلك منذ ثلاثة ايام في «التايم» الاميركية . ففي مقال حول مركز عبدالناصر وموقف اسرائيل منه ، نقرأ مثلاً : « سياستها (أي اسرائيل) تهدف ، كما حددها حديثا موشي ديان ، الى خلق «وقائع جديدة» تعني لكثيرين من الاسرائيليين سقوط عبدالناصر الذي يعتبرونه العثرة الاساسية للسلم » .. اي بكلمة اخرى ، العثرة الأساسية لاستسلام العرب وفرض الصلح الذي يريدونه عليهم . في مكان آخر من المقال نفسه ، نقرأ ايضاً ان « اسرائيل ترقب سقوط عبدالناصر ، الذي كان لمدة طويلة عدوها اللدود . كجزء من العملية النهائية » ، اي الاحتلال النهائي للأرض العربية . (Time, May 16, 1969)

الاقتصادية التي جرها عدوانه على ج.ع.م. لـكي تستغلها الثورة المضادة الداخلية لاسقاط عبدالناصر ، واسقاطه سيكون اكبر هزيمة اخرى تلحق الثورة العربية في هذا القرن ... » (راجـع مقاله القيم في دراسات عربية اكتوبر ١٩٦٨) . وياسين الحافظ ، الذي يتخذ موقفاً ماركسياً ، يكتب : « ... ان الحركة القومية العربية بدون مصر عبدالناصر ، ستتقهقر بالشعب العربي (في المشرق خاصة) الى ما كانت عليه الحال قبل تموز ١٩٥٢ ، حيث الظـلام الاستعماري الرجعي يلف المشرق العربي باكمله . ان اي حديث عن التحرر من الاستعمار (بشكليه القديم والجديد) وتصفية اسرائيل (لا درء خطرهـا فحسب) بدون مصر عبدالناصر اكذوبة ، وخدعة يروجها عملاء الاستعمار والملتفون معهم . لقـد كانت مصر عبدالناصر ، ولا تزال ، القاعدة الفعلية لدعم حركة النضال العربي. لقد فتحت صفحة جديدة ناصعة في التاريخ العربي المعاصر (حـول بعض قضايا الثورة العربية ، ص ١٤٥ ـ ١٤٦ دار الطليعة ـ ١٩٦٥ ، بيروت)

هذا الموقف الاستراتيجي هو الذي فرض على جميـع الشيوعيين ، مثـلاً ، الارتباط بموسكو إبان البناء الثوري وطيلة اربعين عاماً رغم الاعتراضـات العديدة المتعددة التي يمكن اثارتها على صعيد فكري مبدئي ، او ثوري مجـرد . حتى عام ١٩٥٧ كانت جريدة « الأومانيته » ، لسان الحزب الشيوعي الفرنسي ، تتهم جميـع المواقف التي تقول بانه من الممكن ان تكون هناك مراكز متعددة للحركة الشيوعية ، بانها مواقف منحرفة عن الماركسية اللينينية .

ان ربط سارتر وميرلو بونتي وجانسون مثلاً ، مصلحة البروليتاريا بمصلحـة الحزب الشيوعي ، وان رأوا في الحزب اداة الثـورة البروليتارية ، فاتهموا من يناقض ذلك بالرجعية ، فذلك لا يعني انهم يوافقون على المذهب الشيوعـي او على جميـع مظاهر السياسة الشيوعية . انهم فقط يرون ان ذلـك يشكل اقصر الطرق في اعطاء العمال الأوضاع والسلطات التي تعـود اليهم وهي من حقهم . الغى سارتر حركته السياسية « التجمع الديمقراطي الثوري » ورجع عن فكرة انشاء جبهة يسارية غير شيوعية لان ذلك ، في رأيه ، يجزىء الجهود الثورية . بدلا من ذلك اراد ان يتحالف مع القوى التي قد تنجح حيث فشل ، أي مـع الشيوعيين . منذ ذلك الحين اصبح تفكير سارتر الأساسي في هذا الشأن ما يلي : النظام السوفياتي بعيد عن التعاليم الماركسية اللينينية ، ولكن على الرغم من

ذلك فان هذا النظام قادر على قيادة الانسانية نحو التقدم اكثر من العالم الغربي، لذلك كان اي اتهام للاتحاد السوفياتي ، وان كان يقوم على الوقائع ، يشكل اضعافاً لقوى التقدم وتقوية للقوى المحافظة والرجعية . فطالما ان الاتحاد السوفياتي موجود ، يجد اعداء طبقة العمال انفسهم في موقف دفاعي ، ولكن ما ان يخسر الاتحاد السوفياتي قيمته او يصاب بالفشل حتى تخسر البروليتاريا أملها الوحيد.

القضية الأساسية في هذا الموقف هي التسلسل الفكري النسبي الذي قاد سارتر اليه . فهذا الأخير لم يطلب تجسيداً ثورياً صحيحاً او متكاملاً للمفاهيم الثورية التي يؤمن بها قبل ان يعطي تأييده ، ولم يفرض نموذجاً ثورياً صحيحاً للماركسية اللينينية كما يفهمها قبل ان يلتزم سياسياً ، بل اكتفى بدرجة ثورية نسبية بالنظام الذي يعطيه تأييده والتزامه . كم يجدر « بالوحدويين » و« المثقفين » العرب التمثل بهذا الموقف في علاقتهم بثورة ٢٣ يوليو كقاعدة للعمل الوحدوي .

*

الارتباط بثورة ٢٣ يوليو هو ارتباط استراتيجي، بل ارتباط تكتيكي ، في مرحلة معينة ، وهو لا يعني الموافقة على مفاهيمها الثورية ، والاقتناع بمواقفها او السكوت عما قد تنطوي عليه من نقص واخطاء . انه يعني وحسب العمل معها كأقرب الطرق في تطوير اوضاعنا ودفعها في وجهة وحدوية ثورية. نوع الأسئلة التي يجب ان نطرحها في هذا الصدد هي : هل من الممكن لحركة ثورية أخرى ان تحل محل ثورة ٢٣ يوليو ؟ هل هناك من ثورة عربية اخرى استطاعت او تستطيع ان تمارس بفعالية اكبر دور القاعدة ؟ هل هناك من قطر عربي ثوري آخر يستطيع ان يتحمل اعباء معركة فلسطين اكثر من ثورة ٢٣ يوليو ؟ هل الارتباط التكتيكي او الاستراتيجي بثورة ٢٣ يوليو ، في مصلحة الدولة الواحدة ام لا ؟ هل هناك من قائد عربي آخر يتركز عليه ولاء الجماهير من المحيط الى الخليج اكثر من تركزه على عبدالناصر ؟ هل من مصلحة الحركة العربية الوحدوية ان تتجزأ في صراع داخلي يعثرها ويشل اندفاعها بسبب « تجارب خاصة » ، كل منها تزعم انها احق بقيادة تلك الحركة، على الرغم من التقائها كلها في مقاصد ومفاهيم ثورية أساسية ؟ هذا هو نوع الأسئلة التي يجب ان تطرح ، وطرحها كاف في ذاته للتدليل على ضرورة الارتباط بثورة ٢٣ يوليو كقاعدة .

اعتبار نظام ما قاعدة لعمل ثوري يعني ، فيما يعنيه ، ان هذه القاعدة تمثل ضمناً على الأقل مثالاً يحتذى به . فماذا يمكن ان نعني عندما نتكلم على مثال ثوري ؟ اننا قد نعني او يمكن ان نعني معنى من اربعة معان :

١ ـ ان ذلك المثال يمثل احسن وضع يمكن تصوره ،

٢ ـ انه يمثل احسن وضع ممكن في هذا العالم القائم ،

٣ ـ انه يمثل خيراً ما الى درجة عليا او بمقدار كبير ،

٤ ـ انه يمثل بالنسبة الى وضع اجتماعي تاريخي معين احسن ما يوجد .

المعنى الاول هو معنى تجريدي محض لا فائدة واقعية لنا من اعتماده ، والثاني هو دون فائدة لنا ، وان افترضنا قبوله ، لان ما يهمنا ليس احسن وضع ممكن في العالم ، بل احسن وضع ممكن في جزء معين من العالم ، في وضع تاريخي اجتماعي معين . والثالث ، وان كان اقرب فائدة من الاثنين السابقين ، ويمكن اعتماده كقياس ، لا يزال يتميز بطابع تجريدي لانه لا يحدد الوضع الذي يقوم فيه ، كما انه لا يستثني وجود مثال او نظام آخر يمثل الخير الى درجة اعلى منه . لذلك كان المعنى الرابع هو المعنى الوحيد الذي يمكن اعتماده ، بشكل واقعي موضوعي علمي ، قياساً في تقييم أي نظام او مثال فهو تحديد نسبي واضح ، يحدد الوضع الذي يرتبط به ، كما يحدد انه احسن ما يتوفر في هذا الوضع .

هنا يجب التنبيه الى ان الانتقادات التي يوجهها خصوم الارتباط بثورة ٢٣ يوليو كقاعدة كانت تطرح ذاتها وتجد تسويغها باستمرار في احد المعاني الثلاثة الاولى . هذا ان دل علي شيء ، فهو يدل ، على الأقل ، على الطبيعة التبشيرية ، الغيبية الميتافيزيقية التي لا تزال تسود الفكر العربي الثوري ، حتى عندما يزعم الموضوعية والعلمية . الخطر الاكبر في هذا الفكر التبشيري الغيبي هو انه بسببه وبسبب المبالغة فيه يموت الواقع نفسه ، او امكانات تحول الواقع الى صعيد ثوري جديد.

المقومات والأوضاع التي تجعل ثورة ٢٣ يوليو قاعدة للعمل الوحدوي عديدة وتتطلب بحثاً خاصاً في معالجتها ولكن ما يجب ان لا نغفل عنه في معالجة من هذا النوع هو اولاً : ان هذه المقومات والأوضاع هي نسبية يصح الحكم فيها وعليها فقط بالنسبة الى الاقطار والثورات العربية الأخرى ، أي بمقارنتها بهذه الأخيرة على ضوء العمل الوحدوي ، والامكانات التي يمكنها ان تضعها في خدمة هذا العمل . ثانياً ، يجب ان لا ننسى ان الارتباط بثورة ٢٣ يوليو ، هو

موقف تكتيكي ، لا يعني ابداً الارتباط الجامع بجميع اصعدتها . فليس هناك مثلاً من مفكر ثوري ذهب بعيداً كما ذهبت في الدعوة الى التحرر الكلي وفي نقض النظم الثورية القائمة ، ولكن على الرغم من ذلك كنت ادعوا الى الارتباط المرحلي التكتيكي بثورة ٢٣ يوليو كقاعدة للعمل الوحدوي الثوري وذلك على ضوء دراسة موضوعية علمية لتجارب التاريخ الثورية والوحدوية .

الشروط التي يجب ان تتحقق للقطر العربي الذي يمكنه ان يقوم بدور القاعدة هي ، اولاً ، الامكانات البشرية ، والاقتصادية ، والجغرافية . هذه الشروط ضرورية ولكنها غير كافية ، ويجب ان نضيف اليها قدرة القطر على تنفيذ ثورة اجتماعية ثابتة ، على اجراء تحقيق ثوري مستمر ، على بناء نظام حضاري حديث ، على ممارسة قيادة ثورية فعالة ، على دعم مستمر للقضايا العربية المختلفة وكفاءة في ممارسة هذا الدعم . دور القاعدة يرتبط بالقدرة على جذب واستقطاب اشكال الصراع الثوري المختلفة في الوطن العربي ، وبالفعالية الثورية في خدمة وقيادة ودعم ومساندة هذا الصراع . هذه الشروط توفرت لثورة ٢٣ يوليو اكثر بكثير من اية ثورة عربية أخرى .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ان كان القصد الاساسي من القاعدة الوحدوية الثورية هو القدرة ، اكثر من من غيرها ، على توجيه النضال الوحدوي الثوري نحو الدولة الواحدة والثورة الاجتماعية ، فان الخاصة الاساسية التي يجب ان تقاس بها هي هذه القدرة النسبية وليس تلك او هذه من الصفات المجردة ، هي هذه القدرة وليس ما يقع من اخطاء في ممارسة هذه القدرة ، في هذه القدرة وليس في الشكل الذي تتخذه الثورة الاجتماعية او تتشكل منه الدولة الثورية . فطالما أن هذه القدرة النسبية تمارس ذاتها في الغاء النظم الاجتماعية السياسية التقليدية من اقطاعية ورأسمالية باسم الاشتراكية ، وطالما ان الدولة التي تعمل على انشائها هي دولة وحدوية ، فان الاختلاف حول المضمون الاشتراكي والوحدوي والسياسي ، الذي يجب ان يعطى لها ، هو قضية يجب ارجاؤها الى ان يتم انشاء الدولة الواحدة . القاعدة هي اداة في خدمة هذا القصد ، ولذلك لا يصح تعريفها بشيء آخر سوى القدرة النسبية على تحقيق هذا القصد .

القصد الأول الذي يجب ان نحققه هو الدولة الثورية الواحدة . فقيام هذه الدولة يتقدم على الشكل الذي تتخذه وهو يجب ان لا يتأخر او يؤجل ، بسبب خلاف حول نوع السلطة التي ترافقها . الشيء الأساسي ليس الشكل ، بل

اقامة الاجهزة السياسية والدفاعية والاقتصادية والاجتماعية الواحدة التي ترسخ الوحدة. الدولة الواحدة اولاً ، اما أي نوع من الدولة الواحدة ، فأمر يأتي فيما بعد. دولة واحدة يشترط فيها فقط الغاء الاقطاعية والرأسمالية ، اما كيفية الالغاء ، اما الشكل الذي يتخذه الالغاء ، اما الاجهزة والنظم التي تنفذه ، فامور ثانوية يمكن الاختلاف حولها بعد ان تتركز الدولة الواحدة .

العمل الوحدوي الثوري الصحيح يفرض الارتباط بقاعدة واحدة تعمل في سبيل مقاصدنا الثورية الأولى وضمنها . وتقدر على الانفتاح لتحولات متتابعة تزيد من تطورها الثوري، ويمكنها ان تدعم اكثر من غيرها النضال في سبيل الدولة الواحدة . اعتماد قاعدة اخرى لا يعني قاعدتين يجب الانتقاء بينهما فقط ، بل يفتح الباب لمزاعم اخرى ، في تقديم تجارب وقواعد اخرى ، كل منها يزعم حق استقطاب العمل الوحدوي ، مما يعني بدوره تأجيل الدولة الواحدة ، بشكل نهائي . بدلا من خط يؤدي الى تأجيل الدولة الواحدة ، فان الخط الاستراتيجي الصحيح هو ارجاء اختلافاتنا حول تلك او هذه من الاشكال التي يجب ان يتخذها تنفيذ مقاصدنا الاساسية الى ما بعد تحقيق الدولة الواحدة ، فنحاول حلها في اطار الدولة الواحدة وظلها ، وليس ارجاء تحقيق الدولة الواحدة الى ان نتفق على هذه الاشكال ، اذ ان هذا يعني قتلا نهائياً للوحدة والدولة الواحدة .

ان ماركس مثلا – واذكر هذا بشكل خاص لان الشيوعيين هم في طليعة مقاومي الارتباط ، وهو موقف يشكل في الواقع جزءاً من موقف عام ضد المقاصد القومية الوحدوية لازمهم باستمرار – رأى ان أي انشغال بصورة المجتمع اللاطبقي وتفاصيلها ، انحراف ثوري لا يصح اعتبار صاحبه ثورياً ،وكان كافياً بنظره لاستثناء من يقول به من صفوف الثوريين واتهامه بثوريته . كمثل آخر ، اذكر ان ماركس كان يكره باكونين ويقاومه لاسباب عديدة ، ولكن في طليعتها نجد جهود باكونين في الدفاع عن نوع من التنظيم اللامركزي للدولية الاولى ، يقوم في وحدات مستقلة محلياً ، يسمح باتجاهات فكرية مختلفة في هذه الوحدات يشجعها .هذا الموقف كان ، في رأي ماركس ، موقفاً يدمر في الواقع امكان قيام حركة شيوعية واحدة . فلكي تقوم حركة من هذا النوع كان يجب ، كما رأى ماركس ، خلق وحدة نظرية وعملية ، وكي تتم هذه الوحدة كان من الضروري اعتماد جهاز رئيسي يقوم قاعدة للحركة ويتميز بسلطة تامة . فهيئة

اركان مسؤولة عن التكتيك والاستراتيجية كانت شرطاً لا يمكن الاستغناء عنه .

كمثل ثالث اذكر ايضاً موقف لينين من الحرب التي وقعت بين روسيا واليابان عام ١٩٠٥ ، وهي حرب استعمارية تسابق فيها الاثنان على ضم منشوريا ومنغوليا وكوريا . اراد لينين آنذاك ، ومعه هيندمان ، وجاد ، ان تنتصر اليابان . فبدلا من ان ينكر الحرب نفسها كحرب استعمارية ، او يدعو الى صلح سريع ، بنى موقفه على اساس السؤال التالي : اية جهة يجب دعمها ، واية جهة تجب مخاصمتها باسم مصلحة التقدم ؟ في ذلك ، كان يتبع موقف ماركس ، وانجلز في تحديد موقفهما من الحروب التي واجهاها .

المنشفيك ثاروا على هذا الموقف واتهموا لينين بانه انحرف عن تراث ماركس الذي ينكر الحرب . كان غضب لينين على هؤلاء كبيراً ، وفي رده كتب بأن مؤسسي الاشتراكية العلمية لم يكونا سلميين ، بل اتخذا موقفاً معيناً الى جانب جهة دون اخرى في كل حرب رأسمالية واجهتها ، لأنهما كانا دائماً يطرحان سؤالا واحداً فقط : « نصر اية جهة يكون افضل للديمقراطية والاشتراكية » .

ان مؤسسي وقادة الاشتراكية الماركسية لم يتخذوا اذن امام الحروب الرأسمالية موقفاً مجرداً فينكرونها بأي شكل ، وبطريقة مطلقة ويقفون على الحياد عند حدوثها ، وذلك لانهم رأوا ان الوصول الى المجتمع الاشتراكي لن يكون بقفزة واحدة ، بل يفرض عبور مراحل متعددة ، يجب فيها على قادة الحركة الاشتراكية ان يؤيدوا جهات لا يرضون عنها بل ينكرونها من ناحية مبدئية ، وان يعتمدوا مواقف تكتيكية واستراتيجية لا تنسجم مع المبادىء الأساسية ، وذلك رغبة في دعم الاوضاع وتطويرها نحو وضع يحقق درجة اعلى من الاختمار الثوري . هذا هو الموقف الذي كان يجب على « الوحدويين ؟ » و«الثوريين؟» وفي طليعتهم الشيوعيين، مخاصمي ثورة ٢٣ يوليو والارتباط بها ،ان يتمثلوا به فالارتباط بهذه الثورة الأخيرة لا يعني القبول بكل ما يجري فيها ، لا يعني الارتباط بجميع ما تقوم عليه من مفاهيم ثورية ، بل يعني تكتيكاً مرحلياً يفرضه العمل في الواقع العربي .

ان ثورة ٢٣ يوليو لا تنطوي على اخطاء وثغرات ومكامن ضعف وعجز وقصور وحسب بل هي تذخر بها . ولكن هذا لا يسوغ ابداً وبأي شكل

الدعوة الى مناهضتها او عدم الارتباط بها كقاعدة للعمل الوحدوي الثوري ، طالما انه لا يمكن تقديم قطر او ثورة اخرى تتجاوزها . التصحيح الثوري لثورة ٢٣ يوليو لا يكون بمناهضتها بل بمساندة امكانات النمو والقوة فيها ، والعمل على تطويرها . نهاية ذلك الموقف المناهض المنطقية ، ان نحن تابعناه في منطقه، يصل بنا الى تهديم جميع الانجازات العربية الثورية لا انجازات ثورة ٢٣ يوليو وحدها . الحركات الثورية لا تخلق دفعة واحدة ، كاملة متكاملة البنية والقواعد والاتجاه . ثم ان فعاليتها هي دائماً واقع نسبي لا يمكن ابداً النظر اليه نظرة مجردة ، ان موقفاً كهذا ليس خاطئاً من ناحية نظرية وحسب ، وانما هو كذلك عبث من ناحية عملية . انجازات ثورة ٢٣ يوليو هي — رغم ما تنطوي عليه من عجز اساسي — واقع يفقأ العين ، تتغلغل آثاره في جميع جوانب الوطن العربي ، ولذلك كان الموقف التكتيكي الصحيح هو الانطلاق من تلك الانجازات ، العمل فيها ومعها ، وضدها ، ولكن في اطار الارتباط . ان موقفاً من ذلك النوع المناهض هو خروج من المعركة ، وتسويغ للخروج ببعض المجردات . انه ، في الواقع ، اكثر من ذلك . انه مشاركة لا اشك بانها واعية في بعض الاحيان ، في مخططات التخريب المتعددة الاشكال التي توجه الى العمل العربي الثوري .

هذا الموقف — ان صحت النية — هو في الواقع ظاهرة من ظواهر الطفولة التي ما زالت تلازم الفكر العربي الثوري الذي كان ولا يزال فكراً عاطفياً ، فكر شعارات ، فكراً غيبياً ميتافيزيقياً تبشيرياً ، بعيداً عن التفكير الموضوعي العلمي .

ادانة الارتباط بثورة ٢٣ يوليو كقاعدة وحدوية ، بسبب هذا العجز الكامن فيها او ذاك دون تقييمه على ضوء الواقع العربي القائم وامكانات هذا الواقع ، ما يسمح وما لا يسمح به ، هو موقف طفيلي زائف ومزايدة غوغائية، اقل ما يقال فيها انها تجريد ميتافيزيقي يقود موضوعياً الى نتائج رجعية وسلبية، وهي نتائج دللت عليها بوضوح تجاربنا في العقد الأخير .

مهمة الجهود الثورية القطرية ليست الانشغال بمشاكل وقضايا القطر من زاوية القطر بل الانشغال بها من زاوية القاعدة . هدفها ليس التكلم باسم تلك القضايا والمشاكل ضد القاعدة او خارجها ، ولكن التكلم فيها وحولها باسم القاعدة . بما ان مصلحة كل قطر تفترض اولاً وقبل كل شيء قيام الدولة الثورية الواحدة ،

وبما ان القاعدة تسوغ وجودها لانها اقرب الطرق الى هــذه الدولة ، كانت اذن مصلحة القاعدة تشكل في المدى البعيد ، على الاقل ، مصلحة كل قطر .

الحرية النهائية لأي قطر عربي لا يمكن لهـا ان تناقض حرية الكل العربي النهائية ، بل هي تتحقق عبر ذلك الكل وفي اطاره . بما ان القاعدة هي محور العمل الوحدوي نحو ذلك الكل كدولة واحدة ، اصبحت حرية ومنعة كل قطر تقومان في حرية ومنعة القاعدة. من ناحية اخرى ، كل امة تبني وحدتها باعتماد التجاوب والتفاعل بين ابنائها ، كما ان درجة تلك الوحدة تعتمد على درجة مـا تحققه من تجاوب وتفاعل . القاعدة الواحدة التي تعتمدها الحركـــة الوحدوية وتتركز عليها في كفاحها لاجل تلك الدولة ضرورة أولى في تثبيت التجاوب والتفاعل اللذين يؤديان اليها .

فكرة العقد الاجتماعي كانت اغلوطة لاسباب عديدة ، كان في طليعتها ان الارادة العامة التي تقول بها لا تكون نتيجة عقد ، بل نتيجة عمل تاريخي طويل ينتهي في ضبط الانقسامات وتحقيق الانسجام العام . فالارادة العامة هي نتيجة من نتائج قيام الدولة وليست مصدراً لها . الدراسات الحديثة ، من الفلسفة الى العلوم الاجتماعية والسياسية كشفت عن ان الدولة تبرز نتيجة قوة خارجية تفرض ، في ابتداء الامر ، على الأفراد ان يتحدوا رغم ارادتهم . ثم ان نشوء الدول كان يرافقه دائماً بروز قادة كبار يقترن باسمهم ، ولذلك كان عملهم يبلور النفسية العامة التي ترسخ الدولة . فالسلطة السياسيـــة المركزة كانت ظاهرة تفرض نفسها في نمو الدول والقوميات الحديثة ، وشكلها الحديث الأول كان الملكية المطلقة ، كالتودور ، مثلاً ، في انـكلترا ، وريشيليو ، ولويس الرابـع عشر في فرنسا . ان الثورة الانـكليزية في القرن السابـع عشر والثورة الفرنسية في القرن الثامن عشر ، اكملتا عمل هذه الملكية المطلقة .

كثيرون من علماء الاجتماع والسياسة وجدوا ، في قول احدهم ، روكر ، أن الأمة ليست سبب الدولة بل نتيجتها . «فالدولة هي التي تخلق الأمة وليست الأمة هي التي تخلق الدولة » . او كما كتبت في كتاب «من النكسة الى الثورة»، ان « تجارب التاريخ وتحولاته السياسية تدل بوضوح ان النظم السياسية الواحدة تبرز ليس لان هناك نموذجاً انسانياً عاماً تقدمها فجاءت تعـبر عن وجوده الواحد ، او لان هناك وحدة ثقافية سابقة كانت هذه النظم السياسية انعكاساً خارجياً لها ، بل ان تلك النظم السياسية الواحدة هي التي كانت تخلق الوحدة

الثقافية والتجانس النفسي الواحد . ان ما اعنيه ، بكلمة أخرى ، هو ان الانسان الفرنسي مثلاً لم يوجد قبل الدولة الفرنسية الواحدة ، بل ان الدولة الفرنسية هي التي خلقت هذا الانسان او كشفته وعبرت عن وجوده . كذلك أيضاً الانسان الاميركي او البريطاني ، لم يوجد قبل الدولة البريطانية او الاميركية ، بل ان هذه الدولة هي التي جاءت به .. » هذا القانون العام الذي تكشف عنه تجارب التاريخ الوحدوية يعني اننا ، ان اردنا تجاوز التجزئة ، نحتاج الى قاعدة تتبلور فيها نفسية الوحدة ومشاعرها . اذ دونها ستستقر التجزئة وتصبح نهائية . ولكن ثورة ٢٣ يوليو هي الوحيدة ، حتى الآن على الاقل ، التي تتوفر فيها شروط هذه القاعدة .

من ناحية اخرى ، يجب ان لا نغفل عن الحقيقة السياسية الكبرى في هذا العصر وهي ان مقاييس القوة والمنعة وشروط التقدم الحضاري الحديث اصبحت تفرض امكانات بشرية وجغرافية واقتصادية هائلة ... لذلك نرى مثلاً الاصوات تتعالى الآن في اوروبا داعية الى الوحدة الأوروبية ، قائلة ان هذه الوحدة هي الشرط الأساسي الذي تحتاج اليه اوروبا للحفاظ على استقلالها ومجاراة التاريخ الحديث . ولكن هناك من يرى ايضاً ان الوحدة الاوروبية نفسها عاجزة عن تحقيق هذا لامها المختلفة ، وان ما تحتاج اليه اوروبا هو في الواقع وحدة عامة تضمها مع اميركا الشمالية . يكتب كارلو شميد ، نائب رئيس مجلس النواب الالماني ، وعضو المجلس الاوروبي : « ان الامة لا تستطيع تحقيق ذاتها كأمة ان لم تكن تتميز بمجال جغرافي واسع كاف لاستمرارها . انني لا اعني هنا أي تلميح الى الامبريالية . كل ما أريد قوله هو فقط ان المجال الجغرافي يجب ان يكون ممتداً الى درجة تستطيع فيه ان تتحرك ، وذلك شيء لا يتحقق لاوروبا . فهذه الشبه جزيرة الصغيرة لآسيا محدودة جداً ، ولذلك لا تستطيع ان تقاوم القوى الخارجية العديدة التي تهددها . ان ما نحتاج اليه هو المجال الجغرافي الاطلسي الذي يستحيل دونه ان تصبح هذه المقاومة ممكنة . فوطنية اوروبا يجب ان تمتد الى اميركا » .

في هذا العصر الحضاري الحديث ، عصر الذرة ، والآلات الالكترونية ، والاوتوماتيكية Automation والسيبيرنيطيقا ، لا يمكن لاية امة متخلفة ان تدخل التاريخ الحديث او حتى تعيش دون قوى بشرية واقتصادية وجغرافية هائلة . الدولة الواحدة هي طريقنا الى البقاء بكرامة ، والى دخول هذا

التاريخ الحديث ، والى تحقيق ما ننادي به من اشتراكية ، اذ لا يمكن لهذه الاخيرة ان تتحقق الا على مستوى الوطن العربي كوحدة ، والقول بغير ذلك هو اكبر دسيسة «لفظية» على الحركة العربية القومية الثورية . لذلك ، إما الدولة الواحدة ، واما الموت اختناقاً ، الدولة الواحدة او الذل النهائي ، الدولة الواحدة او التخلف الدائم ، الدولة الواحدة او بقاء اسرائيل . فنحن نحتاج الى ما توفره لنا من امكانات وطاقات والى حشد تام جامع لها في سبيل مقاصدنا القومية الثورية . ولكن الدولة الواحدة تحتاج الى قاعدة ترتبط بها الجهود الوحدوية ، وهذا يدل بوضوح على ثورة ٢٣ يوليو ، وعلى ضرورة الارتباط بها كتكتيك وحدوي مرحلي .

أود أخيراً ان اذكر بان القصد الاول من هذا المقال هو طرح مشكلة الارتباط وتعيين المنهج العلمي الذي يجب اعتماده في معالجتها . اما متابعة عناصر هذا المقال والقضايا العديدة التي تتفرع منه متابعة علمية شاملة ، فأمر يتطلب دراسات اضافية عديدة ، وهذا في الواقع ما ارجو ان يتاح لي قريباً في دراسة بعنوان : « الاساس النظري لاستراتيجية وحدوية ثورية » . كل ما ارجو التنبيه اليه هنا هو انه ان اراد احد ان ينقده او ينقضه عليه ، ان اراد ان يكون علمياً موضوعياً ، ان يحصر ما يقوله بالتعليق او الرد على ما قلته ، وليس على ما لم اقله . فقد يقدم في هذا الصعيد الثاني تعليقات وانتقادات عديدة يمكن ان اوافق عليها كلها ، ولكن ذلك يكون خارج نطاق « النقد » او « النقض » الموضوعي لهذا البحث ، لان تعليقات وانتقادات من هذا النوع تخسر علاقتها بالمقال لانها لا تدور حول ما قلته . فقد ينتقد بعضهم هذا البحث مثلاً بعرض لمظاهر الضعف في ثورة ٢٣ يوليو ، او لاخطاء قيادة عبدالناصر ، الخ ... ان عرضاً كهذا يكون على ضوء أي موقف يزعم نقد او نقض هذا البحث ، موقفاً غير موضوعي ، تبشيرياً وغير علمي ، لأن البحث لا ينكر وجود هذه الاخطاء والمظاهر ، بل يؤكد عليها كثيراً . وهو ان لم يحددها او يحدد طرق معالجتها ، فلأن المجال لا يتسع الى ذلك ، لانها تشكل موضوعاً او بالاحرى موضوعات اضافية ، وتتطلب دراسات أخرى .

صادق جلال العظم

خمس ملاحظات

سأوجز ملاحظاتي على مقال نديم البيطار بالنقاط التالية :

١) يتضمن المقال فكرة اساسية واحـدة يمكن طرحها في عدد قليل من الصفحات دون اللجوء الى هذا التطويل والتكرار والاعادة في طرح الفكرة نفسها والاستزادة في مراجعة «البراهين» و«الأدلة» والاستشهادات الـخ ... وبصورة عامة ، ينطبق هذا المأخذ على مجمل مؤلفات نديم البيطار التي تتصف بالاطالة والتكرار ، على الرغم من نفسها الثوري (او الانقلابي) القوي الذي نرحب به بحرارة . اضف الى ذلك ان «الانتقائية» في ذكر العلمـاء والمدارس الفكرية والاستشهاد بمختلف الآراء ، المتضاربة والمتناقضة أحياناً ، تطغى على كتاباته بشكل غريب ومزعج ، حتى اننا نجد ان كتّاباً من اقصى اليمـين الرجعي الى اقصى اليسار الماركسي مثـلاً يصلحون دوماً لتأييد الأفكار التي يطرحها البيطار .

٢) واضح ان مقال البيطار الذي نحن بصدده يأخذ موقفاً سليماً وقويـاً في محاربته لسمات « التبشيرية » و« المثالية الاخلاقية » التي تطغى على الانتاج الفكري العربي بصورة عامة وتحل محل التحليل العلمي الواقعي والموضوعي . غير أنه يقع أحياناً كثيرة ، من فرط حماسته ، عند مهاجمته للفكر التبشيري ، بأساليب تبشيرية من عنده وينزلق في تحليلات« مثالية أخلاقية » لا علمية يعلن دوماً أنه ضدها . على سبيل المثـال اورد المقطع التالي من مقاله حول ثورة ٢٣ يوليو :

« عار على من يرى جاره أو صديقه أو أي انسان آخر جريحاً في الطريق فيقف متسائلاً عن طبيعة الجرح والاصابة بدلاً من الاسراع الى اسعافه ، أو يقف متسائلاً عن نوع الطبيب الذي يجب السماح له باسعافه بدلاً من اللجوء الى الطبيب المتوفر لذلك الاسعاف . عار على من يرى النار تلتهم بيت جاره فيتساءل عن طبيعة النار ، بدلاً من ان يهرع الى اطفائها . عار كل العار ، على الثوري الذي يرى وجوده القومي في خطر ، فيتساءل في عالم مجرد عن أحسن الأحوال وأكملها في درء الخطر ، بدلا من ان يعتمد اقرب الطرق المتوفرة في تجاوز الخطر ».

اذا لم يكن هذا المقطع الخطابي – الاخلاقي مثالاً نموذجياً « للفكر التبشيري العربي » حول الثورة فان هذا يعني اننا بحاجة الى تعريف جديد لمعنى التبشير والفكر التبشيري . المثالية الأخلاقية التي يهاجمها البيطار ، هي التي تلجأ الى الكلام عن « الثورة » بلغة « العار » ، و « عار ، كل العار ، الخ ... » وهي التي تستخدم اساليب « المناشدة » لجر الناس الى مواقفها وتيارها الصاخب بدلا من اقناعهم بصوابها عن طريق التحليل العلمي والممارسة العملية للخط الثوري . هل من التفكير العلمي تشبيه الهزيمة العربية سنة ١٩٦٧ بالانسان الجريح على طرف الطريق ، او ببيت الجار الذي يحترق (والهزيمة حرقت بيتنا وليس بيت جارنا ؟) وهل يسمح لنا الاسلوب العلمي الذي يدعو اليه البيطار بأساليب تبشيرية أحياناً ، تشبيه « الانسان الثوري » أو « المفكر الثوري » بالطبيب أو بالانسان الذي يفترض فيه أن يحضر الطبيب ، أو بالجار الذي عليه أن ينجد جاره في ساعة المحنة ؟ حتى لو ذهبنا بعض الطريق مع البيطار في قبول هذه الاستعارات والتشبيهات اللاعلمية ، الا يحدث أحياناً أن يكون « الطبيب المتوفر للاسعاف » بغير مستوى الجرح البليغ ، وأعجز من ان يقدم للجريح أي دواء شاف باستثناء المسكنات والمخدرات ؟ الا يجوز لنا عندئذ ان نقف لنتساءل عن نوعية « الطبيب » الذي تتطلبه مثل هذه الجراح طالما أن الموت لم يحدث بعد ؟ هذه أسئلة يفترض بنديم البيطار أن يطرحها على نفسه وعلى قرائه ويجعل منها مادة للتأمل على الأقل .

٣) ان منهج نديم البيطار في تحليل الانظمة السياسية يفتقر كلياً الى مقولة «الطبقة» والتحليل الطبقي . نحن لا نرى ، طبعاً ، في « التحليل الطبقي » نوعاً من العصا السحرية التي تفسر الظواهر السياسية والاجتماعية المعقدة بكل بساطة وسذاجة . غير ان التحليل الطبقي في هذه المجالات يبقى مقولة جذرية في فهم

الواقع الاجتماعي فهماً علمياً ، واداة رئيسية من ادوات تحليله والتحكم به . هذا كله مفقود فقداناً شبه تام في كتابات البيطار بصورة عامة وفي مقاله عن ثورة ٢٣ يوليو بالتحديد . ويؤدي هذا النقص ، في رأيي ، الى اخطـاء عديدة في التحليل والاستنتاج والتقييم لواقع ثورة ٢٣ يوليو ودورها بعد الهزيمة العربية سنة ١٩٦٧ ، وبعد سقوط الأنظمة التحررية المهمة في « العالم الثالث » لصالح الامبريالية . يعتبر نديم البيطار نظام عبد الناصر الحالي القاعدة الثورية لدولة الوحدة العربية التي يشترط فيها البيطار كأساس ، الغاء الاقطاعية والرأسمالية . وبسبب فقدان التحليل الطبقي تبقى هذه الصيغة المقترحة للوحدة العربية صيغة سلبية ، تعبر عن نفسها بغياب الاقطاعية والرأسمالية وحسب ، دون أي تحديد لطبيعة النظام الاجتماعي والسياسي الذي يفترض فيه ان يسود في تلك الدولة بدلاً من الرأسمالية مثلاً ، ولطبيعة القوى الاجتماعية المؤهلة والقادرة على انجاز مثل هذه المهمة الثورية . حقاً لقد تم لنا تجربة مثل هذه الوصفة الوحدوية في ذروة صعود حركة التحرر العربية (وحركات التحرر عامة في العالم الثالث) وعزها في الوحدة بين مصر وسوريا . كانت النتيجة فشلاً رهيباً تستّر بشعارات ذات صيغ سلبية شبيهة بالصيغة الوحدوية التي يطرحها نديم البيطار (لا رأسمالية ولا شيوعية ، حياد ايجابي ، عدم انحياز ، لا سيطرة لطبقة على طبقة ، الاتحاد القومي ، الطريق اللارأسمالية للتطور الخ ...) اذا كانت مثل هذه الصيغ السياسية تشكل كسباً تحررياً جذرياً للشعوب في وجه الاستعمار في مرحلة تاريخية مضت ، فان اعادة احياء هذه الشعارات من جديد، ولو بلباس مختلف قليلا ، هو نكسة حقيقية الى الوراء . كما أن فقدان التحليل الطبقي في منهج البيطار يجعله يتغاضى عن سؤال اساسي هو : هل المصالح الطبقية السائدة حالياً في مصر (البورجوازية الصغيرة عامة والبورجوازية الصغيرة العسكرية على وجه التحديد) والتي يمثلها نظام عبد الناصر مؤهلة حقاً لتحقيق دولة الوحدة في المرحلة التاريخية الراهنة ؟

ان عزوف نديم البيطار عن أي تحليل واقعي للقوى الاجتماعية المؤهلة بحكم مصالحها الحيوية لتحقيق الوحدة التي يصبو اليها ، ولانجاز المهمات التاريخية الأخرى التي يعددها في مقاله يعطي لتحليلاته طابعاً طوباوياً ولأفكاره سمة التبرير لما هو قائم والدفاع عنه مهما كان الأمر . ومن نتائج هذا الاتجاه في تفكير نديم البيطار جعل ثورة ٢٣ يوليو مساوية لعبد الناصر وقيادته وجعل عبدالناصر

مرادفاً للثورة نفسها . اعتقد ان « شخصنة » الثورة في شخص عبد الناصر على هذا النحو هو خطأ كبير وفادح . لا أريد أن أقلل من أهمية القيادات في الثورات الناجحة كما تتمثل برموز بشرية معينة ، غير أن دمج «الحركة» كلياً بشخص القائد ، على طريقة البيطار ، هو بالتأكيد نفي لصفة الثورية الأصيلة عنها . ومع تقديرنا لقيادة عبد الناصر لثورة ٢٣ يوليو ودوره الكبير فيها تبقى هناك عوامل أخرى كانت هي الأهم والأرسخ، في التحليل النهائي ، في تحديد ملامح ثورة ٢٣ يوليو وبرامجها وخط تطورها . اذكر على سبيل المثال البورجوازية الصغيرة الصاعدة في مصر والمؤسسة العسكرية الممثلة لها وتطلعاتها الطبقية المعروفة (نادي الجزيرة ، فيلات ، مرسيدس 220 S ، غسالات ، ثلاجات امتيازات الخ ...) . ومن أسف ألا يرى نديم البيطار في ثورة ٢٣ يوليو الا عبد الناصر وقدراته القيادية على الرغم من ان القادة الثوريين الناجحين حقاً اعتمدوا دوماً على تنظيمات سياسية ثورية طليعية كان لها أكبر الأثر في الاشراف على تحقيق المنجزات الثورية وحمايتها وايصالها الى غاياتها ، أي كانت هذه التنظيمات اداة التغيير التي لا يمكن لاي ثورة ناجحة ، في نهاية المطاف ، الاستغناء عنها مهما كان قائدها فذاً وعبقرياً . لقد أهمل البيطار كل هذه الحقائق لصالح القائد – البطل – الفذ – العبقري ، مع أنه كان بامكانه ، بشيء من التحليل الطبقي ، تجنب مثل هذه المنزلقات الخطرة .

٤) لم يحدد نديم البيطار بدقة ماذا يعني بعبارة «الارتباط بثورة ٢٣يوليو». نحن نفهم بالارتباط هنا (بصورة أولية وعامة) الالتزام بمجموعة البرامج والمشاريع والأفكار التي يطرحها نظام سياسي ما بصورة جدية ، والعمل على تحقيق اهدافها وانجاز مراميها . حين طرحت ثورة ٢٣ يوليو ، ومن ثم نفذت ، مشاريع وبرامج ثورية حقاً مثل تصفية تحالف الاقطاع ورأس المال ، محاربة الاحلاف الاستعمارية في المنطقة ،بناء السد العالي، كسر احتكار السلاح، تأميم قناة السويس ، الوحدة مع سوريا ، ارتبطت الجماهير العربية من المحيط الى الخليج بالثورة كما ارتبط بها معظم المثقفين الثوريين بشكل أو بآخر .وكان هذا الارتباط في أساسه من النوع الحقيقي والمادي الذي يتحرك ويحرك ، يؤثر ويتأثر لأنه قائم على انجازات كبيرة ملموسة ، ولم يكن ارتباطاً معنوياً وولاء عاطفياً وحسب . اذا كان ارتباط الثوري العربي ، بعد هزيمة حزيران ١٩٦٧ ، بثورة ٢٣ يوليو يعني حماية جميع المنجزات التاريخية التي حققتها هذه الثورة

والوقوف على ارضها الصلبة والدفاع عنها بغية الانطلاق الى مرحلة تقدمية وثورية اشتراكية جديدة في تنظيم المجتمع العربي ، فان هذا الارتباط يكون نوعاً من تحصيل الحاصل بالنسبة الى كل ثوري ، أو نوعاً من الشرط اللازم (وليس الكافي) لصفة الثورية والتقدمية في هذه المرحلة التاريخية . الارتباط بثورة ٢٣ يوليو ، بهذا المعنى الواضح ، هو الحد الادنى تماماً لما يمكن أن يقبل به الثوري التقدمي في عصر الاستعمار الجديد وعصر سقوط حركات التحرر الوطني في جميع انحاء آسيا وافريقيا لصالح الاستعمار ، وعصر حرب التحرير الشعبية في الفيتنام . بعبارة أخرى ، بعد هزيمة ١٩٦٧ ، اصبح الارتباط بثورة ٢٣ يوليو ممكناً من حيث كانت هذه الثورة قوة فاعلة في مرحلة تاريخية مضت بعد أن حققت ما حققت وأخفقت فيما أخفقت ؛ لذلك لا يمكن أن يكون معنى هذا الارتباط ، بعد اليوم ، الالتزام بثورة ٢٣ يوليو كمشروع للمستقبل العربي الاشتراكي الوحدوي . ذكرت أن الارتباط هنا يعني بالتحديد الالتزام بمشاريع وبرامج وخطط جدية . لنسأل أنفسنا ما هي البرامج والمشاريع الثورية التي طرحتها ثورة ٢٣ يوليو بعد الهزيمة وللرد على الهزيمة ؟ هل هي من النوع الذي يستطيع الانسان العربي الثوري أن يرتبط به ويلتزم بتنفيذه ، ولو مرحلياً وتكتيكياً ؟ فيما يلي عينة من مشاريع ثورة ٢٣ يوليو بعد الهزيمة: تصفية آثار العدوان ، القبول المشروط بقرار مجلس الأمن ، القبول غير المشروط بقرار مجلس الأمن ، القبول الصريح « بالحدود المعترف بها » (من قبل الدول العربية) ، الموافقة الصريحة على « الحدود الآمنة » لاسرائيل (آمنة من الفدائيين طبعاً) ، احترام سيادة كافة الدول في المنطقة بما في ذلك اسرائيل ، مناطق مجردة من السلاح ، الموافقة على حرية الملاحة لاسرائيل في « الممرات المائية الدولية » (أي لم تعد ممرات تيران مياهاً اقليمية خاضعة للسيادة العربية كما كانت في ٤ حزيران ١٩٦٧) . وأخيراً جاءت تصريحات الرئيس عبد الناصر لمجلة تايم الاميركية (١٦ ايار ١٩٦٩ ، وقد اشار البيطار في مقاله الى هذا العدد من المجلة ولكنه تناسى تصريحات عبدالناصر وما تضمنته من تراجعات وتنازلات أمام اسرائيل والقوة الامبريالية واكتفى بذكر ما جاء حول عداء اسرائيل لعبدالناصر فحسب) . وفيما يلي نص هذه التصريحات كما اوردتها وكالات الانباء العالمية والعربية :

- « قال الرئيس جمال عبد الناصر انه يقبل حقيقة وجود اسرائيل وان

شعبه سيقبل ذلك ايضاً ان تم الوصول الى حل انساني لمشكلة الشرق الاوسط ...

– « وسئل الزعيم المصري هل انت مستعد للقبول بوجود اسرائيل اذا حصل انسحاب للقوات الاسرائيلية وتم الوصول الى تسوية دائمة ؟ فأجاب قائلاً : انني اقبل حقيقة اسرائيل وسيقبل شعبي ذلك اذا تم الوصول الى حل انساني . يمكنكم ان تسموها اسرائيل أو أي شيء آخر وأنا مستعد للاعتراف بذلك ».

– « وقال الرئيس عبد الناصر اذا تم الوصول الى حل بوسيلة من الوسائل فان توقيع معاهدة عدم اعتداء مع اسرائيل سيكون شيئاً يمكن التفكير به. وقال : انه اذا سويت جميع الأمور الاخرى فان مسألة حرية الملاحة في قناة السويس لن تشكل مشكلة » .

هل يعقل ان يرتبط الانسان الثوري التقدمي ببرنامج عمل للمستقبل يثبت قاعدة استعمارية مثل اسرائيل في المنطقة علماً بأن هـذا العمل سوف يثبت بدوره سيطرة الرساميل الاميركية (والغربية) على ثروات الوطن واقتصاده وحياته ومصيره ؟ قد يقول البعض أن هذا التراجع والتنازل من قبل ثورة ٢٣ يوليو بعد الهزيمة ليس الا تكتيكاً مرحلياً لاحراج الدبلوماسية الاسرائيلية . غير أن هذا كلام مردود ، بل سخيف لأنه ليس الا امتداداً للذهنية العربية التي بقيت حتى ٩ حزيران ١٩٦٧ وهي تقول ان تراجع الجيش العربي في سيناء ليس الا تراجعاً تكتيكياً مؤقتاً لاغراق العدو في الصحراء ، وسوف يتبعه بعد ساعات هجوم ساحق على العدو ، والذهنية التي بقيت تصر حتى ساعة اعلان استقالة الرئيس بأن « عبد الناصر لديه خطة » يعمل على اساسها وليس التراجع العسكري الا جزءاً من خطة مدبرة ، الى آخر ذلك من التصورات الاسطورية الخيالية التي لا تجدي نفعاً وبخاصة في المرحلة الحالية من الكفاح الثوري التقدمي . اضف الى ذلك ان السياسة الداخلية لثورة ٢٣ يوليو بعد الهزيمة قد جمدت نهائياً الاتجاه الاشتراكي والثوري في بناء المجتمع عند الحدود التي كانت قد وصلت اليها وقتئذ باسم الحفاظ على وحدة الجبهة الداخلية وضرورات الصمود – التي تحولت عملياً الى جمود (باستثناء اعادة بناء القوات المسلحة) ، بدلاً من ان تكون مناسبة لتعميق المحتوى الاجتماعي للثورة وترسيخ مميزاتها الاشتراكية ودفعها في طريق المزيد من الثورية والاشتراكية بالاعتماد على الجماهير المنظمة والمسلحة من الفلاحين والعمال .

٥) اعتقد أن أهم ما جاء في مقال نديم البيطار هو الشروط التي ذكرها في

احدى الحواشي لتحول الجماهير ، وتحوله معها ، عن الولاء لشخص عبد الناصر ولثورة ٢٣ يوليو . هذه الشروط هي : أ) « وقوع نكسة اخرى في معركة تحرير فلسطين » ، ب) « القبول بحل سلمي نهائي » ج) « عجز ثورة ٢٣ يوليو عن تحرير الأرض المحتلة في حرب حزيران على الاقل » ، د) تطور المقاومة المسلحة الى حرب شعبية تفرز قيادة جديدة تستقطب الجماهير الخ ... » ويعقب البيطار على هذه الشروط بقوله : هذه « هي بعض الحالات التي تدفع الجماهير الى تغيير خطها ، وهذا يعني أن الموقف الثوري العام ، السياسي ، والفكري ، يجب أن يتبع هذا الخط . عندما يحدث هذا ، أكون اول من يؤكد الخط الجديد ويدعو اليه » . نحن نؤكد لنديم البيطار أن هذا قد بدأ يحدث فعلاً ، ضمن حدود طبعاً ، وبدرجات متفاوتة ومع تحفظات لا بد منها . لذلك نرى أن البيطار مدعو ، من حيث المبدأ ، للتحقق من ذلك بنفسه ولتحديد ارتباطه الثوري على هذا الأساس ، كما أنه لا بد من أن نذكر أن مقاله عن الارتباط بثورة ٢٣ يوليو متخلف عن الخط الثوري الجديد الذي بدأ يتبلور ببطء وصعوبة لا مفر منها . ان المفروض بالثوريين الا ينتظروا حتى تأخذ كل التحولات الثورية مداها ، وتتضح معالمها تماماً وتتم ولادتها العسيرة ليعلنوا عندئذ انضمامهم الى الثورة والدعوة الى الخط الثوري الجديد . لقد بدأت الحالات التي عددها نديم البيطار بفرض نفسها على الواقع العربي ، ويفترض بأمثاله ان يساعدوا الخط الثوري الجديد ، الذي أخذ يبرز بسببها ، على اجتياز الصعوبات والعوائق التي تواجهه في اول الطريق ، لا ان ينتظروا حتى ينضج الخط ويسود ليعلنوا ولاءهم له . وفيما يلي سأعلق على كل حالة من الحالات المذكورة على حدة :

أ) اعتقد ان ثلاثة هزائم امام اسرائيل في أقل من ربع قرن كافية ، وليس من الضروري انتظار هزيمة رابعة ليحصل التبديل في خط الجماهير وولائها وليحصل التبديل في مواقف الثوريين . حتى اعتى عتاة الناصريين لن يحتاج الى «نكسة جديدة» ليعيد النظر في موقفه السياسي وخط التزامه حول هذا الموضوع . ب) لا ادري ماذا يعني نديم البيطار «بالقبول بحل سلمي نهائي». اصبح الحل السلمي مرادفاً ، في تعابيرنا السياسية ، لتنفيذ قرار مجلس الأمن المشهور . ولقد اعلنت القاهرة على لسان رئيس جمهوريتها ووزير خارجيتها وجميع سفرائها وعلى لسان محمد حسنين هيكل ومحمد حسن الزيات انها قبلت

بقرار مجلس الأمن (الحل السلمي) وهي مستعدة لتنفيذه حالاً كما أنها تطالب ، يومياً وبالحاح ، الدول الأربع الكبرى بالضغط على اسرائيل للقبول بتنفيذ القرار اياه . ولا ادري كيف بقيت هذه الشكوك في ذهن البيطار حول قبول ثورة ٢٣ يوليو « بالحل السلمي النهائي » . اما اذا رفضت اسرائيل الانصياع لقرار مجلس الأمن بسبب مصالحها الحيوية ومطامعها مثلاً ، فلن يرجع الفضل في ذلك لثورة ٢٣ يوليو بكل تأكيد . مع ان قناعتي الشخصية هي ان اسرائيل سوف تقبل قرار مجلس الأمن في النهاية ، اي سوف توافق عليه عندما تضمن لنفسها ، عن طريق المماطلة والتأجيل ، افضل الشروط واقصى التنازلات لصالحها من قبل الحكومات العربية ومن قبل ثورة ٢٣ يوليو بالتحديد . اذكر هنا على سبيل المثال ، أنه بعد الهزيمة مباشرة تلخص الموقف العربي السياسي بشعار تصفية آثار العدوان و« لا تصرّف بالقضية الفلسطينية ». وبعد عامين من الهزيمة ذكر الرئيس عبد الناصر في تصريحاته لمجلة تايم الاميركية مسألة التفكير بعقد معاهدة عدم اعتداء مع اسرائيل . ان الفاصل الزمني بين « لا تصرّف بالقضية الفلسطينية » من ناحية و« التفكير بتوقيع معاهدة عدم اعتداء مع اسرائيل » من ناحية ثانية ، عامان تقريباً تربط بينهما سلسلة من التنازلات والتراجعات العربية تحت اشراف ما تبقى من ثورة ٢٣ يوليو . حتى الارتباط المرحلي التكتيكي بمثل هذا البرنامج اصبح متعذراً لاعتبارات عديدة منها فقدان كل الوضوح بالنسبة الى الهدف الاستراتيجي لثورة ٢٣ يوليو بعد الهزيمة ، ويفقد الارتباط التكتيكي معناه حين لا يكون معمولاً به على ضوء معرفة واضحة للهدف الاستراتيجي الذي « نتكتك » من اجل الوصول اليه .

ج) ثورة ٢٣ يوليو عاجزة عن تحرير الارض المحتلة في حرب حزيران بالطرق العسكرية الكلاسيكية . ان أية مواجهة عسكرية كبرى هدفها دفع الجيش الاسرائيلي من سيناء الى قواعده قبل الخامس من حزيران ١٩٦٧ سوف تجابه من قبل اسرائيل وكأنها اعتداء على دولة اسرائيل نفسها كما كانت قبل حرب الايام الستة . أي أن اسرائيل لا يمكن ان تتحمل هزيمة واحدة حتى ضمن حدود « آثار العدوان » ، هذا يعني أن القوى الامبريالية الاميركية لن تترك ، أبداً ، اسرائيل تخسر أية معركة أمام الجيوش العربية النظامية . الطريق الوحيدة للنصر ، اذن ، هي حرب التحرير الشعبية وثورة ٢٣ يوليو رفضت نهائياً هذا الاسلوب في التحرير وعادت للاعتماد على الجيوش

النظامية فحسب ، ومرة أخرى لن تترك قوى الاستعمار اسرائيل ضعيفة أمام الجيوش النظامية العربية . د) من نافل القول ان المقاومة الفلسطينية المسلحة لم تتحول بعد الى حرب تحرير شعبية ، ولكن جميع قياداتها وجميع فصائلها المقاتلة اعلنت بوضوح لا لبس فيه أن هدفها هو حرب التحرير الشعبية كما بينت أن غايتها هي العمل اليومي ، عن طريق الكفاح المسلح ، لتحويل العمل الفدائي ، بالتدريج والتصعيد ومع مرور الوقت الى حرب تحرير شعبية حقيقة . كما أنه من نافل القول أن حركة المقاومة أخذت تستقطب الجماهير العربية بشكل واسع جداً وفعال جداً حتى أنه في لبنان بالذات سقط ٢٣ قتيل وما يزيد عن مئة جريح في مواجهة جماهيرية ضد السلطة ، هدفها حماية العمل الفدائي، ومثل هذا الحدث الجماهيري لم يقع قبلاً حتى في أيام النضال والتظاهر ضد الاحتلال الفرنسي . هل يريد نديم البيطار أدلة اضافية على ان حركة المقاومة المسلحة بدأت تفرز قيادات من نوع جديد وتستقطب الجماهير بشكل واسع حول الخط الجديد الذي بدأ يتبلور على مستوى الفكر والممارسة الفعلية ؟

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

البير منصور

نحو الارتباط بثورية دائمة

« يتميز الثوري في ما يتميز به ، بالانسجام التام بين مفاهيمه الثورية وممارسته للنضال الثوري في مستوييه الستراتيجي والتكتيكي ، وبالانسجام التام بين القيم التي يؤمن بها وسلوكه العملي اليومي »

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الالتصاقية الحسيّة L'empirisme دعيّة العلم ، والمكيافيلية السياسية دعيّة الفعالية ، وجهان لواقعية مزيفة هي اخطر ما يواجه الفكر الثوري العلمي واخطر ما يواجه النضال الثوري الفعال .

وقد يكون بحث نديم البيطار « نحو الارتباط بثورة ٢٣ يوليو » افضل تجسيد لها . وقد يصح ان يكون نقده مناسبة لنقد الفكر الالتصاقي المكيافيلي عامة وتوضيح منزلته من الفكر الثوري العلمي وكشف ادعائه للعلمية والموضوعية عن حقيقة قصوره في فهم الواقع ، وكشف ادعاء فعاليته عن حقيقة استسلاميته .

الثوري ، في رأي نديم البيطار ، هو من يتميز بالقدرة على اعتماد مواقف تكتيكية واستراتيجية تأباها نفسه وتتنكرها المفاهيم الثورية الاساسية التي يؤمن بها . واذا كان الثوري قادراً على هذا الانفصام بين ما يفعل وما يؤمن به ، فهو مدعو في ما يفعل الى استلهام تجارب التاريخ الوحدوية مستخلصاً منها خطه الستراتيجي اياً كان موقع المفاهيم الثورية التي يؤمن بها من هذه التجارب وعبرها .

فتجارب التاريخ الوحدوية تعلم في رأي البيطار درسين مهمين :

– الاول يقول ان النظم تنشأ مستعملة القوة وتحقق وحدتها بالتفافها حول قاعدة اساسية تنطلق منها وتحقق نجاحها بقدر التفافها حول هذه القاعدة.

– والثاني يقول ان جميع الحركات الثورية والنظم قديمها وحديثها بحاجة الى قائد شخص يحقق انتصارها ويجسد آمالها .

الوحدويون الثوريون مدعوون اذن من الوجهة الستراتيجية الى اختيار قاعدة يلتفون حولها وقائد يقود نضالهم ويتزعمه . واما مقاييسهم في هذا الاختيار فاثنان : مقياس النسبية التاريخية المطلقة ، ومقياس حكم الجماهير . وتقول النسبية التاريخية المطلقة ان لا خير ولا شر مطلقان ولا حق ولا خطأ مطلقان بل كل شيء نسبي ، مما يفرض على الوحدويين الثوريين انتقاء احسن ما يوجد بالنسبة الى الوضع الاجتماعي التاريخي الذي هم فيه ، واحسن ما يوجد في هذا الوضع ثورة ٢٣ يوليو وقائدها عبد الناصر . وحكم الجماهير يطابق هذا الانتقاء النسبي ، اذ ان الجماهير متعلقة بثورة ٢٣ يوليو وبزعامة عبدالناصر. فاذا أراد الوحدويون الثوريون ان يكونوا علميين موضوعيين لا ميتافيزيقيين تبشيريين ، فانهم مدعوون الى الارتباط بثورة ٢٣ يوليو على انها القاعدة التي يجب الالتفاف حولها لتحقيق الوحدة والثورة بقيادة عبد الناصر وزعامته. وكل موقف غير هذا هو موقف تبشيري لا يمت الى الثورية العلمية بصلة .

على ضوء هذه الستراتيجية تبنى مواقف تكتيكية وفقاً للقواعد التالية :

١ – وجوب الحكم على الأمور من زاوية افادة العدو وضرره والامتناع عن الاعمال والخلافات التي قد يفيد منها العدو .

٢ – وجوب الابتعاد عن كل مناهضة لثورة ٢٣ يوليو والاكتفاء بالعمل على تطويرها .

٣ – وجوب تقييم الأمور من زاوية تدعيم مركز القاعدة والابتعاد عن كل ما من شأنه ان يضعفها .

٤ – وجوب تجميد كل نضال غير النضال الرامي الى تحقيق الدولة الواحدة بين الاقطار العربية لأن الدولة الواحدة تخلق الأمة الواحدة (لا العكس) ولأن الاشتراكية لا يمكن تحقيقها الا في ظل الدولة الواحدة .

هذه هي المقاييس والأسس الفكرية التي يعتمدها نديم البيطار في الدعوة

ARCHIVE
http://archivebeta.sakhrit.com

الى الارتباط بثورة ٢٣ يوليو مشدداً على ان هذا الارتباط انما هو ارتبـاط استراتيجي تكتيـكي لا يتأثر بمضمون ثورة ٢٣ يوليـو ويجب ألا يحد منه مضمون المفاهيم الثورية .

ترتكز البنية الفكرية لدعوة نديم البيطار الى تيارين فكريين متلازميـن من حيث المنطلقات والنهج : تيار المكيافيلية السياسية في المستوى العملي وتيار الالتصاقية التجريبية في المستوى النظري .

قوام المكيافيلية الفصل بين المفاهيم والعمل وبين القيم والسلوك ، وقـوام الالتصاقية الغرق في التجربة والواقع بحيث تضيع المعرفة العلمية في التصاقية حسية . والحقيقة ان المكيافيلية هي وجه الالتصاقية في المستوى العملي ، بينما التجريبية هي وجهها في المستوى النظري . فاذا كان الثوري يتميز بالفصل بين مفاهيمـه وعمله فهو يحكم على نفسه بعدم فهم التجارب التاريخية التي يلزم نفسه باستخلاص احكامها لبناء استراتيجية على اساسها . ففهمه للواقع مجرداً عن مفاهيمـه ومقولاته فهم سطحي جزئي مجتزأ يشوه الواقع والتاريخ ، وبالتالي يستخلص استراتيجية ليس لها مرتكز علمي ، قوامها الجرجرة الحركية وراء الواقـع الجامد . فالتناقض الفعلي واقع بين الفكر العلمي من جهة والفكر الالتصاقي والفكر التبشيري الميتافيزيقي من جهة ثانية . فالالتصاقية والميتافيزيقية سواء في عدم فهم الواقع وخاصة الواقع التاريخي : الالتصاقية تتجاهل مستوياتـه وترابط هذه المستويات ، والميتافيزيقية تقلص هذه المستويات في مستوى واحد (المستوى النكراني) . الأولى تتجاهل بُعد الممكن في الواقع والثانية تتجاهل فيه بعد الموجود . اما الفكر العلمي فينظر الى الواقع في تعقيده وتعدد مستوياته وترابطها وفي وحدة ابعاده الموجودة والممكنة .

على ضوء الالتصاقية تصبح التجارب التاريخية والقواعد المستخلصة منهـا : تجارب وقواعد شكلية لا فائدة علمية منها ولا فائدة عملية ، اذ تصبح قواعد مفرغة من مضامينها يصح لكل دعي (رجعياً كان أم ثورياً) ان يستنفرهـا لصالحه ويدعي على اساسها الالتزام باحكام التاريخ .

فاستخلاص ضرورة وجود قاعدة في كل نظام يسعى الى تثبيت نفسـه وتوحيد شتاته انما هو تقرير امر شكلي بدهي ليس فيه اي عبرة او علـم . وما هو الا فذلكة بتطريز تاريخي للرأي القائل بضرورة القيادة في كل عمـل

سياسي . وهو من البديهيات التي لا تحتاج الى تجارب التاريخ لاثباتها : لأنها بديهية منطقية او هكذا على الأقل اصبحت بالنسبة الى الفكر الثوري المعاصر. وهي لكونها قاعدة شكلية ، بحاجة الى مقاييس خارجة عنها كي تصبح قاعدة عمل . لهذا نرى نديم البيطار يستعين في اختيار قاعدة القيادة بمقاييس منطقية محضة خارجة عن نطاق التجارب التاريخية ، كمقياس النسبية المطلقة ومقياس حكم الجماهير ، وكذلك شأنه تجاه القانون التاريخي الثاني القائل بشخصنة القيادة . فهو ينتقل من ملاحظة سطحية سريعة تقرر بعض الواقع الى استنتاج الواجب استنتاجاً مطلقاً . فمن ملاحظة وجود قادة على رأس حركات التحرر والثورة في العالم يستنتج ان الثورة بحاجة الى قائد شخص متجاهلاً اكبر ثورات التاريخ التي لم تتشخصن فيها القيادة كالثورة الفرنسية مثلاً ،ومتجاهلاً في الثورات الأخرى دور القيادات الجماعيـة الحاسم كقيادة اللجان المركزية للاحزاب الشيوعية البلشفية والصينية . ان الدور الحاسم في قيادة الثورات الحديثة في التاريخ كان للقيادات الجماعية التي تبرز في ظلها شخصية قيادية واحدة او اكثر، اذ ان من الغبن التاريخي تجاهل دور تروتسكي وستالين بالنسبة الى لينين ، او دور تشي غيفارا وراوول كاسترو بالنسبة الى فيدل كاسترو، أو دور جياب بالنسبة الى هوشي منه، أو دور شوآن لاي وليوشاوشي بالنسبة الى ماوتسي تونغ . القيادة الجماعية في الثورات الحديثة هي الأساس القيادي ولا دور دونه ولا امكانية بروز لأية شخصية قيادية فردية . اما شخصنة الحكم في الرأسمالية الحديثة فله اسبابه في بنية هذه الانظمة وتطور الرأسمالية الحديثة وتطور السلطة فيها وبخاصة دور الرأي العام والدعاية والاعلان وبروز السوق الاستهلاكية مع ما تفرضه في جميع قطاعات المجتمع ومستوياته ، ومنها قطاع الحكم الذي اصبح بحاجة الى ممارسة استهلاكية كسائر القطاعات الأخرى . فليست شخصنة الحكم في هذه الرأسمالية الاستهلاكية الا وجهاً من وجوه الاثارة الاعلانية كما هو حاصل تماماً لا للقادة السياسيين فحسب بل حتى لممثلي السينما وأبطال الرياضة وبطلات الجنس والعهر ... الخ . فعوض ان يستخلص نديم البيطار من التاريخ عبرة ضرورة وجود قاعدة التفاف لتحقيق الوحدة وضرورة وجود شخص قائد لانجاحها كان الأولى به في ادعائه العلمية ان يتبصر في الظروف الموضوعية التي نشأت فيها القاعدة الثورية والظروف الموضوعية التي نشأت فيها القيادات الشخصية . اذ أنه بمثل هذا البحث العلمي كان استخلص

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

مفاهيم علمية اغنته عن الاستعانة بمقياس « افعل التفضيل » لاختيار القاعدة الثورية وقائدها ومقياس الجرجرة وراء الجماهير لتثبيت هذا الاختيار او نقضه. فالنسبية التاريخية التي يعتمدها نديم البيطار لاختيار القاعدة الثورية مقولة التصاقية تشوه الواقع التاريخي فتأتي الاحكام المبنية عليها أحكاماً ناقصة مشوهة.

هذه النسبية التاريخية المطلقة تفهم الواقع فهماً ناقصاً، اذ انها لا تنسب في الواقع، الا الى الموجودات ، فلا ترى فيه الا بعداً واحداً هو بعد الموجود . والواقع بالنسبة الى الفكر العلمي الثوري هو امكان اكثر منه وجود ، وبُعدُ الامكان في الواقع هو بعده الثوري بل هو البُعد الذي يتطلع اليه الثوري كمجال لتحقيق ثوريته . ولولا هذا البعد، بُعد الممكن ، لما كان مجال لثورية ولا لثوريين . فان شئنا ان نعتمد النسبية كمقياس في اختيار قاعدة الالتفاف الثوري ، علينا ان لا ننسب الى الموجود فحسب بل الى الممكن كذلك . فالعلمية ترى في الواقع بعدين: بعد الموجود وبعد الممكن، بينما لا ترى فيه الالتصاقية الا بعد الموجود. النسبية العلمية ، كذلك ، نسبية ثورية تقدمية ، بينما النسبية الالتصاقية نسبية رجعية محافظة . وليس ادل على رجعية النسبية التي يعتمدها نديم البيطار ، نسبية التفضيل بين الموجودات وتجاهل الممكنات ، الا الرجوع تاريخياً الى مرحلة ما قبل ثورة ٢٣ يوليو . فماذا كانت تختار نسبية نديم البيطار عندها ؟ هل كانت اكتفت بالمفاضلة بين حكم فاروق والنحاس باشا وحكم نوري السعيد وحكم الملك عبدالله وحكم الملك عبد العزيز لتختار من بينها قاعدة الالتفاف ام كانت رفضتها جميعاً كما يفترض بكل فكر ثوري ، ونسبت الى الممكن فدعت الى حزب ثوري أو حركة ثورية ؟ ان السؤال الذي تقف النسبية الالتصاقية امامه عاجزة هو : كيف يتم اختيار القاعدة الثورية قبل وجودها ؟ اي كيف تخلق القواعد الثورية ؟

وفي نظرة الى الواقع القريب الى ما قبل ١٩٦٧ اي قبل قيام حركة الفداء الفلسطينية ، هل كان على الفلسطينيين والعرب ان يلتفوا حول ثورة ٢٣ يوليو ولا يعملوا على انشاء حركة فدائية مستقلة عنها تطمح الى ان تصبح هي القاعدة الثورية في البلاد العربية جمعاء ؟ ان النسبية الالتصاقية ، عدا كونها عاجزة عن اكتشاف القاعدة الثورية قبل اعلان هذه الأخيرة عن نفسها واثبات وجودها ، هي كذلك عاجزة عن دفع المبادرة الثورية ان لم تكن اداة لكبتها وتحويلها

في عملية « افعل التفضيل » نحو المحافظة والاستسلام . وما هذا كله سوى نتيجة للفكر الالتصاقي الذي يتجاهل في الواقع ُبعد الممكن ، وهو البعد الثوري، مكتفياً ببعد الموجود ، وهو البعد المحافظ . ان النسبية العلمية الثورية هي التي يجب اعتمادها لأنها وحدها تفتق طاقات الابداع الثوري وتجنب الثوريين المحافظة المتسترة بالتقدمية ، وتشويه الواقع المتستر بالعلمية والموضوعية .

هذه النسبية تؤدي الى ما يخالف استنتاج نديم البيطار القائل ان ثورة ٢٣ يوليو هي افضل الموجود . فاذا ما نسبنا الى الممكن تبدو لنا الثورة الفلسطينية في حركتها الفدائية هي افضل الحركات الثورية وهي التي يجب الالتفاف حولها. وفي حال وقوع خلاف بينها وبين ثورة ٢٣ يوليو (بالنسبة ، الى الحل السلمي مثلاً) وجب الالتفاف حولها ودعمها باعتبارها القاعدة الثورية القادرة لا على الانتصار القريب الآني فحسب ، بل باعتبارها كذلك قادرة على تفتيق طاقات الثوريين وتفتيق كل امكانات الثورة والتضحية والابداع في الانسان العربي . اذ ليس المهم الانتصار القريب والانتصار السريع بقدر ما هو مهم خلق جيل جديد تتأصل فيه بصورة موضوعية طاقات الثوار العلميين ، أي طاقات النصر الدائمة . ان ثورة ٢٣ يوليو ، وان كانت تجمع طاقات كبيرة لنصر سريع ، عجزت خلال عشرين سنة عن خلق طاقات بشرية تؤمن النصر الدائم والثورة الدائمة ، اي انها لم تخلق ثواراً بل موظفين . ان النسبية العلمية تنظر الى الثورية كحركة ابداع وخلق دائمين تتخطى ذاتها في دأب وممارسة ، نحو ثورية اكثر فهماً للواقع في بعد نظري عنه وبالتالي اكثر فعالية فيه على قرب عملي منه . ان النسبية العلمية هي دعوة الى الارتباط بثورية دائمة ، لا الى تجميد الثورية في عملية التفاف استراتيجي حول قاعدة وحدوية ثورية مختارة وفقاً «لافعل تفضيل» التصاقي استسلامي .

وتبدو الجماهير نفسها لمن يعرف سبر اغوارها وقراءة أحاسيسها متجهة في هذا المنحى الثوري ، منحى الارتباط بثورية دائمة عن طريق الالتفاف حول حركة الفداء الفلسطينية . لذلك لا تواجه الجماهير بنسبية التصاقية تلزمها كما تلزم صاحبها بالجرجرة وراء الواقع وثقله . الجماهير بحاجة الى من يحول حسها الى وعي ويحول عفويتها الى خط عقلاني علمي . الخطوط التي ترسمها الجماهير خطوط خام بحاجة الى صناعة ثورية لكي تصبح دليلا ثورياً. اي ان الجماهير هي ذاتها بحاجة الى علم ودليل لوعي ذاتها ومصالحها وتحويل حسها وعفويتها

الى خط ثوري واضح تحدد فيه الصداقات والعداوات وتحدد فيه الأهداف الثورية .

اذا كانت الجماهير بحسها وعفويتها تصلح دليلاً للثوريين في مراحل النضال العادية ، مراحل التعبئة والاجماع ، فهي تحتاج الى دليل ثوري والى قيادة الثوريين في المراحل الصعبة التي تقف فيها الجماهير حائرة او تنقسم فيها على ذاتها . فبماذا يُستدل عندما تقف الجماهير حائرة أو عندما تنقسم على نفسها ؟ أيُستدل بحكمها هي وهي بحاجة الى حكم ودليل ، ام يُستدل بفهم علمي ثوري يكون هو الدليل للثوريين وللجماهير معاً ؟ ان حيرة الجماهير وانقسامها على نفسها اسطع دليل على ان الثورية فهم ومفاهيم ومعرفة علمية ثورية قبل ان تكون حساً جماهيرياً وانتفاضات جماهيرية . حكم الجماهير هو ذاته بحاجة الى حكم الثوريين عندما تقف الجماهير حائرة تتلمس ذاتها او عندما تنقسم على نفسها ضائعة ضالة مضللة . ان الجماهير في لبنان والجماهير في سوريا مثلاً منقسمة على نفسها في ما يقرره نديم البيطار وفقاً لحكم هذه الجماهير كموقف استراتيجي ثوري . فالجماهير في سوريا منقسمة حول نسبة ثورة ٢٣ يوليو الى الوحدوية الصحيحة . فهذه الجماهير بعد ان خبرت حكم الثورة المصرية طيلة ثلاث سنوات انقسمت على نفسها : منها من يعتقد ان ثورة ٢٣ يوليو هي ثورة وحدوية ، ومنها من يقول ان ثورة ٢٣ يوليو ثورة اقليمية قطرية مصرية ليس الا . بل قد يذهب البعض الى حد اتهام هذه الثورة باجهاض الاندفاع الوحدوي في تجربة شاءها الاستعمار مسايرة للخط الوحدوي بقصد تصفية عناصره الثورية وبالتالي الانقضاض عليه وتصفيته هو ذاته ، اي ان هذا البعض ينسب الامر الواقع الذي حصل في تجربة الوحدة منذ قيامها الى تصفية الحزبيين الوحدويين الثوريين فيها ، الى الاتكال على العناصر الانفصالية الرجعية أصلاً ، الى انفراط عقد الوحدة ، ينسب جميع هذه الامور الى مخطط استعماري وضعت مراحله ونفذت الواحدة تلو الأخرى ولعبت فيه ثورة ٢٣ يوليو من حيث تدري أو لا تدري دوراً اساسياً أسهم إسهاماً كبيراً في اجهاض الحركة الوحدوية الثورية. حيال انقسام جماهيري كهذا ، الى اي حكم يلجأ الثوري لتقييم الأوضاع واتخاذ مواقف استراتيجية : أإلى حكم الجماهير المنقسمة ، ام الى مفاهيمه الثورية النابعة من فهم الواقع بكل ابعاده بما فيه حس الجماهير وعفويتها ؟

والجماهير في لبنان منقسمة على نفسها حول نسبة الوحدة ذاتها الى الثورية.

فنصف لبنان يرفض المسلّمة التي ينطلق منها نديم البيطار في ان الوحدة ثورية في ذاتها وان نضال الوحدة نضال ثوري . هذا بالاضافة الى ان نصف لبنان يرفض الالتفاف حول ثورة ٢٣ يوليو كما يرفض الالتفاف حول عبد الناصر . فما العمل حيال هذا الانقسام الجماهيري الفعلي والى اي حكم نلجأ ؟

ان الانقسام الجماهيري في لبنان خاصة يتطلب فرضاً اعادة نظر في المسلّمات نفسها واعادة تقييم للوضع والواقع على ضوء مفاهيم علمية ويتطلب بالتالي اعتماداً على استراتيجية نابعة من مفاهيم علمية لا من احكام التصاقية سريعة ولا من تجارب تاريخية مفادها شكلي وحكمها سطحي . فالوضع في لبنان احوج ما يكون الى فهم الواقع على ضوء ممكناته لا على ضوء موجوداته ، والى منطقية علمية لا الى منطقية التصاقية . ان الستراتيجية الالتصاقية التي يعتمدها نديم البيطار قد تؤدي به الى تحليل استعمال القوة في اخضاع نصف لبنان للوحدة: « أو ليست النظم السياسية تنشأ وتمتد وتتطور عن طريق القوة والغزو ؟ » متجاهلاً بذلك التناقض القائم بين تجارب التاريخ ومقياس حكم الجماهير. الا اذا اعتُبرت الجماهير في لبنان غير ذات حساب لقلة عددها بالنسبة الى الجماهير العربية . وما هذا الامر ببعيد عن المنطق الالتصاقي ولا عن المنطق المكيافيلي . فالنسبة الى ممكنات الواقع اللبناني تكشف عن امكان دور تقدمي على الثوريين السعي الى تجسيده في تجربة ثورية جديدة . المنطق العلمي يفرض بالنسبة الى لبنان انشاء حركة ثورية جديدة لا الالتفاف حول قاعدة موجودة واغتصاب الجماهير على اساس هذا الالتفاف بحركة توحيدية قسرية . التجربة الثورية الجديدة بالنسبة الى لبنان يجب ان تنطلق من رفض المسلّمات الثورية المعتمدة في الاقطار الاخرى وهي :

- الوحدة ثورية في ذاتها ونضالها نضال ثوري لأنه نضال وحدوي .
- لا يمكن تحقيق الاشتراكية الا في ظل الوحدة .
- الوحدة شرط الحرية الفعلية والتحرر من التبعية والاستعمار .

هذه المسلمات يجب ان تُربط بفهم احتوائي للواقع اللبناني في موجوداته وترسباته وفي تحولاته وممكناته وبالتالي تقييمها على اساس هذا الفهم . المنطق العلمي يفرض الانطلاق من النضال الاحتوائي المضموني، أي من النضال الاشتراكي التحرري والحكم على اساسه ، على مقدار التوحيد المطلوب حكماً استنتاجياً

لا قبلياً ، حكماً علمياً لا فرضياً ولا اعتباطياً . الوحدة او التوحيد مطلب وطني شكلي يقرره مضمون النضال الحياتي الاشتراكي التحرري ، بقدر ما يحتاج نضال الاشتراكية ونضال التحرر (من التبعية والاستعمار والصهيونية) الى الوحدة ، وبهذا القدر وحسب تُطلب الوحدة ويكون طلبها ثورياً وكل تجاوز لهذا القدر تجاوز اعتباطي غيبي لا يمت الى الثورية بصلة . المهم تحديد هذا القدر من التوحيد في عملية لا تستبعد منذ البدء امكانية تحديده بصفر او بمئة حسب المتطلبات الثورية . ليست الوحدة ثورية في ذاتها ولا نضالها نضال ثوري في ذاته . ان ثورية الوحدة تأتيها مما يؤمل ان تحقق الوحدة من اشتراكية وحرية ، فهي تُطلب لأنها في زعم طالبيها تحقق القوة والاشتراكية والتحرر ... فان كان طلب الوحدة لما تحققه فأولى بان تُقاس على ما يمكن ان تحققه لا العكس ، وعلى ما لا يمكن ان يتحقق بدونها لا على كل ما يمكن ان تحققه نظرياً . ان الستراتيجية المبنية على القاعدة الوحدوية المزعومة ، استراتيجية التصاقية من حيث منطقها ، غيبية من حيث التزامها ، وهي في أية حال لا علمية ولا ثورية بل قد تناقض الثورية كما تناقضها الرجعية او المحافظة . واذا كانت الستراتيجية غير علمية فالتكتيك المبني عليها تكتيك لا علمي ينهار بانهيارها ، هذا وان كان للتكتيك كمستوى ذي استقلال نسبي قواعده الخاصة التي قد يصح البحث فيها بمعزل عن اي موقف استراتيجي ، ولنا فيها رأي يختلف عن رأي نديم البيطار ، غير اننا آثرنا عدم البحث فيها لانتفاء الفائدة العلمية منها في سياق هذا البحث .

الثورية العلمية تناقض برأينا الالتصاقية والمكيافيلية في منطلقها وفي استنتاجاتها ويمكن تلخيص هذه الفوارق بما يلي :

١ — الثورية العلمية تؤكد اولوية المفاهيم الثورية والنظرية الثورية على الاستراتيجية والتكتيك .

٢ — الثورية العلمية تبني استراتيجيتها على اساس فهم ثوري وعلى اساس انسجام تام بين المفاهيم الثورية والستراتيجية المعتمدة .

٣ — الثورية العلمية تعتمد مقاييس علمية نظرية في الحكم والاستنتاج اي مقاييس احتوائية مضمونية لا مقاييس شكلية اطارية .

٤ — الثورية العلمية تفهم الواقع وخاصة الواقع التاريخي فهماً كلياً شاملاً .

فالواقع بالنسبة اليها وحدة معقدة مركبة من مستويات عدة مترابطة في ما بينها ترابطاً تلازمياً تفاعلياً تتحرك في ابعاد متعددة: ابعاد الموجودات وابعاد الممكنات.

٥ – الثورية العلمية تعتمد العفوية الجماهيرية لبلورتها وتحويلها الى وعي علمي لا للانسياق وراءها والضياع في متاهات الحس وانفعالاته، لتحويل هذا الحس الى وعي علمي وفهم عقلي يضمن استمرار الجماهير في سلامة عفويتها ويقيها خطر التحول في منحى الدعايات الزائفة او في منحى استثارة رغباتها ونزواتها.

٦ – الثورية العلمية تدعو الثوريين في المرحلة الراهنة الى الالتفاف حول الثورة الفلسطينية والحركة الفدائية كقاعدة للعمل الثوري كما تدعو الى تشجيع الابداع الثوري في ما يضمن عدم انحراف هذه الحركة عن ثوريتها، ويكيّف عفويتها في أُطر نظرية علمية تؤمن لها الصلابة الثورية والفعالية الثورية. اي ان الثورية العلمية تدعو الثوريين الى الارتباط بثورية دائمة.

٧ – الثورية العلمية تقيّم المراحل وتقيم الحركات بنسبة ثوريتها الفعلية، فهي تصبو الى ثورية دائمة تُقيّم بالنسبة اليها، كممكن مطلق، النظم والحركات واضعة اياها في موضعها الحقيقي من الثورية. فمن ضمن هذا الاطار تصنف ثورة ٢٣ يوليو كثورة تقدمية هي بما بنت من نظام ركيزة مهمة من ركائز النضال ضد الصهيونية والاستعمار.

٨ – الثورية العلمية تدعو الى معالجة الوضع اللبناني من خلال حركة ثورية جديدة تنطلق من فهم احتوائي شامل للواقع اللبناني، تحاول فيه حلاً لا تجاهلاً وتنطلق من رفض المسلمات ومن رفض فرض التجارب بالقوة واثبات الفعالية عن طريق الغزو. الثورية العلمية ترفض الالتصاقية التجريبية كدعية علم وترفض المكيافيلية كدعية فعالية، اياً كانت الاقنعة التي تتستر بها هذه المكيافيلية واياً كان صدقها حيال قضية الوحدة. فالوحدة نفسها بحاجة الى ضمانة ثورية والى من يبرئها من تهمة الاعتباط واجهاض الحركة الثورية، فكيف تُستعمل هي كضمانة لتبرىء المكيافيلية والالتصاقية؟

ليس للمكيافيلية، قديماً وحديثاً، بين الثوريين من يبرئها من تهمة اجهاض الابداع الثوري وتعطيل الفعالية الثورية. وقديماً كان مكيافيلي من دعاة الوحدة الايطالية التي لم تتحقق الا على اساس نشأة ظروف موضوعية معينة لا بفضل قواعد المكيافيلية وتعاليمها ولا بفضل «أميرها» الذي يدعو عن وعي ومعرفة الى الفصل بين القيم والسلوك، تماماً كما نحن اليوم امام دعوة الفصل بين المفاهيم الثورية والستراتيجية الثورية.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الياس شاكر

كيف نفهم ثورة ٢٣ يوليو ؟

منذ ان توصلت الجماعات البدائية الى تقدم في التكنيك يسمح لها بتحقيق وفر في الانتاج ، ظهرت الملكية وانقسم المجتمع الى طبقات ، وظهرت الدولة كجهاز قمع لصالح الطبقة الحاكمة . وكانت الطبقات الحاكمة تفرض بواسطة الدولة تصورها للعالم وللعلاقات الاجتماعية ، والمفاهيم التي تخدم مصالحها الطبقية وتخفي استثمارها الطبقي ، بما في ذلك مفهومها للدولة ، مضفية عليها هالة من القدسية لأرهاب الشعب بنار الآخرة بالاضافة الى حديد هذا العالم . كانت اشكال الاستثمار الطبقي تتحول مع تطور وسائل الانتاج وتبعاً للاثر الذي كان يتركه هذا التطور في علاقات الانتاج . فبعد ان كانت علاقة الاستثمار الرئيسية في المجتمعات القديمة هي علاقة السيد والعبد ، اصبحت في المجتمعات الوسيطة علاقة السيد الاقطاعي بالقِن ، ثم حلت مرحلة الاستثمار الرأسمالي في المجتمعات وحلت معها علاقة استثمار جديدة بين الرأسمالي الذي يملك وسائل الانتاج والبروليتاري الذي لا يملك غير قوة عمله . هذه العلاقة كانت اكثر اشكال الاستثمار في التاريخ تستراً. فالبروليتاري حر نظرياً في الاختيار بين ان يبيع قوة عمله او يموت جوعاً . فظاهر العلاقة هو بين الانسان والآلة التي انتجها هذا الانسان . وهذا مما سمح للبرجوازية بالاستغناء عن تبرير سلطة الدولة ، دولتها هي ، بتبريرات دينية كالتي كان يلجأ اليها لويس الرابع عشر مثلاً . كان المجتمع عند روسو نتيجة لعقد وهمي يبدو في الظاهر كأنه تم بكل حرية ، وكانت الدولة عند هيغل تجسيداً للعقل المطلق الذي تذوب بتحققه كل التناقضات . لكن يجب ان لا ننسى ان مجتمع روسو ودولة هيجل كانا نقيضين

للمجتمع والدولة في شكلها الاقطاعي – الملكي القديم ، في شكلها الذي اصبح عائقاً في وجه تطور القوى الانتاجية الجديدة ، في وجه تطور البورجوازية . لقد قامت البورجوازية بثورتها بمفاهيمها الخاصة بها ، لكن ذلك لا يعني ان هذه المفاهيم هي التي اوجدت البورجوازية . كما يجب ان لا ننسى ان الثورة الفرنسية اوصلت البرجوازية وحدها الى السلطة رغم ان قوى الثورة الرئيسية كانت الجماهير الكادحة المؤلفة من البرجوازية الصغيرة والبروليتاريا الناشئة كنقيض حتمي ملازم للعلاقات الرأسمالية يتطور بتطورها . ولم يكن من الممكن ان يأتي الأمر على نحو آخر لأن الطبقات الكادحة كانت تثور بمفاهيم البورجوازية لا بمفاهيمها الخاصة . لقد حدثت الأمور بشكل مختلف في ثورة اوكتوبر الاشتراكية اذ استطاع البلاشفة بقيادة لينين تحويل الثورة البورجوازية الى ثورة بروليتارية ، لأن البروليتاريا الروسية ثارت بمفاهيمها هي وكانت متسلحة بالماركسية اللينينية ، نظريتها الثورية ، وكانت قد نجحت في شل تأثير الايديولوجيات البرجوازية والبرجوازية الصغيرة على طليعة البروليتاريا المتمثلة في حزبها ، هذه الايديولوجيات التي كانت تتسرب من اليمين بواسطة المنشفيك ، ومن اليسار بواسطة تروتسكي ، مثلاً .

باستلام البروليتاريا مقاليد السلطة ، دحضت نهائياً كل الأوهام حول طبيعة الدولة البرجوازية . ان البروليتاريا لا تخفي ان الدولة في يديها لها وظيفة الردع ، وان هذا الردع موجه الى قوى الثورة المضادة ، وانها ستظل محتفظة بهذا السلاح طيلة مرحلة الانتقال الاشتراكية . ان البروليتاريا لا تخفي طبيعة الدولة لانها لا تستغل طبقة اخرى ، ولأنها لا تحرر نفسها كطبقة الا بالغاء كافة اشكال استثمار الانسان للانسان .

بانتصار البروليتاريا ولو في بلد واحد ، سقط القناع الديمقراطي عن الدولة البرجوازية ، واصبح من العسير جعل النضال الديمقراطي يصب في طاحونة البرجوازية كما جرى في الثورة الفرنسية . زالت عن الدولة القدسية التي كانت تحميها في عهد الاقطاع بنجاح الثورة البرجوازية في فصل الدين عن الدولة . ثم زال الوهم حول الطبيعة الديمقراطية للدولة البرجوازية كدولة فوق الطبقات بنجاح الثورة البروليتارية . ان ظهور الفاشية والنازية بعد ثورة اوكتوبر لم يأت عفواً . بل رافق اول ازمة اقتصادية دورية ضربت العالم الرأسمالي سنة ١٩٢٩ بعد نجاح اول ثورة اشتراكية في التاريخ . ان الفاشية تعني تخلي

الايديولوجية البرجوازية ، في مرحلة الامبريالية ، عن مفهوم روسو حول المساواة في المجتمع ، واكتفاءها بمفهوم هيغل حول المساواة في الدولة . إن كلاً من المفهومين وهم ايديولوجي . لكن اذا كان المفهوم الاول صالحاً للاستخدام عندما لا تشكل الحركة الثورية للطبقة العاملة خطراً مباشراً على سلطة البرجوازية ، فانه يصبح غير صالح في فترات المد الثوري والازمات الاجتماعية التي تلازم المجتمع الرأسمالي ، هذه الفترات التي يصلح لها بالعكس ، المفهوم الثاني ، تبريراً لتدخّل الدولة المباشر كقوة قمع موجهة الى الشعب بحجة اعادة الاستقرار وصيانة الدولة كفكرة مطلقة ، تمثل العنف المطلق الذي يذوّب كل التناقضات في الفكر تعسفاً ، ليبرر كل محاولة لتجميد تطور التناقضات الاجتماعية في غير صالح البرجوازية ، ولو عن طريق الابادة الجسدية والارهاب الفكري . هذه الايديولوجية الفاشية حول الدولة تجد خير تعبير عنها في قول نديم البيطار : « ان الدولة تبرز نتيجة قوة خارجية ، تفرض في ابتداء الأمر على الافراد ان يتحدوا رغم ارادتهم » و « ان النظم السياسية الاولى نشأت ، وكانت تمتد وتتطور عن طريق القوة والغزو » و « الشرط الاول لكي يتطور الانسان والمجتمع سياسياً هو وجود نظام سياسي اولاً وليس نوعية هذا النظام ».

لكن مع دخول الامبريالية — اعلى مراحل الرأسمالية واكثرها تفسخاً — مرحلةً جديدة من ازمتها في الحرب العالمية الثانية ، ومع تطور حركة التحرر الوطني في آسيا وافريقيا واميركا اللاتينية بشكل متسارع بعد الحرب ، اصبحت ازمات المجتمع الرأسمالي اكثر فأكثر تقارباً في الزمن حتى اصبحت مستمرة . وبات اعتماد البرجوازية على القوة العسكرية في حماية مصالحها السياسية دائماً ، وبالتالي اصبحت الحاجة الى المفاهيم الفاشية عن الدولة ضرورة عضوية دائمة ايضاً . ومع نمو قوى الاشتراكية وتطور ثورة التحرر في آسيا وافريقيا واميركا اللاتينية بعد الحرب العالمية الثانية ، فُضحت نهائياً الدولة الرأسمالية في مرحلة الاحتكارات والامبريالية ، وأصبح كل نضال تحرري او ديمقراطي او وحدوي تخوضه الطبقات المستثمَرة او الشعوب المستعمَرة هو نضال معاد للامبريالية ، ولا يمكن ان يحقق اهدافه الا بالنقيض التاريخي للامبريالية ، أي بالاشتراكية .

ان الحاجة الدائمة الى الفاشية لدى قوى اليمين الرجعي تجد التعبير عنها في قول نديم البيطار : « ان الأوضاع المستقرة ذاتها ، وليس المراحل الانتقالية

والأزمات الداخلية والخارجية وحسب ، تكشف دائماً عن هذا الاتجاه النفسي الاجتماعي نحو شخصنة القيادة » و«القيادات الثورية كانت دائماً قيادات مشخصنة ومركزة ودرجة الشخصنة والتركيز فيها كانت تزداد حدة بازدياد حدة الازمات والمشكلات التي تتكشف عنها المرحلة الثورية ».

قبل ان نتابع لا بد ان نتوقف قليلاً لنلاحظ :

١ — عندما يتكلم نديم البيطار عن ضرورة القيادة المشخصنة في فترات الأزمات ، فهو يعني ضرورة الدولة الفاشية المشخصنة . ويصبح الولاء للقائد هو الولاء للدولة وبالعكس : « الأمر الثاني في الأهمية من حيث تطور الانسان السياسي كان ، بعد خلق النظام السياسي ، خلق المزاج العام وبلورته ، كان ذلك دائماً يعتمد على حاسة التقليد التي كانت تركز مشاعر وافكار الافراد والجماعات على نموذج عام يتمثل في قائد كبير واحد أو اكثر ».

٢ — الفكر الثوري هو الفكر الذي ليس لديه ما يخفيه فيتوجه الى عقل الشعب والطبقات الكادحة ليقول الحقيقة دائماً، ولو كانت مؤلمة. ذلك ان الثوري الحقيقي هو الذي ينطلق من اليقين بأن الجماهير تستطيع ان تقود الثورة الى النصر اذا تسلحت بالوعي. الفكر الثوري يتوجه الى دماغ الكادحين ، يعلمهم ويتعلم منهم . اما الفكر اليميني الفاشي فيحاول تعطيل وعي الكادحين وينمي فيهم نشاط النخاع الشوكي ، مركز ردود الفعل الآلية ، بقصد « خلق المزاج العام وبلورته » ، بالاعتماد على « حاسة التقليد ». اي ان الجماهير هي في نظر الثوري الحقيقي صانعة التاريخ ، وفي نظر الفاشي قطيع وحسب .

٣ — ان اهمية وجود قيادة مشخصنة لقوى الثورة يجب ان ينسينا ان اليمين الفاشي يشعر بالحاجة نفسها الى قائد يكون رمزاً للدولة ، يدعي تمثيل الأمة بكافة طبقاتها بقصد تغطية التناقضات وتجميد ازمة الطبقة الحاكمة وبخاصة في الفترات الثورية . ان القائد الثوري هو عقل الثورة ، اما الزعيم الفاشي فليس سوى مرضها «النفسي» الذي يبرره نديم البيطار بالقول بوجود « الاتجاه النفسي الاجتماعي » . ان الدولة الفاشية تسخر كل اجهزة الاعلام والتربية لخلق الفراغ « النفسي » ثم تملؤه بصورة القائد الزعيم .

٤ — « الانسان السياسي » الذي يريده نديم البيطار ، على ضوء ما سبق من

مفاهيم ، هو اذن ذلك الذي يجمد عمل دماغه ، بارادته او رغم ارادته ، ليحرر عمل نخاعه الشوكي من اي تشويش : « الثوري هو الذي يتميز ، فيما يتميز به ، بالقدرة على اعتماد مواقف استراتيجية وتكتيكية قد تأباها نفسه وتنكرها المفاهيم الثورية الاساسية التي يؤمن بها » . أي بتعبير آخر « الانسان السياسي » هو من يملك « حاسة تقليد » تسمح ببلورة مزاجه حسب « المزاج العام »، فيصبح قادراً على الاستجابة الى ما يطلب منه من مواقف «استراتيجية وتكتيكية » دون تشويش من الدماغ ومن « المفاهيم الثورية » التي ربما تكون قد تسربت الى نفسه وعقله في فترة ثورية معينة . « الانسان السياسي » هو الذي يستطيع ان يضع عقله على الرف ويتحول الى « دمية سياسية » . وكل من يرفض ذلك هو في نظر نديم البيطار « غيبي ميتافيزيقي تبشيري ، ذو فكر يعمل في اطارات نفسية وعقلية تقليدية ، مثقف يريد فرض وصايته على الجماهير... » . «الانسان السياسي» هو الذي بلغ نخاعه الشوكي من المهارة في اعتماد المواقف « الاستراتيجية او التكتيكية » ، لا فرق ، بحيث اصبح ذا ردود فعل سريعة شأن الموظف في الحزب القومي الاجتماعي الالماني ، زمن هتلر في قوله : عندما اسمع كلمة ثقافة اشهر مسدسي .

على هذه المفاهيم يبني نديم البيطار دعوته للقوى الثورية الى « الارتباط بثورة ٢٣ يوليو قاعدة للعمل الوحدوي الثوري » . بشرط ان تتجمد « المفاهيم الثورية الأساسية »ويعني بها الاشتراكية العلمية ،الى ان يتم بناء الدولة الواحدة. فهو اذ يعترف بأن هذا الموقف يمكن ان تأباه انفس الثوريين ، يحاول ان يضرب المثل بنفسه ويعلن ان « الواقع العربي الثوري بما فيه من حركات ونظم هو واقع باهت ، مزور ، مشوه ، يجب تجاوزه ، وخلق صعيد ثوري جديد » مما يتطلب في رأيه «افراز طلائع جديدة تتجاوز النظم الثورية القائمة لأنهامفلسة عاجزة يجب التحرر منها »، بما في ذلك ثورة ٢٣ يوليو طبعاً ، فنديم البيطار ينفي انه يبني « موقف الارتباط .. على ميزات عبد الناصر الشخصية المجردة ، او ميزات ثورة ٢٣ يوليو في ذاتها ، اي بشكل مجرد » .

قد يبدو ان هناك تناقضاً في موقف نديم البيطار . لكنه يظهر في الواقع في غاية الانسجام مع نفسه . فهو يجرد ميزات ثورة ٢٣ يوليو الاجتماعية التقدمية ، ليفصلها عن ميزات الثورة السياسية ويضعها على الرف ، الى جانب « المفاهيم الثورية الأساسية » في الفكر الثوري العربي الراهن . ونتساءل لصالح

من يأتي هذا الفصل ؟ ونجد الجواب في ثورة ٢٣ يوليو نفسها وعند عبد الناصر بالذات ، الذي قيم تجربة الوحدة بعد الانفصال مباشرة بمثل هذه الأقوال :

« كنا دائماً نرفض المصالحة مع الاستعمار ولكنا وقعنا في خطأ المصالحة مع الرجعية .. فتحنا الطريق الى الاتحاد القومي امام قوى الرجعية .. وحولته الى مجرد واجهة تنظيمية لا تحركها قوى الجماهير ومطالبها الحقيقية .. لم نبذل الجهد الكافي في توعية الجماهير بحقوقها ، وتعريفها بقدراتها وطاقاتها الكامنة على حماية هذه الحقوق .. اصبحت مصالح الجماهير هي المسخرة لخدمة الجهاز الحكومي .. »

في هذا الاتجاه كانت تسير ثورة ٢٣ يوليو وتتطور في ابعادها الثلاثة :التحرري والتقدمي والوحدوي . هذه الابعاد الثلاثة هي وجوه ثلاثة للثورة العربية الواحدة . محركها الرئيسي وضمانة انتصارها على اية جبهة كانت هي الجماهير الكادحة الواعية من عمال وفلاحين ومثقفين وبرجوازية صغيرة بشرط ان تعرف الجماهير الحقيقة كاملة . ان قوى الثورة الحقيقية كانت تقول الحقيقة للشعب ، وقوى اليمين المتمثلة في جسم الثورة تحاول اخفاء الحقيقة ، تحاول منع « توعية الجماهير بحقوقها » وتحول التنظيمات السياسية الى « واجهة تنظيمية » تخفي الصراع الطبقي الدائر . هنا تكمن الثغرات التي كان ينفذ منها الاستعمار والثورة المضادة . فقد جرى الانفصال عندما كانت انظار الجماهير محولة عن الخطر الحقيقي فنجحت المؤامرة . وحصلت نكسة الخامس من حزيران في حين كانت الجماهير بعيدة عن المعركة وقد اوهمتها اجهزة الاعلام بأن كل شيء يجري على ما يرام . وفي الحالتين كان المسؤول هو اليمين الرجعي الذي لا مصلحة له في التحويل الاشتراكي الذي وضعته الثورة كهدف لها ، وفي الحالتين نجح هذا اليمين ، بفضل مواقعه في السلطة ، في شل التحرك الجماهيري عن طريق تشويه « المفاهيم الثورية » لدى التنظيمات الجماهيرية التي يفترض ان تضم الطليعة الواعية ، واستبدالها بمفاهيم تقول بتصالح الطبقات وزوال تناقضاتها في التنظيم الواحد وفي الدولة ، فيما كان يجري تحت السطح صراع طبقي حقيقي . ودائماً كان سلاح الرجعية والاستعمار الجديد هو تجريد الجماهير من سلاحها الايديولوجي ومن « المفاهيم الثورية الأساسية » والهدف هو القضاء على المحتوى التقدمي لثورة ٢٣ يوليو مما يقضي في الوقت نفسه على بعديها التحرري والوحدوي ، ويحولها الى حركة « سياسية » تلهي الجماهير بمواقف

سياسية لا محتوى لها . قد يقال بأن هذا موقف « تكتيكي او استراتيجي مرحلي » سينتهي بعد تحقيق الدولة الواحدة (كيف يمكن ان يكون الموقف الاستراتيجي مرحلياً ؟) اي يجب على الجماهير ان تتخلى عن مفاهيمها الثورية وتخدر يقظتها الثورية تجاه المؤامرات التي تحاك ضد ثورة ٢٣ يوليو بالذات ، الى ان تنجح الدولة المنشودة في « خلق المزاج العام وبلورته ». وعندئذ يصبح بالامكان « افراز طلائع جديدة تتجاوز النظم الثورية القائمة » بما في ذلك طبعاً ثورة ٢٣ يوليو وطلائعها . بقي ان نقول ان « الطلائع الجديدة » ستُفرز « افرازاً » من اجهزة « خلق المزاج العام وبلورته » بالاعتماد على « حاسة التقليد » وبذلك يحقق « التكتيك » اهداف « الاستراتيجية » .
ان نديم البيطار يحاول ان يستعدي ثورة ٢٣ يوليو على القوى الثورية وبالعكس، ويتهم اصحاب « المفاهيم الثورية الاساسية » بسوء النية . لكن المرحلة الحالية للثورة العربية المتميزة بارتباط اهداف التحرر الاجتماعي باهداف التحرر القومي في ثورة ٢٣ يوليو بالذات ، ـ هذه المرحلة تعكس الأمور وترد الاتهام الى مصدره .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بسام طيبي

المنهج والخطأ

المطلع على الكتابات السياسية العربية يعلم تماماً مدى انحطاط مستواها لافتقارها الكلي الى الأدوات العلمية التي تشكل أسس كل كتابة تريد أن تكون جدية [1] . منذ أول بعثة علمية عربية أرسلت الى أوروبا عام ١٨٢٤ باشراف أول مفكر عربي يحمل ثقافة أوروبية : رفاعة رافع الطهطاوي ، منذ ذلك الحين تخرج آلاف من الطلبة العرب من جامعات أوروبية وأمريكية ، لكن الأغلبية العظمى من هؤلاء لم تكن لتطبق ما أنتجته العلوم الحديثة على حياتنا قبل العلمية والأوضاع الاجتماعية المرافقة لها والمنبعثة منها ، فكان المثقفون العرب من ذوي الاطلاع على العلوم الحديثة يستسلمون للحياة التقليدية العربية بعد عودتهم الى الوطن ، ما عدا بعض الاستثناءات .

هذه الخلفية هي سبب بهجتنا فيما يتصل بالجيل الجديد ، من امثال صادق جلال العظم ونديم البيطار ... الخ ، الذي أعلن رفضه الصريح للمجتمع العربي بأوضاعه التقليدية الحالية ، فكان في كتابات هذا الجيل ربط لمسألة الثورية السياسية بالثورية الشمولية لأول مرة ، بينما كانت الاتجاهات الثورية قبل ذلك جزءاً لا يتجزأ من الواقع العربي التقليدي ، لهذا كانت ثوريتها مزيفة .

أكره الحديث عن نفسي ، لكن أجدني مضطراً لذلك في هذا المكان : اعطيت نديم البيطار وكتاباته التقدير الكبير الذي يستحقه وما زلت أفعل ذلك في ابحاثي ،رغم أنني نقدت نتاج نديم البيطار واعلنت تحفظاتي على المنهجية العلمية التي يعتمدها في مؤلفاته [2] . اعيد هذا في مطلع هذا المقال من أجل

التوكيد على ان مواقفي من مؤلفات نديم البيطار لم تتغير ، رغم انني سوف اتخذ هنا موقفاً سلبياً جداً من مقاله « نحو الارتباط بثورة ٢٣ يوليو » .

ان أردنا تلخيص مقال نديم البيطار بعبارات قليلة فاننا نستطيع القول انه تبرير Apology للناصرية وتفسير مثالي لها يلبس عباءة سوسيولوجية ، بينما هو يقوم على معتقدات لا على تحليل علمي دقيق Stringency . قبل أن أدخل في النقاش علي أن أبين للقارىء أنني لست من النقاد التقليديين للناصرية ، اذ انني كنت شخصياً وحتى قبل حوالى السنة ناصرياً ، بل انني ذهبت في احد ابحاثي الى درجة الشطط اللاعلمي باعتباري عبد الناصر قدوة للثوري العربي الشمولي ٣ ، وفي بحث آخر قيمت به هزيمة حزيران علقت آمالاً كبيرة ، لم يكن لها أي اساس علمي ، على التطورات التي حدثت في الجمهورية العربية المتحدة ووصفتها خطأ بالجذرية (انظر حاشية رقم ٢). يلاحظ من هذه الاشارات لأبحاثي السابقة ، والتي أرغب أن أتبرأ منها هنا (ليس كلياً وانما فيما يتعلق بتقييم الناصرية وحده) بانني لا أنطلق في نقدي للناصرية من كره لشخص عبدالناصر أو لانتفاضة (ولا أقول ثورة) ٢٣ يوليو ، بل ان عواطفي على العكس تميل لكل من الشخص والانتفاضة ، وأنا أجد صعوبة في التخلص من هذه العواطف للانتقال الى مستوى التحليل العلمي ، وكلما كان نجاحي في هذا الانتقال أكبر ، ازداد رفضي للناصرية شدة .

ينطلق البيطار من ملاحظته أن التجارب التاريخية تؤكد على أن الثورات في معظم الحقبات التاريخية كانت تقوم على ما يسميه «قيادة مشخصنة». هذا المنطلق يجعله يقول « من يرفض دور ٢٣ يوليو كقاعدة ، أو الارتباط بها كقاعدة ، يجب عليه كذلك أن يدلل ، اما على ان العلوم الاجتماعية السياسية تنقض هذه القوانين ، واما على أن هناك قائداً عربياً آخر يمثلها أكثر من عبد الناصر . فان لم يستطع التدليل على ذلك او هذا ، كان الأحرى به السكوت وعدم الدخول في حوار يفترض فيه ان يكون علمياً وموضوعياً » أما ما يخرج على هذا النطاق فهو « جدال تبشيري وميتافيزيقي غيبي » .

أحب ان أبدأ بالعبارة الأخيرة . لقد كنت بين أوائل من اخذوا بمقولة « الفكر التبشيري الميتافيزيقي » ، التي طورها نديم البيطار ، وحاولت من خلالها ، متتبعاً أثره ، تفهم الفكر العربي المعاصر . لكن في مقال البيطار

الذي نحن بصدده هنا تُستعمل هذه المقولة تقريباً بعد كل مقطع لدرجة أنها تفقد محتواها تدريجياً ، بل ان البيطار يبالغ الى درجة تجعله ينعت كل نقاد الناصرية ، بغض النظر عن هويتهم وعن اسلوبهم العلمي ، بالتبشيرية والميتافيزيقية والغيبية. هذه ملاحظة هامشية . لكن لننتقل الى صلب الموضوع ، الى موضوعة نديم البيطار البارزة بوضوح في الاستشهاد الوارد أعلاه .

يتحدث البيطار عن « العلوم الاجتماعية السياسية » ، ولا يحدد أية علوم يقصد . فهناك مدارس واتجاهات عديدة متناقضة تعتمد في نظرياتها مناهج مختلفة جداً . لذلك لا يصح الحديث عن العلوم الاجتماعية بهذا الشكل . من يعرف كتابات نديم البيطار جيداً يعلم أنه ينطلق من الاطارات النظرية للسوسيولوجيا الوضعية Positivism التي ترفض اتجاهات فلسفة التاريخ القائمة على منهج التعالي التاريخي Historical Transcendence . السوسيولوجيا الوضعية تنظر الى الوقائع التاريخية كشيء نهائي وتقصد بالعلمية الاعتراف بالقوانين التي تسير هذه الوقائع . هذا الاتجاه العلمي يبدأ مع تمركز الطبقة البورجوازية وتخليها عن الثورة كما نرى ذلك في نظريات كومت A. Comte ودوركهايم E. Durkheim ، وفي الفترة المعاصرة ، في نظريات بارسونز T. Parsons ، وبوبر K. Popper. بينما تحاول السوسيولوجيا النقدية التي تنطلق من فلسفة التاريخ (وبخاصة لدى هيغل) [٤] ، وتربطها بالتحليل الاجتماعي — الاقتصادي لدى ماركس ، **تحاول تجاوز هذه الوقائع والقوانين التي تسيرها .** هذا الاتجاه نجده في مدرسة فرانكفورت الفلسفية التي أسسها عالم الاجتماع ماكس هوركهايمر Max Horkheimer ، والتي يتابعها تلامذته في أيامنا هذه مثل هربرت ماركوزه H. Marcuse ، وأدورنو Th. W. Adorno ، وهابرماس J. Habermas [٥] . خلال هذا الاستطراد نرى مدى أهمية المنهج لدى التطرق الى موضوع العلوم الاجتماعية والسياسية ، فلا يجوز التحدث بشكل مجرد عن هذه العلوم .

في رأيي أن البيطار ينطلق بحسب منهجه ، من طرح خاطىء للمسألة ، ويصل هكذا الى نتيجة خاطئة كلياً . **سؤال** البيطار هو : هل يوجد أفضل من عبد الناصر وأفضل من ثورة ٢٣ يوليو ؟ **وجوابه** هو : لا ، **واستنتاجه** هو : إذن فعلينا الارتباط التكتيكي والاستراتيجي بالشخص وبالحركة . كل من يرفض ذلك هو ذو فكر ميتافيزيقي تبشيري غيبي . ومن يرفض هذا المنطلق

لا يفقه شيئاً من العلم ومن الموضوعية، والأفضل له - كما يقول البيطار - أن يسكت .

انني أريد الاكتفاء بنقد مصدر الخطأ في مقال نديم البيطار وليس الخطأ نفسه، فهذا أمر ثانوي . ومصدر الخطأ منهجي . انطلاق البيطار من السوسيولوجيا الوضعية يجعله يعترف بالأمر الواقع : شخصنة الثورات، والقبول بحركات شبه - ثورية، شبه - تقدمية، اذ أنه - حسب أسلوبه العلمي - لا يعرف بديلاً لها . من هذا المستوى المنهجي يقع البيطار في تفسيرات ذاتية غير علمية . فهو يعترف مثلاً بثغرات ٢٣ يوليو التي لا حصر لها « لكن هذا لا يسوغ أبداً وبأي شكل الدعوة الى مناهضة ٢٣ يوليو أو عدم الارتباط بها كقاعدة للعمل الوحدوي الثوري، طالما أنه لا يمكن تقديم قطر أو ثورة أخرى تتجاوزها » - هكذا يعتقد البيطار . ان ثغرات ٢٣ يوليو هي - بحسب رأي البيطار - ناتجة عن منطق التاريخ الذي **لا يعترف بالخير المطلق أو بالشر المطلق، بل الذي يقوم على النسبية** .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

عندما كتب البيطار في كتابه « من النكسة الى الثورة » أنه يرفض استعمال التحليل الطبقي « كوصفة » لتفسير كل الظواهر الاجتماعية، شأن الماركسيين، وافقته دون تحفظ، اذ أن هذا الأمر يعني تحويل الماركسية الى ماركسية مبتذلة، اذ أن التحليل الماركسي للمجتمع أكثر تعقيداً من أن يلخصه الانسان بوصفة التحليل الطبقي، لكن هذه المرة أعود لأقول لنديم البيطار إنه قد استنتج ما ليس صحيحاً من نقد صحيح . فالبيطار مثلاً لم يعد قادراً - بناء على منطلقه - من تفهم الأطر الطبقية والاجتماعية لانتفاضة ٢٣ يوليو البورجوازية الصغيرة، مما يجعله يفسر ثغرات ٢٣ يوليو بشكل ذاتي غير علمي، دون أن يستطيع تفسير هذه الثغرات في نطاق تحليل اجتماعي دقيق .

أكرر مرة أخرة مودتي وتقديري للبيطار شخصياً ولمؤلفاته وأؤكد مرة أخرى على أهميتها في تطور الفكر العربي الحديث، لذلك آمل أن يقوم باعادة نظر شاملة في تحليله لـ ٢٣ يوليو . هذه دعوة أخوية لنقد ذاتي ان نديم البيطار المتمسك بالعلمية سيجد نفسه هنا مضطراً لأن يبرهن عن قدرته على ممارسة النقد الذاتي . الكاتب الكبير لا يكتفي بالاشارة التي تسوغ ما كتبه سابقاً بل هو

يعيد النظر كل مرة من جديد في كتاباته السابقة وينقد نفسه دون ان يجد في ذلك أية غضاضة .

المراجع

١) انظر : بسام طيبي : في الفكر العربي المعاصر ـ الكتابة الوصفية والكتابة الثورية ـ في : مواقف ـ العدد الثالث (١٩٦٩) صفحة ٩٣ ـ ١١٧ .

٢) خصصت في احد ابحاثي مقطعاً خاصاً لمناقشة نتاج نديم البيطار ، انظر : بسام طيبي : الخامس من حزيران والأزمة الشاملة للثورة العربية . في : عالم الاقتصاد ـ العدد السادس ـ اكتوبر (تشرين أول) ١٩٦٨ ـ صفحة ٢٠ ـ ٢٨ ـ خاصة الفصل الأول .

٣) فعلت ذلك في البحث التالي : بسام طيبي :مسألة تحرير المرأة في المجتمع العربي الحديث ـ في الطليعة (المصرية) ـ نوفمبر ١٩٦٨ ـ عدد ١١ ـ السنة الرابعة ـ صفحة ٦٨-٧٩ . والبحث بكامله ما زال يحتفظ بصحته عدا العبارات الخاصة بتقييم الناصرية .

٤) انظر بهذا الصدد :

Herbert Marcuse : Reason and Revolution. Hegel and the Rise of Social Theoriy. New York 1941, passim.

٥) انظر بهذا الصدد :

Jürgen Habermas : Kritische und konservative Aufgaben der Soziologie. In : J. Habermas : Theorie und Praxis. Berlin und Neuwied 1963 pp. 215-230

انظر ايضاً :

Jürgen Habermas : Analytische Wissenschaftstheorie und Dialektik. Ein Nachtrag zur Kontroverse zwischen Popper und Adorno. In : Zeugnisse. Theodor W. Adorno zum 60. Geburtstag. ed. Max Horkheimer. Frankfurt/M 1963 pp. 473 ff.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

هشام شرابي

من ثورة ٢٣ يوليو الى الثورة الفلسطينية

القضية ، كما يطرحها نديم البيطار ، في غير محلها . هنالك ثورة ابتدأت . ارتباطنا اليوم هو بها . يريد نديم البيطار ان يعود بنا الى يوليو ١٩٥٢ . وما هو ، في رأيه ، تعريف ثورة ٢٣ يوليو ؟ انها رمز ، راية نرفعها لكي نقضي على تفتتنا وننهي خلافاتنا النظرية والسياسية . كأن التفتت والاختلاف النظري والسياسي يمكن القضاء عليهما بجرة قلم : أن نكون « علميين » في بحثنا ، أن يعد بعضنا البعض الآخر بأن نكون مخلصين لاهداف الثورة مترفعين عن « المهاترة والانحراف والاقليمية » . ما هذا القول « العلمي الموضوعي » : « ان تجارب التاريخ تدل بوضوح كما بيّنت في كتاب « من النكسة الى الثورة » على الحقائق والقوانين الثورية التالية ... » ؟ أية تجارب ؟ ومن يقول ان هنالك « قوانين » للثورة (اكتشفها هو) ؟ وهو يقول : « العلوم الاجتماعية الحديثة » تؤكد ذلك . ولئن أكدت العلوم الاجتماعية الحديثة شيئاً ، فانما هو سخف نظرية « القوانين » التي ابتكرتها مخيلات الكتاب والمؤرخين السابقين و(الحاضرين) .

نعم ، نظرية الجماهير مبنية على قاعدة سليمة ، القاعدة التي تكلم عليها ماركس وشرحها فانون بتفصيل . ولكن البيطار يمسخها بمحاولته أن يضفي عليها شيئاً من عنده . كذلك نظرية القيادة .

يريد البيطار أن يقول في الواقع شيئين :

١ – عبد الناصر ومصر هما قاعدة الصراع ضد الصهيونية والامبريالية والرجعية العربية ، وهما ، في الوقت ذاته ، محور التحرير العربي وحركة الوحدة العربية .

٢ – العمل السياسي الفعلي في محاربة الصهيونية والامبريالية والرجعية لا يمكن أن يتم الا بالارتباط بهذه القاعدة وتوفير العوامل التي ستخلق الدولة الواحدة القادرة على مجابهة المتطلبات التاريخية الحاضرة . لذلك على جميع المفكرين الثوريين المخلصين ان يلتفوا حول ناصر وثورة ٢٣ يوليو.

غير ان البيطار في تشديده على هاتين النقطتين – وفيهما كثير من الصحة – ينحرف الى خيالات ومزالق تخرجه عن الواقع الذي يتمسك به . ثورة ٢٣ يوليو ليست عبد الناصر وليست ثورة كما يريدها ان تكون . انها لم تخلق حزباً اشتراكياً ولم تخلق نظاماً اشتراكياً ، ولكنها مهدت الطريق لذلك . انهامرحلة قد قاربت على الانتهاء . ان في مصر ، نتيجة لثورة ٢٣ يوليو ، طبقة تمكن تسميتها ببورجوازية الدولة (البيروقراطيون والضباط والمثقفون المرتبطون بها). لكنها لم تحرر الجماهير ، بمعنى ان الجماهير في المدن والأرياف ما زالت بعيدة بوعيها السياسي والاجتماعي عن الاشتراكية وما زالت اسلامية بايديولوجيتها – اي انها غير ثورية . الجماهير الثورية الوحيدة بدأت طلائعها في الأردن والضفة وغزة وباقي فلسطين .

لا شك في أن عبد الناصر هو الرجل القائد المؤهل للقيادة . لكن ليس لأنه عبد الناصر وحسب ، وليس لأنه « خيرة الموجودين » . بل لأنه المسؤول الأول عن الاتجاه السياسي في مصر ولأنه سار بمصر في الموكب المصيري العربي: سياسته هذه هي التي دفعت الجماهير الى مساندته ودعمه ، لا دعم الجماهير له أدى الى هذه السياسة .

يقول البيطار ، ويقيم أساس حواره على هذا القول : ان أحسن ما يمكن تصوره هو ما « يمثل بالنسبة الى وضع اجتماعي تاريخي معين أحسن ما يوجد ».

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

هذا واضح . لكن المشكلة الأساسية في « العلوم الاجتماعية الحديثة » هي بالضبط ما يدور حول هذا القول . اذ ان من السهل جداً الرد بأن « الموجود هو أحسن ما يوجد » (أي ما يمكن تصوره في « وضع تاريخي معين ») . وكل ما حاول ان يقوم به ماركوز في كتابه « الانسان ذو البعد الواحد » هو الرد على هذا القول وتكذيبه .

يقول البيطار : « عار كل العار على الثوري الذي يرى وجوده القومي في خطر فيتساءل في عالم مجرد عن احسن الوسائل وأكملها لدرء الخطر ، بدلاً من أن يعتمد أقرب الطرق المتوفرة في تجاوز الخطر » . يقول ذلك ، لأنه يثير المشكلة في تجريد يصل الى هذا الطريق . انه يحدد وسيلته لأن تفكيره قائم على تجريدات مستترة بحقائق « وقوانين » . والا كيف يمكن أن لا يرى ما هو أمامه ؟ الفلسطينيون رفعوا راية الثورة . انهم يقاتلون . وفيما هم يبحثون عن طرق تنظير الثورة وايجاد أقرب الطرق لتجاوز الخطر المحيق بها ، يبحث نديم البيطار في موضوع نظري ليجد له حلولاً نظرية .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

على اليسار العربي – أي الثورة الفكرية – أن يرتبط بالثورة الفعلية ، بالثورة القائمة فعلاً . هذه هي المسألة الحقيقية . المتكلمون على الثورة وحسب ، هم كما قالت كتابات « فتح » « أدعياء ثورة » لا ثوار وكما وضحها بدقة البيان السياسي للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين . هذه هي مشكلة اليسار العربي السيكولوجية . فكيف الخروج منها ؟ ليس هناك من مخرج الا في تصاعد مدّ الثورة حتى يصل اليهم ويعود بهم بفيضه الى حيث حط بهم فكرهم الثوري ، ويفرض عليهم ممارسة هذا الفكر .

يقول البيطار : « عار كل العار على من يقف فيتساءل ان كانت ثورة ٢٣ يوليو تنسجم مع عالمه الخيالي المجرد أم لا » غير أن العار هو أن يحاول الفكر الثوري فرض مقولات التحكيم ، ثم يضع « اختياراً ثورياً » لا مجال فيه إلا لاختيار وحيد . هنا ينتهي كل حوار فكري ، حر ، مسؤول . الثوري الغارق في « عالمه الخيالي المجرد » هو الذي لا يتبع «حقائق وقوانين» البيطار في تفكيره . وهو ان تبعه ، اذن ، في هذه « الحقائق والقوانين » ورفض في الوقت ذاته « ثورة ٢٣ يوليو » وقع في العار على كل حال ! هذه

ديكتاتورية فكرية سطحية مارسها ، مثلاً ، أوغست كونت ، ومن ذلك الحين زالت من أوساط الفكر المسؤول الذي يحترم ذاته .

ان قضية عبد الناصر وقضية مصر أمر مهم . لولاهما لوقعنا فريسة الامبريالية الصهيونية الأميركية من زمان . يجب اعادة المحبة والثقة في اليسار العربي نحو عبد الناصر وما يمثله . يجب الاعتراف بمكانة عبد الناصر ومقامه في قلوب الجماهير وتقوية هذا المقام ، لكن ليس على حساب الثورة القائمة . ان ما يمثله عبد الناصر وما تمثله ثورة ٢٣ يوليو يجد تحقيقه وامتداده ومصيره في الثورة الفلسطينية . ان العار كل العار على الذين يقفون اليوم ويثيرون التساؤلات حول قضايا تنسجم مع تفكيرهم « العلمي الموضوعي » ولكنها تخرج عن قضية الثورة الفلسطينية ، طليعة الثورة الحقيقية في العالم العربي بكامله .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

انطون مقدسي ، سليمان الخش

خصائص الثورة العربية

ان اول واهم ما يميز الثورة العربية ، هو انها كانت وما تزال ثورة عفوية ، استدعتها الظروف التاريخية ، التي مرت على الأمة العربية ، خلال القرن العشرين ، وفجرتها ارادة شعب ، حركته الأحداث الخطيرة وهزته في الاعماق صدمة الحضارة التقنية . لقد بدأت اليقظة العربية ، في اواسط القرن التاسع عشر ، كما هو معلوم . وخلال تفتحها التدريجي ، وجدت ذاتها اسيرة الاستعمار ، يكبل الامة بقيود حديدية ، ليجتثها من جذورها ، فكان التمرد على الاجنبي ، ومن ثم الثورة .

لم تكن الثورة العربية ، كالثورة الفرنسية ، او كالثورة الروسية ، من عمل مفكرين ، تفهموا الظرف التاريخي بدقة ، فاستجلوا معناه ، وخط مسيرته ، ثم خططوا لها على ضوء دراستهم العلمية . بل كانت صرخة من الاعماق ، ادركها الشعب بغريزته ، وعبر عنها بحركات تمردية ، توالت خلال نصف قرن ونيف ، على درجات متفاوتة من العنف ، وسوف تستمر ، على ما يبدو ، زمناً طويلاً . ومع انها في الظاهر ثورات ، لا ثورة واحدة ، فهي في حقيقتها موحدة ، لأنها ما ان تبدأ في قطر من الاقطار ، حتى يتجاوب معها الشعب العربي كله ، ويتبناها ، وتتبنى هي الشعارات ذاتها ، والاهداف نفسها ، الكامنة ، في الوحدة والحرية ، والاشتراكية .

ولقد كشفت هذه الثورة تدريجياً عن ابعادها ، فبدلت مواقعها وخططها ، واستراتيجيتها ، وطورت اهدافها ، متفاعلة مع الأحداث العالمية ، ومع تطور

المجتمع العربي السريع . فبعد ان كانت تحرراً سياسياً تزعمته وقادته الطبقات القديمة ، صاحبة المصلحة في استغلال الوطن : (كبار الملاكين ، البورجوازية المستجدة ، وبعض المثقفين) ، اصبحت تحرراً اقتصادياً ، واجتماعياً ، تقوده الجماهير ، وتتأثر به ، فتتطور معه ، وتنمو بنموه . ولم تكن في كل الأحوال ، ثورة طبقية ، بالمعنى الذي يعطيه الغربيون لهذه الكلمة ، لأن الطبقات عندنا ، هي في طور التكون ، وما تزال حتى الآن مصهورة في البُنى الاجتماعية القديمة ، كالطائفية ، والعشائرية ، ولأن القوى المنتجة عندنا ، وعلائق الانتاج ، ما تزال تخضع لديالكتيك مختلف جذرياً ، عن ديالكتيك المجتمعات المصنّعة . ولسوف تتمخض الثورة العربية ، عن احداث ومعان اخرى ، تزيد معالمها وضوحاً ، واهدافها دقة ، اذ انها ما تزال في طور النمو والتقدم ، تتأرجح ما بين التمرد الشعبي ، يحركه اللاشعور الجماهيري ، فيعبر عنه المثقفون على طريقتهم الخاصة ، ويتولى الجيش مهمة التنفيذ ، وبين الثورة الحقيقية ، أي تلك التي تهدم البنى البالية ، بالاستناد الى رؤية واضحة للمستقبل ، يحددها فكر نيّر ، قادر على ترتيب الوسائل بالنسبة للغايات ، فتقفز فوق الماضي ، لتربط المستقبل بالحاضر. كما ان الثورة العربية ، ما تزال تعتمد على انفعال الجماهير أكثر مما تعتمد على عقلها ، وما زالت تعتمد على عفويتها أكثر مما تعتمد على قدرتها في تنظيم العمل المنتج ضمن اطر علمية : اشتراكية . ذلك انها لم تنفذ بعد الى الاعماق : اعماق الشعب ، واعماق التاريخ ، فتستشف مصيرها ، لتعبر عنه ، في بيان فكري يجمع بين دقة المفهوم ، والمرمى البعيد للمعنى . فاهدافها شعارات ، اكثر منها فكر ، وهي تتزيّا بزي غريب عنها ، مستورد من عالم مختلف جذرياً عن عالم العرب . ولم تتمكن بعد من أقلمة ما استوردت ، او من تعريبه . ولهذا فكثيراً ما يتخطى الشعب القيادات الثورية ، فيقلبها ، ليبدلها بغيرها ، دون ان يطمئن لا لهذه ، ولا لتلك . وواضح ان اخطر داء ابتليت به الاقطار الثورية ، هو فقدان الاستقرار السياسي ، الذي يعطل كل انشاء حقيقي ، في المجالين: الاقتصادي والثقافي .

وقد نتج عن هذا الوضع تباعد حقيقي بين الشعب وقياداته ، لكن ليس لأن هذه القيادات غريبة عن الشعب ، مُسقَطة عليه من عَلُ ، فهي منه وله . ولقد انبثق عن تحرك المجتمع العربي ، وعن يقظته ، شباب مثقف ، اندسّ فيه الدخيل ، والعميل ، والانتهازي ، ولكنه بقي بمجموعه اميناً للثورة ، حريصا على تحقيقها . ولكن هذا الشباب ، لم يرقَ الى مستوى الوحدة مصيراً قومياً

وعالمياً ، وارتدّ هذا القصور على الشعب ، فتخلف عن مهمته التاريخية . وما يصح في الوحدة ، يصح في الاشتراكية ، وفي الحرية .

هذا التباعد هو الثغرة الأولى والاساسية ، في الثورة العربية ، ولقد نجمت عنه نقاط ضعف اخرى ، هي التي يجب علينا ان نلح عليها ، في نقد صارم ، انتفهم الادواء التي ابتلينا بها ، ونعمل على تلافيها ومنها في رأينا ما يلي :

١ ـ **الارتجال** : تحت تأثير الاحداث المتسارعة ، عوضاً عن التخطيط العلمي ، الذي يستشف المشكلات ، فيعد العدة مسبقاً لحلها . وذلك لانعدام الاطر المتخصصة ، ولفقدان البحث العلمي ، وهما الأساس في كل عمل اشتراكي ووحدوي .

٢ ـ **ضعف الروح الجماعية** : على كل المستويات ، وفي كل القطاعات ، فالسياسة توضع بمعزل عن الشعب ، والايديولوجيا تفرض عليه فرضاً . وما تزال البُنى الاجتماعية القديمة قائمة ، تعطل عمل البنى الجديدة ، فالعلاقات شخصية ، اكثر منها تعاونية ، وتخضع لنزوات الفرد ، اكثر مما تخضع لمقاييس تشريعية ثابتة ، او شبه ثابتة . وما يزال العمل المشترك بدائياً . فالمشاريع الاقتصادية ، ما تزال تعتمد على المبادهة الفردية ، اكثر مما تعتمد على المبادهة الجماعية ، لذلك فهي اشتراكية شكلاً ، وبورجوازية مضموناً .

٣ ـ **الهزال الفكري** : فالمذاهب والايديولوجيات ، انما هي في واقعنا تقليد باهت ، وليس مستمداً من مصادره الأساسية ، بل من خلاصات تخرجها عن مدلولها .

٤ ـ **ضعف الروح الوحدوية** : فالوحدة في ذهن الشعب أمل ما ان يتراءى واقعاً ، حتى يغيب في المجهول ، وهي في السياسة هدف لا يطال . ولقد اخفقت ، كما هو معلوم ، كل محاولات التنسيق والتوحيد في كل القطاعات العسكرية والثقافية والاقتصادية والسياسية على حد سواء مع ان الوحدة بالنسبة للعرب هي مسألة وجود او لا وجود .

٥ ـ **اما الدولة** : وهي مشكلة المشكلات ، في المرحلة التاريخية الراهنة ، بالنسبة للعرب ، فلم يستقم لها امر ، في أي قطر من الاقطار العربية . انها تتأرجح بين حدين متطرفين ، لا ندري ايهما اشد خطراً من الآخر : طغيان البيروقراطية ، التي تضعف روح التفتح الفردي ، والفوضى الحزبية ، التي تقتل

الروح التعاونية ، وتجعل من الوطن مسرحاً لتصارع وحدات صغيرة تظل في تناحر مستمر على الوجود، كما انها تتأرجح بين الايديولوجيا الصارمة ،والفوضى الفكرية ، وكلاهما يشل الحركة الثقافية ، ولهذا فالدولة عندنا ، في كيانها الداخلي ، ضعيفة ، تلجأ بسبب ضعفها ، الى المخابرات ، لتفرض سلطتها .

اذا كانت جذور الأمة قائمة في الماضي ، وكان العمل على تحقيق وحدتها قائماً في الحاضر ، فان وحدتها الحقيقية ستكون بالاستمرار بها نحو المستقبل . فالوحدة ليست وضعاً يستقر فيه الانسان ، بل هي هدف يسعى اليه باستمرار، وعليه ان يستحقه . فما ان تضعف الروح الوحدوية ، حتى تنهار الامة ، تدريجياً ، وتتحول القومية الى قوميات . ان الامة مصير شعب ، وليست شيئاً آخر ، وهذا المصير هو رهن بالسياسة الوحدوية . والسياسة الوحدوية هي انجازات ، ومعنى : انجازات الشعب ، والمعنى الذي يصبو الى تحقيقه . واذا قسنا الامور بهذا المقياس ، نلاحظ ان كل شعب ذو رسالة انسانية ، يحققها على طريقته الخاصة ، ومن وجهة نظره، متكاملا مع بقية الشعوب.وهذا التكامل هو الأممية ، ولا شيء آخر .

ولكن يجب الا يُخفي عنا الوجه السلبي للثورة العربية ، وجهها الايجابي، فقد حققت في سنوات قليلة ما عجزت قرون طويلة عن تحقيقه . لقد زعزعت اركان الاستعمار ، بانتفاضة واحدة ، وحطمت قيوداً حديدية كبلت الشعب اجيالاً واجيالاً . فبعد ان كان الشعب يرزح تحت نير عادات ، وتقاليد ، واعراف ، وافكار ، اتخذت على مر السنين صفة قدسية زائفة ، اخذ يشعر مع انتشار الثورة ، بابواب التحرر تنفتح امامه ، وادرك ان باستطاعته ان يكون سيد مصيره ، اذا عقد العزم على ذلك .

وتتجلى الثورة العربية بكل قوتها ، اول ما تتجلى، في جانب قلّما ينتبه اليه اولئك الذين يمجدونها ، بكلام فارغ ، ذلك هو تحطيم البُنى الاجتماعية القديمة ، الطائفية ، والقبلية ، والعشائرية ، وابدالها ببنى جديدة ، قائمة على العمل المشترك : بُنى ما تزال مهلهلة ، لكنها في طريقها الى النمو .

وقد نتج عن ذلك تبديل في العلائق الاجتماعية ، وفي قوى الانتاج . فبعد ان كانت هذه العلائق اقطاعية – شخصية ، اصبحت اشتراكية – موضوعية ، تفسح المجال ، عند تكاملها ، لكل فرد ، كي يعطي مردوده كاملاً ، وتمكنه

من ان يفتّح كل امكاناته . ويكفي ان الثورة العربية قد فتحت ابواب المدارس على مصراعيها ، امام ابناء الشعب كله ، فالمدارس هي التي بدأت الثورة ، وهي التي ستوصلها الى هدفها النهائي .

ثم انها وقد وضعت الشعب في طريق الديموقراطية التي ستفسح المجال ، في يوم من الايام امام كل فرد ، كي يسهم في المصير المشترك . وصحيح ان الثورة العربية قد اعتمدت كثيراً على الجيش ، في هذه المرحلة ، وهي المرحلة الأولى للتحرر الاجتماعي – الاقتصادي ، ولكن جيش الثورة هو من الشعب وله ، لأنه انبثق من صفوفه، وبشكل خاص من صفوف فلاحيه ومثقفيه . وسيدرك الجيش في يوم قريب ، ان الحكم انما هو للشعب ، الذي جعله درع الثورة ، وان الانقلابات العسكرية انما هي تعبير ، من جملة تعابير اخرى ، عن قلق الشعب ، وتململه ، تجاه حكم الاجنبي ، والدخيل ، وصاحب الوجاهة : اقطاعياً كان هذا ، ام بورجوازياً ، ام غير ذلك .

واخيراً فالثورة قد وجدت ، بحق ، في الاشتراكية طريقاً نحو تحقيق الوحدة . فوحدة المستقبل هي عصبية ولكنها نوع جديد ،تختلف جذرياً عن العصبية التي تكلم عنها ابن خلدون : انها تجميع كيان الأمة المبعثر الآن ، واداء الامانة للامة ذاتها ، والعمل المشترك ، الذي هو سبيل للنهوض بها .

ومتى خطا التحويل الاشتراكي خطوته الثانية ، فسيكون اداة تكشف بواسطتها الأمة عن جذورها التاريخية ، في مرماها البعيد . وعندئذ تتحرر من مخلفات عصور الانحطاط ، لتنطلق نحو آفاق المستقبل الرحبة . فالحرية لا تصدر عن ارادة الحاكم ، وعن التشريع الذي يصنع ، بل تنبثق من إعمال الذاكرة . وعندما تنفتح آفاق المستقبل ، يتحرر التاريخ ايضاً . فعوضاً عن ان يرين بثقله على كاهل الأمة ، كما هي عليه الحال الآن ، يصبح قوة تقدم وعنصر قوة ، اي يصبح هو ايضاً متحرراً حراً .

ان الثورة بالنسبة للعالم المتخلف اقتصادياً ، هي تربية كاملة ، اي انشاء جديد للانسان : انشاء يحفظ ، وينمي ، يرمم ويبني .

وهكذا فاننا ، اذا ما وازنا بين مواطن الضعف ، ومواطن القوة ، في الثورة العربية ، واذا ما تأملنا في الظرف التاريخي الذي نجتازه ، وفيما يزجه في المعركة من قوى ، واذا ما انتبهنا الى طغيان الاستعمار ، وطغيان التقنية ، التي تفتعل الدول والأمم ، نلاحظ هذه الحقيقة الأساسية ، وهي ان ساعة الاختيار ، قد دقت ،بالنسبة للأمة العربية : فاما ان تتحرر وتتوحد ، واما ان تزول من الوجود .

والثورة الحقيقية قائمة في هذا الاختيار ، وفي العمل بمقتضياته .

فرانسوا باسيلي

جراح مضيئة الى الابد

١ - الحزن

أكثر ما يحزنني أن اليوم الآن قصيرٌ
والأفراح قليلهْ
والكلمات تقال هنا وهناك بلا حيله .
أكثر ما يحزنني أن القلب الآن يعيش بلا أحلام
في صحراءٍ خاوية وبروده
فالأمل الضائع ضائعْ
والأشياء المفقوده مفقوده .
أكثر ما يحزنني أن الليل يجيء إليّ فلا يدفئني
فأنا وحدي
أرسم خوفي في صوره
أتخيّل نفسي ملكاً
في قاعات العرش المهجوره
أنظر في المرآة المكسوره
لا ألقى وجهي .

أكثر ما يحزنني أن القتلَه
يمشون الآن بغير قناع

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

فــوق المقتولـــين
والنـــاس تصفـّق للقتله ...

٢ - الاخر

عاش حياة للغرباء وللتعســـاء
حين دعـــاه الحب
أعطى عينيه ، يديه ، ودق له الاجراس
وبكى من شدة حبــه

سار وحيداً ذات مساء بمديـــنه
فالتفـــوا حوله
داهمـــه الحراس
لم يعرف كيف يرد الكلمات المنهالة في الظلمه
لم ينزف كِلْمـــه
كان نقياً وضعيفا ...
حين عـبرت الشارع ليلتها صدفــهْ
دست على قدميـــه .

بعد سنـــين ،
خيل لي أني ألقاه كثيراً ما ألقـــاهُ
حتى كنت أمر الليلة ، صدفـــه ،
عـــبر المرآة
يا الله
عيناي هما عينـــاهُ
يا الله
كيف أنام هنـــا
هل كان النازف عند رصيف الليل ، أنا ؟

٣ - تحولات الثوب

حين لبست الثوب الأســـود

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

سارت قدمي اليمنى ضـد اليسرى
وتآكل وجهـي .
حـين لبست الثوب الأبيض
يبست كفي فوق ذراع المحبوبـه
أعطيت الصمت لكيما أكبر في حزني
أجلست أمام الباب لأني مبتور القدمين .
حين لبست الثوب الملقى فـوق طريقي
داست قدمـي جرح صديقي
وتقيأنا فرحتنـا الهشه
وفتحنا باب الجرح ، بكينا ، وتمددنا ...
حين خلعنـا ثوب الرب
خلعت أختي ثوب براءتهـا
وفتحتُ مظلة رغبتنا المثقوبـهْ ...

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

٤ - زفاف كاترين الخضراء الى نفسها

الحزن يفتح الطريق كل ليلة لرحلـتي
ويرفع الثيـاب لي
أقوم عاريـاً
وأعبر الهـواء
وأحمل السماء فوق جبهـتي
وأطعن الجسـد
ذاك الذي جراحه مضيئـة الى الأبـد .
لأنني دخلت بيت عالم ضيوفه بلا عدد
أذوب في عيونهم ... ولا أجـد
من يشبـه الذي رأيتـه
في حلمي القديم وانتظرتـه ...
من يفتـح الذراع لي
من يدفىء الجسدْ ؟
لا أنتِ يا حبيبتي ولا أحدْ .

محمد عفيفي مطر

عن الحسن بن الهيثم

١ - عذاب الاحجار

كل حجرْه
دوّرت قشرتها نار الكهـــوف
دحرجتها عجلات الزمن المنكســره
فهي أرحاءٌ وأرحام رغيف
وهي وجه ناعم في مدخـــل البيت الأليف
أسمع الصرخة في قشرتها تحت الزحام
علّها تصبح نسغـــاً في عروق الشجره
أسمع الشـــارع يبكي
في انتظار الطيّبـــين السحرَه .
وأنا أهرب من صوت لصوتٍ ، من بـكاء لبـكاء
ود قلبي لو تحولت لمـــاء
وعـــروقي اشتعلت .. في كل قطره
شهـــوة المعجزة المنتظره
والخطافٌ بانفلاق الضوء لوناً بعد لون .

٢ - الصوت المحاصر

حينما قابلني النهر سقـــاني

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بانفتاحات ذراعيه اغتراباً وأمومــه
وكســاني
إذ رآني عارياً — حتى من اللحم — وأعطاني
عطايا الزهرات الدمويه
وحباني بالهبات المحرقــه
قال لي : أركض .. لا عــين تراني
تتلوى صرختي تحت خطاي المغرقه
آه .. من يسمعني صوتي ،
ومن يسكب في حلقي دموعي !

قال لي النهر : أنا أسقط مني
كم تمنيت وقوفي كي أرى جسمي الممــدد
وأرى الطمي احمراراً يتجدد
وأرى البرق مع الرعد مواويل اخضرار تتجسّد .

قال لي النهر : أنا أفتح صدري للمدينـــه
وأناديها الى ليلة رقص وتخاصر
وأغنيها .. ولكن المدينــــه
لم تعد تسمع صوتي أو تراني .

قلت للنهر : اتخذني لك فرشا ووساده
واتخذني — حينما تجرحك الشمس — ضمــاده
ثم علمني طقوس السر ، علمني تراتيل العبــاده
قلت للنهر ، ولكن المدينــه
حاصرت صوتي حواراً وصــدى ..

٣ - حلم

أحلم الليلة أني جسد يطفو على النهر غريقــا
أحلم الليلة أني أتحجّر
أنني أدخل في القاع وأمتــد طريقا

أوقف النهر الى سبع سنين
علني أسمع في قلب المدينه
صرخات الميتين
علها تصهل في أغنية الشعب الحزينه
فرس القحط الى سبع سنين
علني أنظر في رأس المدينه
شبح النهر ظلالاً ودموعاً في العيون
علنا نعرف ميراثك يا نهر الى سبع سنين .

٤ - مناجيات الى النهر

١

أيها النهر انتظرني
واتخذ جمجمتي عشاً ، وخذ من جسدي الحي دفاتر
خذ يدي واكتب بها في الرمل شكواك القديمه
خذ لساني بومة تصرخ في ليل الهزيمه
خذ دمي حبراً وأعراقي دواة
وانتشلني من سهوب اليأس ،
واطرحني على رجليك رغوه ..

٢

وجهك المكتئب الضاحك يجري في الخلاء
لاعباً لعبته الكبرى : ظهور واختفاء
لاعنا صمت الخيانه
باكيا ما في عباءات الكهانه
من رضى الطينة أو من صلف المقت ورعب الخيلاء
رافضا ما يدّعيه الشعراء
باعتصار الدمعة المستكرهه
بعدما جفّ الدم الضائع في ليل الجريمه .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

٣

أيها النهر .. تعرفت عليكْ
وتحسّستك .. أحزانك في الرأس ضفائر
وانتظاراتك شوك طالع في قدميك
وتعرفت على وجهي الذي يغرق منحوتا
ومهدوم الهيولى في يديك
وتعرفت على أغنية الشهوة والخلق البدائي
وأحلام السنين المقبله
غمغمات لم تزل صامتة في شفتيك .

٤

أيها النهر .. تكلم عن طقوس الفيضان
بُح بأسرارك لي حتى أرى قبل الأوان
وجهك الغاضب ينشق من الرمل عمودياً على
أرض الجراحات القديمه
لأرى جسمك عريانا كرمح
مرحا كالنار اذ تأكل في جوف السفينه
ورقيقا ليّنا كالسيف ،
مكتوم الخطى مثل الفجاءات الدفينه
وتكلم عن طقوس الطفو إذ تخلع جذر الكائنات
لأرى قبل الأوان
ماءك الواقف يمشي ثم يمشي .

٥ ـ تصادم اقدار

الحاكم بأمر الله :

ها أنا .. كل مساء
أتمشى في سرير القمر الأسود
أجتاز المدينه

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

كل باب فيه صوتٌ ضارع من « برجوانْ »
يتشكى موته النذل الجبان
وأنا أضحك في ليل المقطّم
والصدى يرتدّ خفاشا على وجهي الحزين .
حينما أرجع للقصر على ظهر الأتان
أجد الارض دماء تتوجع
أجد الصمت مليئا بالعيون
فأنادي وجهك الطيب يا داعي الدعاة
كي أرى موطىء أقدامي الى النوم
وفي النوم أراه
قمرا يحمل طفلا
ثم يرميه بفسْقيّة ماء ودماء .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

داعي الداعاة :

سيدي .. حيث تمشّت قدماك
صارت الأرض سماء ، والنجوم
وقعت بعض حصى ، والفلَك الدائر جبّه
أنت في طينة هذا العالم الفاسد حبه
حينما روّعك الشر على الأرض أتيت
لابسا خرقة انسان حزين
آخذاً حاشية السبع الطباق
جاعلا منها سراجا او عباءه
سيدي .. تحمل في صدرك آلاف المصابيح المضاءه
فانتظر حتى ترى الشعب يصلي
وانتظر حتى ترى كل الرجال
عفّروا الأوجه في موطىء رجليك ، أقاموا
لك ميزان القلوب
انتظر حتى ترى العالم من خشيته منك يذوبْ .

الحاكم :

هذه الأرض اللعينـــه
بعد أن علـّقت في أبوابها القفل وأحكمت الرتاج
فانتظرت الزمن الصارخ أن يصبح صمتا وسكينه
علني أسمع صوتي المتفرّد
علني أنسى وجوه البشر الفانين حولي
وأرى وجهي الحزين المتجعد
في مرايا الرطب واليابس وجها واحدا لا يتكـــرر
غير أن الأرض حبلى بالشقوق
كل شق قبضـــة غاضبة أو حنجره
فأرى .. حتى جذور الشجره
أوجها تضحك مني .

الداعي :

سيدي .. أنت الـه مغـــترب
بين شعب كل من فيه قميء ونبات متطفـــل
وأنا أنفخ من وحيك فيهم
آية من بعد آيه
فأراهم يسجدون
ثم يمضون فرادى ، يلتقون
بين أسنانهم الخوف لجامٌ حجري ومقـــاود
فاذا هم يضحكون
ويحيلون الدم النازف والموتى حكايه
والمآسي نكتة ضاحكة والرعب خيلاً من خيول الثرثره
وأنا أنظر زيف الشعراء
كلما ضجوا تدلوا في طريق المجزره
فانتظر حتى تراهم يسكتون
وتكلم كلمة مقتدره
فاذا هم حول أبوابك يستعطونك التوبة واللقمة ،

يبنون من الشعر توابيتا ومن زيف القوافي مقبره
فانتظر حتى ترى الشعب المخادع
كلما أغرق في الضحك تهاوى رأسه الفارغ بين الكتفين
وترى الأرض اللعينه
فرغت من ساكنيها .

(يسمعان النهر يبكي من بعيـــد)

الحاكم :

ما انتظاري وأنا أسمع هذا النهر يبكي ويصيح
صوته الغاضب مسموم ومسنون فصيح
ما انتظاري وأنا أوقفته بين الصحارى
فاقد الرأس ومقطوع اللسان
فاذا النهر الجبان
يحفر الطينة – من تحت لتحتٍ – حنجره
يجعل الأشجار صوتا طالعا
والسواقي من صدى الصوت تنوح
والرياح الخرس للصوت المغني قنطره !
ما انتظاري وأنا أسمع في ليل الصحارى
رملها الأسود يهتز مخاضا لأغانيه الكئيبه
كل شيء صامت صار كتيبه
ترفع البيرق في حفل انتحاري !

(ينزلان ويســـيران حتى النهر ،
يريان شبحا جالسا في الظـــلام ،
يقتربان منه).

الداعي :

أنت .. قبِّلْ هذه الارض خضوعا
عفّر الجبة ذلاً وخشوعا
وانطق الآن ، وقل من أنت ، من فتّح أبواب المدينه
في دجى الليل وفي جيبيَ مفتاح الظلام ؟

الحسن بن الهيثم :

سيدي .. عفواً .. فقد جئت لـكي أسمع هذا
النهر في الليل يغني .

الحاكم :

هو يبكي

الحسن :

هذه الطينة موال مجمّد
فهو يبكي ليغني
وأنا اعرف ما كان وما سوف يكون.

الحاكم :

ايها الضيف .. انتصب .. قل لي : اتدري لغة النهر ؟

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الحسن :

اجل .. اعرف ما ينطقه الماء وما تكتمه الأرض الحزينه
والأغاني المطفأه
والرياح المرجأه
وأصم الأذن عما هو كائن
وارى في كل شيء قائم غربة ما سوف يكون .

٦ ـ خيانة النهر

ايها النهر الذي كنت اراه
حينما انعس او اصحو ، وفي لحظة ضحـكي وبكائي
ايها النهر الصديـــق
كنت اطويك عميقا ودفينـــا
في دمي ، كنت اناديك اذا كنت سجينـــا

فأرى بوابة العالم تفتـــحْ
واناجيك اذا كنت حزينا
فأرى الطينة تفرح
كنت ما بيني وبين العالم الرحب جسورا وقنـــاطر
ورغيفا يجمع الأرض على ليـلة حب وتخاصُر
أيها النهر الأب الأم الصديق
جسدي الآن غريـــق
ودمي ليلة رعب وحريـــق
وأرى خنجرك المرهف يحتزّ لساني .

*

كان قلبي شعلة في طميك الحي ، وكانت أغنيـــاتي
شجرا يطلع في الليـــل وعنقودا على باب اليتامى الجائعين
رأسك المقطوع قد خبأته بين الضلوع
فغسلت الشفتـــين
في دمي ، أفرغت روحي في شقوق الحنجره
ووضعت الرأس بين الكتفين
وانتظرت العام بعد العام أن تبدأ نسج الأغنيات الطائره .

*

بعدما أدركني وجه الوجود المتحول
قلت ان الميت البارد يأتي في وقود الصاعقـــه
قلت ان الأخرس الصامت يأتي في الرياح الزاعقـــه
قلت ان الحق واحد
وجهه يلمع في الخلف ويأتي في التقابل
قلت ان الأيس مدفون بقلب اللّيْس ، والنهر سيأتي في الظمأ .

*

قلت ان الأرض حبلى وعقيم
أيها النهر الألـــيم
فانتظرت الطحلب الأخضر من قلب الرمـــيم
وانتظرت الصوت ان يطلع في صـــدرك
مسكوبا من الريح ومن قلب الجـــوامد

ومن النيران .
لكنك لم تنطق وابقيت دمي في ظلمة السجن رهينه .

*

أيها النهر الخئون
انا بين الرمح والحائط منصوب مقيّد
جائع منك الى كسرة طمي وامومه
ظامىء منك الى وجهك اذ ينْشعُ في قلبي جساره
ربما أقوى على الحلم الرهيب المتجدد
بانفتاح اليأس والأرض القديمه
او فراري من ظلام السجن مستورا على
وجهي قناع من جنون .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

٧ - يوميات رجل يدعي الجنون

١

هذه الأرض التي كانت فراري وانتظاري
بين ثدييها مشت شمس النهار
خبزت من صهدها قمحاً وازهار انتحار
لبست برقعها الأسود
(من خوف وعار وانكسار)
دخلت وانكمشت في عقر داري
ثم صارت جثةً ترقد ما بين جدار وجدار ..

٢

كان في الحائط شق مستطيل
اخذ الضوءُ الهزيل
ظل رأسي مستضاء وظليل
دخل الشقّ به .. حتى سمعت الطقطقه
في عظام الرأس اذ يُحشر ظلاً في الخطوط الضيقه .

كانت الليلة مسماراً بلحمي والثواني مطرقـــه
وانا اصرخ : من يطلق رأسي من جـــدار المشنقه !

٣

كلما شاغلتُ نفسي لأنام
(بانقسامي رجلا طفـــلا واما ويتامى
وبعدّ الخشب الأسود في السقف
وباستسقاء هذا المنور المعتم شمساً وغمامـــا)
طلعت في القلب أزهارُ الفطام
بتويجات التّشهي وبأشواك السنـــين الضائعه

كلما شاغلت نفسي لأنام
خفت ان يسمعني الحارس احـــلم
برغيف الصاعقـــه .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

٤

هذه الشمس عيون بربريه
كلما سامتَها ثقب صغير
اسقطت فوق اليدين
ظـــل رأسي .

خفت ان يصبح ضوء الشمس سيفا للأمـــير
فأنا احمل في كفـّي ظل الجمجمـــه .

٥

كلما دقت يد الظلمة بابي
خفت ان يطلع من جوف كتـــابي
وجه احبابي واصـــوات العناقيد التي
تصرخ في قلب الخوابي .

كلما دقت يد الظلمة بابي

خفت ان تطلع من جوف التراب
حمحمات من خيول الجـــوع او رعـــد الظمأ .

كلما دقت يد الحارس بابي
خفت أن يصبح صوت البـــاب تابوتاً وسيفاً ..

٦

قـــال لي الحارسُ :
هذي ليلة القدر فسلني ما تشاء .

ـ أيها الحارسُ
(يا إبن اللئيمـــه
كدت ان اخلع عن وجهي القنـــاع) .
قل لمولاك لـكي يطلقني قبل الشتاء
ربما اطفأت الريح جحيما في الدماء
قل له : يمتلىء الرأس حنينا وكآبه
فاقطع الرأس وأدرْجه بتابوت السحابه
(علني اصرخ في الرعد الدفـــين المتكلمْ
وارى حنجرتي تسقط في الأرض حريقا
او تواشيح دماء ..)

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

عبد القادر ارناؤوط ، نذير نبعه

الموت طفل أعمى

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الأزهار تموت
والإنسان السائر يدوس عليها
فلا وقت ليراها
ويتجنبها

ان نعلاً من المطاط
لا يستطيع التفريق
بين غضارة الزهره
وطرف الدولاب المسنن

وعندما مشى الناس حفاة
كانوا أكثر سعادة
لأنهم على الأقل
نظروا إلى مواطئ أقدامهم

ARCHIVE
http://ArchiveBeta.Sakhrit.com

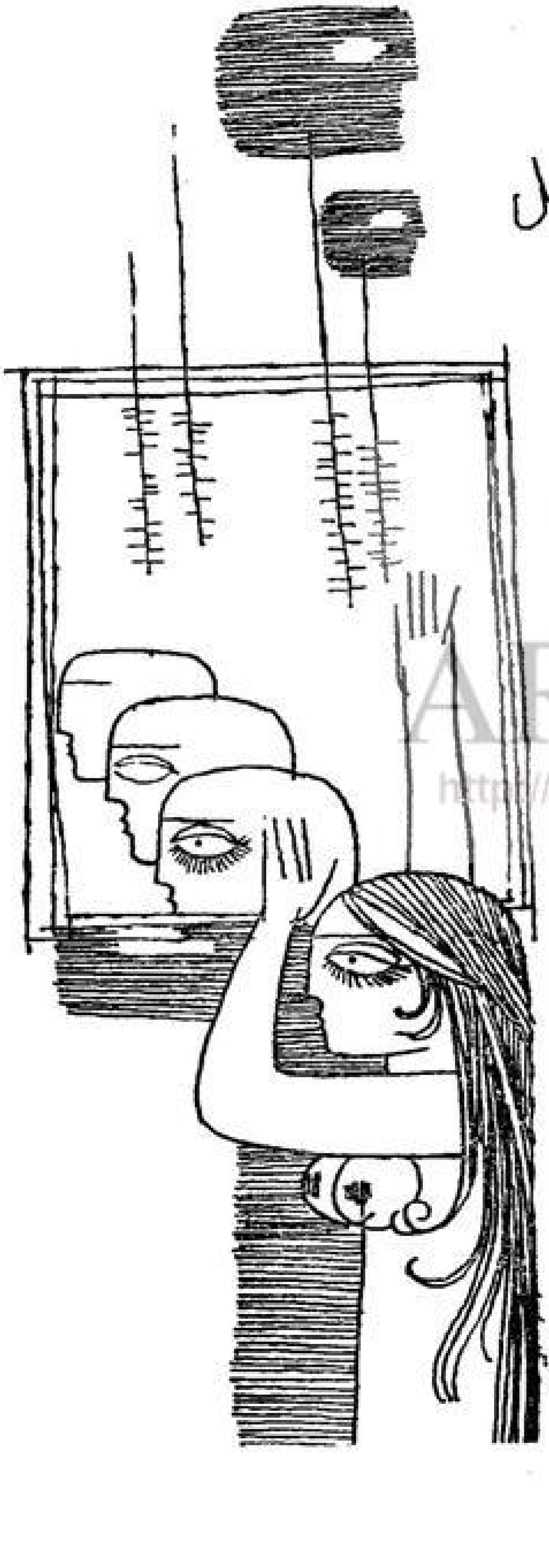

وبكت المرآة
عندما انحسر عنها الوجه الجميل
ولم تعد تعكس شيئاً

وحدّثت نفسها .

« لا أريد أن أعكس أي شيء بعد الآن »

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ولكنها لم تستطع
وعكست كل شيء يمر بها

كما يحدث دائماً

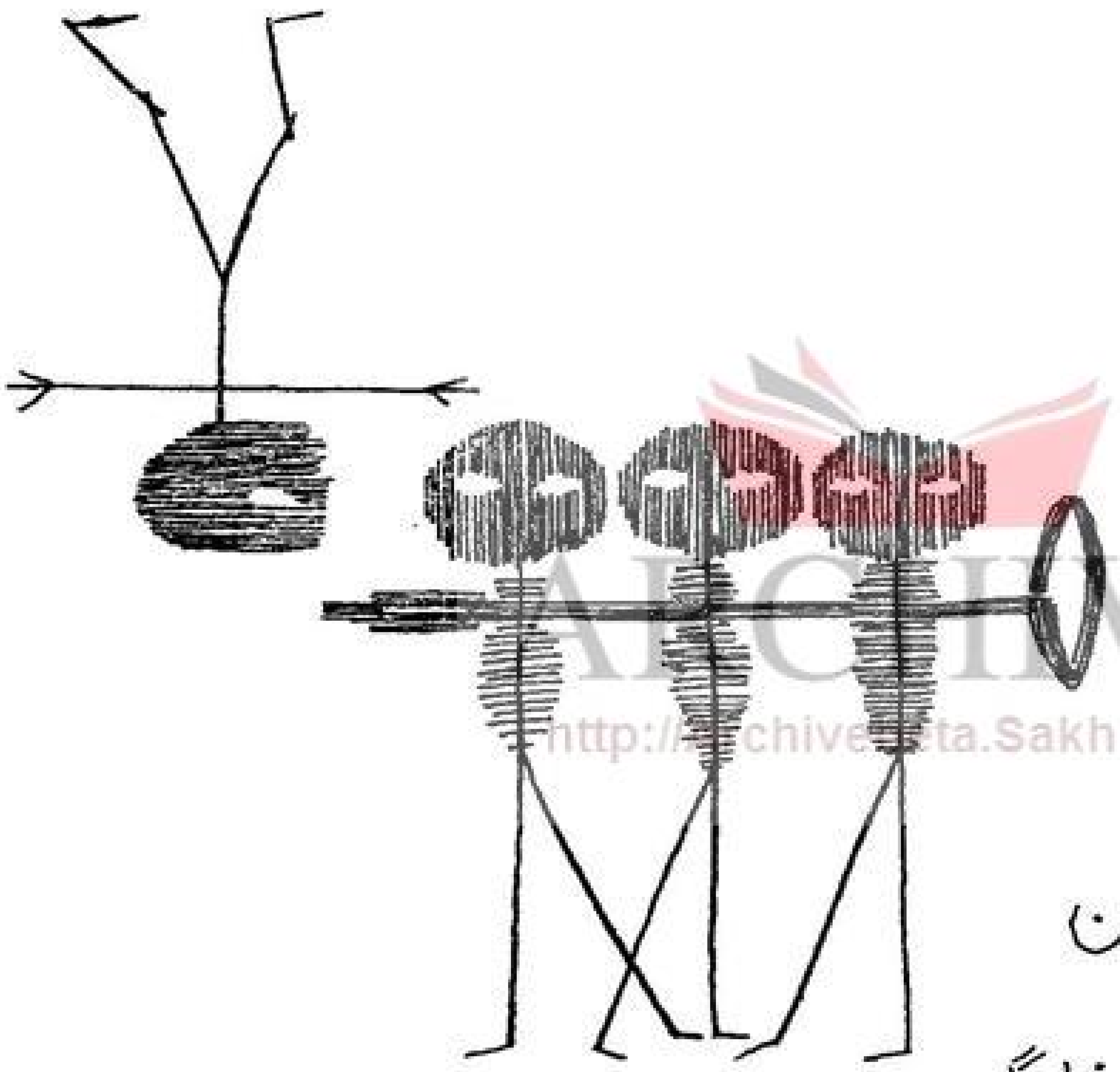

ولم اعد أستغرب

إذا فتحت علبة سردين

فوجدت فيها أطفالاً صغاراً

مغمورين بالزيت

ARCHIVE
http://archivebeta.Sakhrit.com

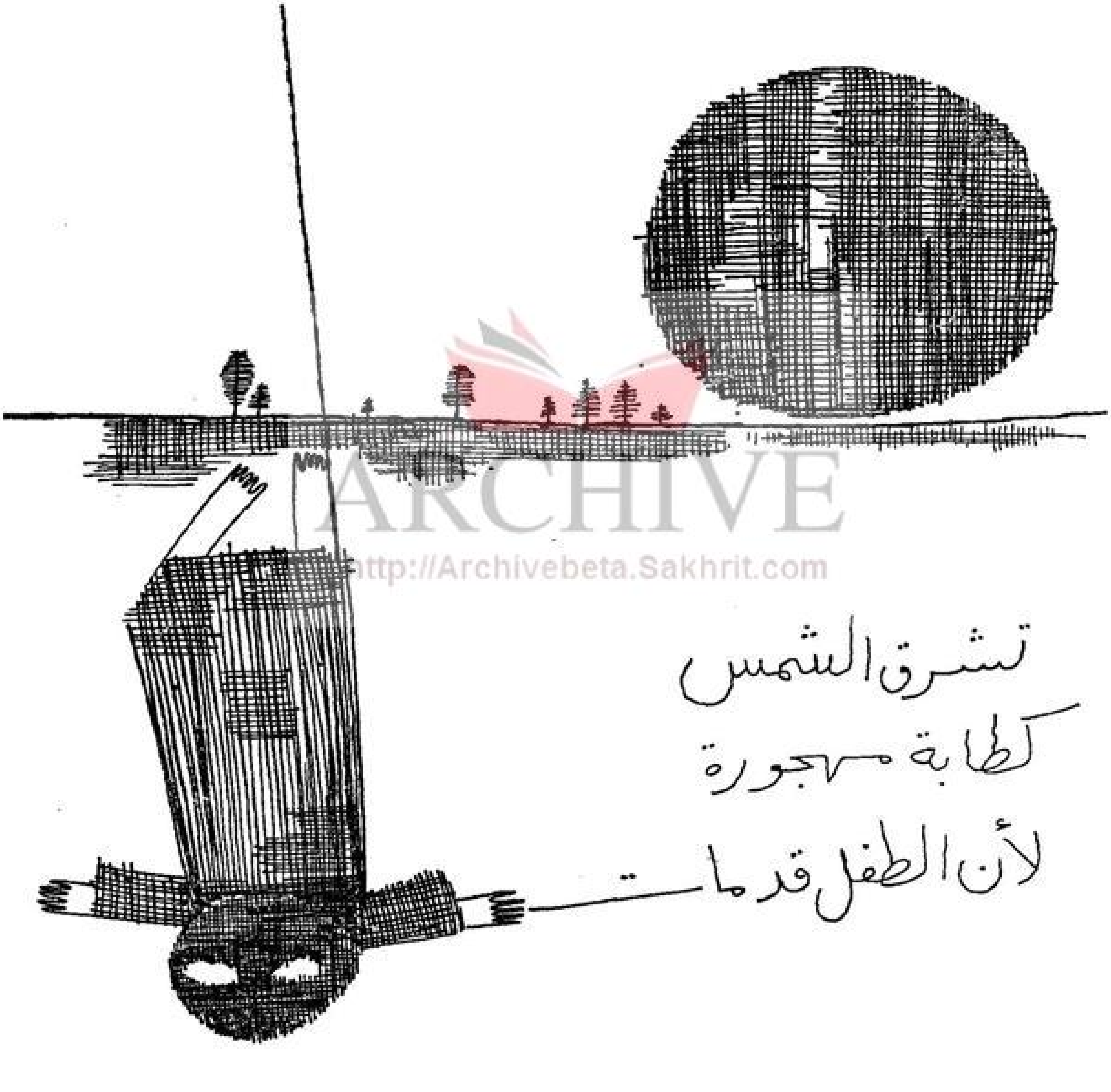

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

(الشعر لعبد القادر أرناؤوط ، الرسم لنذير نبعه)

لطفي الخولي

الرجل الذي رأى بطن قدمه اليسرى في مرآة مشروخة

في الساعة الخامسة إلا ربعاً من بعد ظهر يوم الأحد – كما بينت ساعة يده التي يضيء عقرباها إذا هبط الليل – كان الجو حاراً الى درجة غير محتملة، ولكن ماذا يفعل؟ الجو – سجين – محكوم عليه بأن يكون نار الله الموقدة وهو – حر – محكوم عليه بالحياة في هذا الجو. كلاهما، لسبب أو لآخر لا يعلمه ولا رغبة في البحث عنه، يمقت الآخر ومقيد اليه في الوقت نفسه كالبيض والسود في نيويورك. لا مفر من المحكوم.

*

أسخف ما في هذا الحر أنه يقلد البرد. يخز الجلد بإبر محمومة، وبدل اللسعات التي تقنفذ الجسد، تفجّر فيه ينابيع الماء اللزج. منذ اسبوع اكتشفت صدفة، ان « ناديه » – وهي زوجته تقريباً – قد خانته مع « حامد » صديقه الوسيم ذي الشارب الاشقر والضحكة المعلقة باستمرار مدهش بين أنفه المسحوب الى امام كأنه استعاره من « سيرانودي برجراك »، وبين شفته السفلى المتدلية قليلاً الى تحت، فتعطي أسنانه المنتظمة فرصة الزهو بلمعتها. عنّ له اكثر من مرة ان يطلب اليه اسم المعجون الذي يستعمله. ولكن عندما هم لينطق عدل عن الفكرة نهائياً. ما اهمية ذلك؟ لو كان أخوه « وليد » محله لسأل «حامد» لحظة تمر علامة الاستفهام بخاطره. كان دوماً يزرع علامات الاستفهام من حوله، حتى لتبدو الدنيا معه حديقة مخضرة بالاسئلة. لا. المسألة ليست شكوكاً وحسب. لماذا يشك او لا يشك، ولديه من الشواهد ما يدفىء يقينه. ولان اليقين مريح، فهو لا يحس بشيء غير عادي في المسألة. وللدقة، هو لا يهمه

ان يحس بشيء عادي او غير عادي . خلال هذا الاسبوع ضبط نفسه ، مرتين في حالة تلبس بسؤال : « هل ما زال في الامكان الاحساس بشيء.. أي شيء ؟ » انتظر الجواب . لكن شيئاً فيه لم ينطق . في داخله يعوي الصمت من زمن ، كأنه ريح مجهولة في صحراء مفقودة . هل هناك وباء جديد انتشر في العالم يطفىء الاضواء ويخرس المشاعر في جوف ابن حواء وآدم ؟ حسناً لقد وقعت الرأس في الفأس ، او الفأس في الرأس . لا يدري بالضبط كيف يقولونها ، هذه العبارة ذات التركيب العجيب كلوحة من لوحات « سلفاتور دالي » ، تجريد في تجريد . لكل شيء في الدنيا وظيفة ، دور ، الا انه مع ذلك شيء مجرد . عالم بأكمله فيه الجمال والمربع والجنس والخط المستقيم والموت والنار . السيجارة . انف حامد . الهواء . الماء . سرة ناديه . الموسيقى . السماء . أسئلة وحيد . الجريدة. الحقيقة . والحقيقة . ان خيانة نادية اصبحت حقيقة . شيء مجرد ، يتنفس معه هذا الجو الحار غير المحتمل . فماذا عساه يفعل ؟ ناديه الحلوة — رغم حامد — ما زالت حلوة ، اذا ما غمزت وغنجت وابتسمت ، ابتسمت معها احجار هرم خوفو كلها . وخاصة في تلك اللحظات المبتكرة دائماً رغم تكررها ، التي يمتزج فيها وعي اللذة بلاوعي الألم ، وتمتص ساعتها كل شيء في الغرفة الوردية اللون ذات المرآة الكبيرة المشروخة المثبتة بجانب الشباك الكالح الطلاء ، كأنه يعاني خجلاً ابدياً . كم من مرة ، لمح في المرآة ، خلال لفتة خاطفة ، بطن قدمه اليسرى ، عندما يطقطق السرير متوجعاً مع رعشات جسده . لولا هذه المرآة المشروخة ، لما تيسر له ان يعرف ابداً ان بطن قدمه اليسرى بيضاء الى هذا الحد . وصديقه حامد . رغم ناديه — ما زال صديقه ، يتسكع معه الليالي الطويلة في شوارع القاهرة التي لا تنتهي ، يثرثر كشلال . ومع ذلك خفيف كريشة ، لا يشعر به . يروي له من حين لآخر بعض النكات التي تتعرى فيها افخاذ وأمخاخ ، بطريقة لورد انجليزي ، يكور الكلمات على لسانه بلكنة عربية .

*

كان العرق ينز دون انقطاع من تحت جلده . ويسيح على جبينه الواسع ، ويتخلل اخاديد وجهه . يمطر حباته ، قطرة قطرة ، على حاجبيه الكثيفين في ايقاع رتيب ، كآهات عبد الوهاب في الجندول ، فتمتلىء العينان وتروغان ، حتى اذا ما كادت الرؤية ان تنعدم ، حرك يده بالمنديل في تثاقل ليجفف العرق في ضجر . منذ سنتين ، لا يذكر — رغم كل ما حدث وخمن وعرف — انه

حرك منديله يوماً ليمسح ولو دمعة واحدة ترقرقت من عينيه .هذا صحيح. منذ سنتين لم تدمع له عين . حل به جفاف لا مبالٍ . اغلب الظن ان لهذا علاقة بأخيه التوأم « وليد » الذي لم يعد من رحلته المنكودة في الصحراء . وقيل ان العطش هو السبب ، والله اعلم . كان اصغر منه بست دقائق لا غير .لكنه كان اقوى . ليس هذا تواضعاً كاذباً ، او رغبة سخيفة في رثاء لا جدوى منه . ففي هذا الوليد كانت تسكن شجاعة شمشون وسقراط وصلاح الدين وجيفارا وبايرون في حبهم للحياة واستخفافهم بالموت . كان يرى ملايين الاشياء التي لا يراها هو . واحياناً كان يسخر منه لأنه يرى الاشياء بعينيه فحسب . والعين لا ترى كل شيء في الشيء . الوردة وردة عند كل الناس في كل زمان حتى زماننا وفي كل مكان حتى في الصحراء . لكن الوردة في عين « وليد » كانت الف شيء وشيء ... عيني نفرتيتي ، نغمات باخ ، قبلة الشمس للبحر عند الغروب على شاطىء العجمي البلاتيني ، همسة أحبك بين رجل وامرأة . وعندما كان يحلم بغد يكون الناس فيه سواسية كأسنان المشط ، كان صوته يغدو أبيض . حين جاء الرجال الثلاثة يطرقون بابه ، ذات ليلة ، وهو على وشك الذهاب الى ناديه في الغرفة الوردية ، دخلوا بتؤدة ، يسبلون اجفانهم ويسحبون اقدامهم بخفة . اما لأنهم ظنوا انفسهم — خطأ ام صوابا — ملائكة الرحمة ، واما لأنهم خافوا أن يوقظوا احداً ، مع ان البيت كان خالياً موحشاً كقبر جديد لم تعمره جثة رجل بعد . تنحنحوا اكثر من مرة في غير انتظام ولعل هذا ما جعلهم في حالة نحنحة متقطعة ، كالآت الاوركسترا قبل العزف حتى امكنهم ان يضبطوا الهارموني . تبادلوا نظرات لا لون لها. ويبدو أن هذا كان اشارة البدء لاحدهم ليقف . وشال جسده من فوق المقعد ففاجأه بطوله الفارع . « اين كان يخفيه؟ » ونظر اليه من تحت تفاحة آدم القلقة وسط رقبته ذات العرق الازرق النافر . لو كان « وليد » موجوداً لسأله دون مواربة « لماذا كل هذا يا اخانا ؟ » .لكن « وليد » لم يكن حاضراً . وهذا الرجل جاء مع الرجلين الآخرين بدلاً منه . ثلاثة مقابل واحد . واطولهم ينتصب امامه . كأنه ممثل على خشبة مسرح دون جمهور .ماذا يظن نفسه ؟ عطيل على الأرجح يتلو من الذاكرة كلاماً منغماً يدخل الى الاذن دقات طبول وحشرجة نفير نحاسي . بين لحظة واخرى يحشر اسم « وليد » بلا مناسبة . كان يمكنه ببعض الجهد ان يفهم شيئاً من كلام الرجل ، غير انه لم يحاول . لماذا ؟ لم يسأل نفسه . واخيراً حين شدوا على يديه واحداً تلو واحد ، قدموا له ساعة « وليد » التي يضيء عقرباها اذا هبط الليل.

تناولها برفق . تأملها ملياً وهزها مرتين ليختبر حالتها قبل ان يثبتها بهدوء حول معصم يده . ظهر عليهم التأثر الشديد . لماذا ؟ لم يسأل نفسه كذلك . صافحهم بنظرة محايدة ومشى معهم خطوتين بل ثلاثاً نحو الباب . وعندما صارت العتبة حدوداً مأمونة بينه وبينهم لن يخطوها مرة اخرى ، قال لهم ببسمة بدا من الغيم الذي طاف بوجوههم انهم لم يتقبلوها تقبلاً حسناً : « اشكركم. الآن عندي ساعة يضيء عقرباها اذا هبط الليل » ومضوا . ظل هو في مكانه لحظات . الباب مفتوح على عتمة الطريق . منذ مدة والضوء يخاصم الطريق . والنور في البيت يفترس الأثاث بفوضويته ، ويسحب منه على الأرض والحيطان ظلالاً ميتة مضحكة. دقيقة او دقيقتان من سكون اللاشيء ثم تحرك خارجاً بخطوات ثابتة أغلق الباب خلفه على النور ومخلوقاته الميتة المضحكة ، وحث الخطى الى ناديه . ليلتها استمتع اكثر من مرة برؤية بطن قدمه اليسرى بوضوح على صفحة المرآة المشروخة في الغرفة الوردية . وعندما سألته ناديه في استرخاء وهي تعيد تصفيف شعرها الذي له لون وطعم قهوة الاكسبرسو الطلياني ، عن الساعة التي في يده وهل هي جديدة ، لم يعرف كيف يجيبها . ومع ذلك قال بصوت اعمى « يضيء عقرباها اذا هبط الليل » . لم يكن حزيناً . كذلك لم يكن سعيداً .

*

كانت اشعة الشمس تتسكع ببطء مستفز ، هنا وهناك ، كعسكري الدورية الذي لا بد من ان يعود للقسم ببعض الزبائن . بصماتها الملتهبة على واجهات المنازل ، فروع الاشجار ، واعمدة النور الذي لم يصح بعد ، وبعض زوايا الطرق التي تلتوي معها — رائحة غادية — سيارات ، دراجات ، عربات نقل ، اقدام ماشية — اوف ! هذه الحياة لا تقف ولا تكل ابدا ، وداهمت عيناه كتلة ضوء مكثفة عكستها واجهة محل تعرض اشكالاً وألواناً من ربطات العنق. توقف بغيظ مكتوم يفرك عينيه . ودون ان يدري وجد نفسه يتأمل الواجهة. خلف الزجاج وقف رجل انيق كأنه صورة في مجلة للموضة ، يقلب عشرات من ربطات العنق وقد تملكته حيرة الاختيار . الاختيار دائماً صعب ، واحياناً مستحيل ، وفي الغالب يولد مشاكل . « أي كرافت يمشي » .. هكذا قال مرة لنادية عندما لاحظت انه لا يحسن اختيار ربطات عنقه . ربطات حامد دائماً مختارة ومنتقاة في عناية . في ذلك اليوم منذ اسبوع عندما لقيه على سلم بيت ناديه مهرولاً الى الشارع وهو يستكمل اغلاق زرين من بنطلونه الرمادي ، كانت

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ربطة عنقه تتهدل على صدره بألوانها الصحراوية ذات الواحات الخضر المتناثرة، ثم عليها رائحة عرق ناديه . لا بد انها عقدتها له وهي تقبله قائلة « اسرع » . «السرعة هي طابع العصر» : دائماً كان وليد يقول .لم يسأل حامد شيئاً .غير ان حامد هو الذي سأله باندهاش صنعه ببراعة : « انت ! الى اين ؟ » «الى ناديه» . «آه ! ناديه تسكن هنا ؟ » ودون ان يطالبه بحساب ، ولا باشارة ولا بكلمة ولا بنظرة ، تطوع حامد ليبرر وجوده في البيت بأنه كان يبحث عن « شقة خالية » وراح ينسج تفاصيل وتفاصيل . كيف عرف ؟ من اين جاء ؟ ماذا وجد ؟ حتى اسم السمسار لم يغفله . وهو واقف بلا اهتمام يتصنع الانصات . اراد ان يربت على كتف حامد ويهمس له : « كل ما تقوله معقول .انا اصدقك . اصدقك حتى ولو قلت لي انك كنت مع ناديه عارياً على السرير تنتظر ترام الجيزه لتركبه عندما يدخل من الشباك الى الغرفة الوردية » لكن بين ان يريد وان يفعل ، بحور وصحارى لا تعبر . اخيراً نزل الصمت الملائكي على حامد . وسمعه يبلع ريقه قبل ان يسأل « كم الساعة ؟ لقد تأخرت عن ميعاد مهم » . مد له يده بساعته التي يضيء عقرباها اذا هبط الليل . القى حامد عليهما نظرة خاطفة وقال وهو يقفز بخفة الارنب نحو الشارع : « الى اللقاء يا صديقي » . وهز هو رأسه دون كلمة ، وراح يصعد السلم ، درجة درجة ، الى نادية . كان « حامد » في كل ركن من الغرفة الوردية على السرير ، وراء الباب ، بجانب الشباك ومع ذلك لم يشعر به وحسب ، عندما لمح بطن قدمه اليسرى في المرآة المشروخة والسرير يرتعش معه رعشاته التقليدية ، بل خيل اليه انه يسأل نفسه : « هل رأى حامد كذلك بطن قدمه اليسرى ؟ » ولا يدري ماذا كان بعد ذلك ، لأنه استغرق في نوم عميق لم يفق منه الا وناديه في الصباح توقظه وتقدم له فنجانا من القهوة . لم تكن ساخنة تماماً ككل مرة غير انه ارتشفها حتى القاع ونزل الى الشارع . وفي الشارع كان الجنون يحرك البنات والعربات والقطط والعساكر والشيوخ والكلاب واشارات المرور ، بسرعة من صار يقينه انه يعيش آخر يوم في حياة البشرية . على الرصيف ، انتفض امامه فجأة ، بائع الصحف السمين ، وكأن ارضاً مسحورة قد انشقت عنه . وحين لوح في وجهه بصحيفة يتوجها مانشت احمر كبير وصرخ « طلعوا القمر » تذكر انه يجب ان يذهب الى عمله بشركة الترام . وذهب . ماذا يفعل ؟ كان عليه ان يذهب .

*

شرع الجو يستجمع هواءه الرطب ويتمرد على الحرارة . والشمس القوية

الرعناء التي ظلت سيدة وحاكمة طوال النهار ، بدأت اولى خطوات الانسحاب نحو هزيمتها المحتمة مع هجـوم الليل المضاد . وتشجعت بضع نسمات رقيقة على الحركة وهزت فروع الاشجار الصغيرة . زقزقت عصافير لحظة كان دم الشمس الجريحة يسبح على الأفق . الدم .. ما لون الدم الآن ؟ هــل ما زال الدم على حمرته الداكنة الساخنة ام تغير ؟ لم يرَدم « وليد » بعد فكيف له ان يعرف ؟ لكن هذا الذي يتلوى امامه كثعبان على اسفلت الطريق كأنه يبحث عــن فريسة ، اليس دماً ؟ وهذه العربة المجنونة التي تختفي مع انحناءة الطريــق الشيطانية ، جندلت الرجل الابيض الجلباب والشعر ومضت في طريقها . . . لا بد ان تمضي . فالطريق امامها مفتوح دون سدود . من تحت الجلبــاب الابيض يخرج هذا الثعبان الاحمر الذي يجري نحوه بتحد غريب . كل شيء يجري بنظام دقيق كأنه مرتب من قبل . ماذا يفعل ؟ عتمة الليل تسقط فوق رأسـه . من هذا الذي يناديه « ساعدني » .. من اين يأتي هذا الصوت الطري المبحوح الذي يذكره بصوت ناديه يوم اكتشف خيانتها مع حامد . « الرجل دمه شربه التراب » . ما هذا .. ماذا حدث ؟ اين الرجل وجلبابه الابيض وثعبانه الأحمر ؟ الشمس كذلك هربت . العرق نشف . هؤلاء الذين يركضون ويتدافعون كأن القيامة قامت وحرب الخير والشر اندلعت ، يزيحونه مرة الى اليمين ومرة الى اليســار وليس على السنتهم الا كلمة « الاسعاف » وهو مسمــر الى الأرض لا يستطيــع حراكاً . ملايين من طوابير النمل تزحف تحت جلده مع جيش الظــلام الذي حانت ساعة انتصاره . اجراس تهلل من بعيد كأنها تدق في آخر الدنيا ثم يقوى رنينها ويقوى ويقوى حتى لكأنها ترنّ في أعماقه هو « هل تحول رأسه الى برج كنيسة ؟ » اصوات تصرخ : « حاسب ... مالك ... الرجل جن .. » كان ، بارادة وبغير ارادة ، يجري خطوتين ، يدور حول نفسه ، يقف لحظة يصيـخ السمع ، ثم يجري ، ثم يعود ، ثم يقف ، ثم يجري . الاصوات ومعها عدو مجهول بلا وجه ، تطارده ، تـكاد تمسك به . امسكت به بالفعل . في جنبه الايمــن احس بضربة حادة . صرخت الاصوات « لا حول الله » . فتح عينيه ليرى ماذا حدث ، فصافح السماء مستوية في هدوء ، عالية بعيدة مع القمر . غير ان النجوم كانت قريبة جداً حتى لا يـكاد يفصلها عنه شبر واحد . ماذا لو مد ذراعــه وقطف نجمة يعطيها لناديه . لا ، لوليد . ولكن اين يعثر على وليد في الصحراء المفقودة ؟ يسأل الرجال الثلاثة ؟ لن يعرفوا حتى ولو عرفـوا لن يقولوا . لا . سيعطيها لناديه تعلقها فوق المرآة المشروخة او حتى على طرف انف حامد . كلا . .

كلا . يختزنها ليعطيها لهذا الذي لا بد ان يذهب يوماً الى الصحراء ويعود بوليد. ما هذا الذي يتحرك فوق رأسه ؟ اين رأسه ؟ هل اصبح للنجوم بوابات تقفل وتفتح ؟ وافواه ذات السنة تخبز الكلمات وتكورها وتقذفها في وجهه . سمع ، او خيل اليه انه سمع صوتاً محني الظهر يتكيء على عصا « دنيا ! جاء الاسعاف لينقذ رجلاً فصدم رجلاً آخر » .لم يفهم شيئاً . من المطلوب لينقذه الاسعاف ؟ ومن الذي صدمه الاسعاف ومتى كان الاسعاف يجيء ؟ حطت على جبينه يد مليئة ساخنة كأنها من مخلفات الحر غير المحتمل ، وقالت بصوت اخضر « كيف حالك ؟ » اراد ان يفتح فمه ليقول شيئاً يريد ان يقوله غير انه لم يفتح الا عينيه مرة اخرى . ولا يدري هل تكلمتا ام لا ؟ وعندما سمع صوتاً آخر كصوته يسأل عن الوقت ، حرك يده ليستشير ساعته . « غريبة » لم تكن هي نفسها حركة يده التي اعتادها كلما استنجد بساعته . ولم ير غير الظلام والظلام . « اين الساعة ؟ » تحسسها باصابع يده الأخرى . كانت هناك مستلقية في امان حول معصمه . في هذه اللحظة طنت في اذنيه صرخة ، احس انها تنطلق من شيء يصحو في اعماقه فجأة . بالتأكيد هي صرخته : « الليل هبط وعقارب الساعة لا تضيء » تعاقبت صرخاته كوأوأة مولود بكر « لماذا يا وليد؟ لماذا ؟» والتصقت « لماذا ؟ » بلسانه تلطم بعنف جدار الليل تشحنها كل الرغبة في تحطيمه . وحين رفعوه بالنقالة الى سيارة الاسعاف لاحظوا دمعة تموج في بحيرتي عينيه . همست امرأة شابة صبوحة الوجه متشحة بالسواد زرعت جسدها وسط الجمع : « الشاب يا عيني يبكي » بيد ان احداً لم يعرف انها كانت دمعته الأولى منذ سنتين .

(يونيو ١٩٦٩)

فؤاد التكرلي

متهمون سياسيون
(ملهاة في منظرين)

الشخصيات

المتهم السياسي الأول ، المتهم السياسي الثاني ، المتهم السياسي الثالث ، السكير ، المتفرجون ، شبان وامرأة عجوز وفتاتان ، الحارس .

http://Archivebeta.Sakhrit.com

المنظر الأول

(داخل قفص حديدي كبير في احدى حدائق الحيوان . القضبان المحيطة بالمسرح قذرة سوداء متشابكة . على الارض عظام ضخمة وقطع من اللحم اليابس وبعض القاذورات الأخرى .

يمكن رؤية ممر واشجار خضراء من خلال القضبان . بين وقت وآخر يمر احد المتفرجين او المتفرجات بلباس ناصع الألوان وهندام كامل انيق . الجو داخل القفص يوحي بالوحشة والقتامة . تسمع ، بين وقت وآخر ، اصداء بعيدة وقريبة لصراخ وعويل بعض الحيوانات تختلط احياناً بنعيق بوم وهديل حمام .

حينما يرفع الستار يكون الضوء في المسرح غامقاً جداً بحيث لا يبدو من الشخصيات غير ظلالها ، ثم تقوى الانوار بعد ذلك شيئاً فشيئاً . غير ان ملامح الشخصيات تبقى مبهمة وغير متضحة تماماً .

المتهم السياسي الأول هو برأس اسد كبير ذي فروة يحيطها شعر طويل . جسمه جسم حمار وحشي بلا ذنب .

المتهم السياسي الثاني يختفي أعلى جسمه داخل رأس فيل مع خرطومه . الخرطوم يتدلى نحو الارض . يتبع هذا جسم حمار وحشي يشابه جسم المتهم السياسي الاول مع ذنب حصان طويل كث الشعر .

المتهم السياسي الثالث هو برأس أيل ذي قرون طويلة متشعبة وجسم حمار وحشي ايضاً تتدلى من نهايته افعى ميتة تشكل ذنب الحمار الوحشي . التنكر الحيواني هذا غير متقن ولا يخفى على المشاهد ، الا ان جو القفص المظلم نسبياً مع جلوس الشخصيات احياناً يجعل اكتشافه بسرعة غير ممكن.

يقف المتهم السياسي الاول متكئاً بظهره على الجهة اليمنى من القفص ، بينما يجلس قبالته على الارض المتهم السياسي الثاني جوار المتهم السياسي الثالث).

المتهم السياسي الأول (عاقداً ذراعيه على صدره) : تم تنفيذ خطة الهروب بنجاح او بما يشبهه . وها نحن احبطنا محاولة لإدانتنا ولاصدار حكم علينا . تحررنا من عالمهم ، وعلينا ان نستمر في طريقنا الى النهاية . لعلكما لا تجهلان ان وضعنا المؤسي هذا سينتهي حالما تأتينا المعونة من اخواننا في الخارج.

المتهم السياسي الثاني : هل باستطاعتك ان تحدد لنا موعداً ، مهما يكن مبهماً ، لهذه المعونة ؟

المتهم السياسي الأول : أتشعر بالقلق منذ الليلة الأولى ؟

المتهم السياسي الثاني : كلا ، ولكني اشعر بضيق تنفس .

المتهم السياسي الأول : هل تظنني بأحسن حال وانا احمل هذا الرأس اللعين؟ نجونا بحياتنا ، ارجو ان تتذكر هذه الناحية من الموضوع . لم نكن امام سبل كثيرة للاختيار ، ويجب ان تشكر حظك لاننا دخلنا حديقة الحيوان هذه بعد غروب الشمس .

المتهم السياسي الثاني : كان باستطاعتي ان اقتل واذبح اي عدد آخر من الحيوانات في وضح النهار . كانت حيوانات رخوة كأنها دمى مليئة بالقش . هل تظن ان حياة المدن ، حياة البشر ، افقدتها حيويتها المعتادة ؟

المتهم السياسي الثالث : لن استغرب ذلك . نزعت رأس الايل هذا كما انزع حذائي .

المتهم السياسي الاول : ارجو ان تجري الأمور الأخرى بمثل هذه السهولة.

المتهم السياسي الثاني : ما هي الأمور الأخرى ؟ انهم لا يعرفون مكاننا ، وأية طريقة فذة سيتبعون لتشخيصنا ؟

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

المتهم السياسي الاول : تلقيت اوامر صريحة بان نكون في حديقة الحيوان هذه خلال الاسبوع الجاري . اما ما سيتبع ذلك فلا علم لي به ، كما لا اعلم نوع الأوامر التي تصدر بشأنه . ان غيرنا هو المكلف بتنفيذه .

المتهم السياسي الثاني: سأندهش كثيراً لو قصدت الأوامر ان نكون حيوانات.

المتهم السياسي الثالث: لا تقلق اكثر مما يجب. سيتعرفون علينا عاجلا ام آجلا.

المتهم السياسي الثاني : بقرونك المريعة هذه ، لن تستطيع ان تخمن من سيتعرف عليك .

المتهم السياسي الثالث : هل تشير الى اشياء اجهلها ؟ ان خرطومك المتدلي لا يبعث البهجة في قلب احد .

المتهم السياسي الاول : لا تبحثا المستقبل بمثل هذه اللهجة . (الى المتهم السياسي الثاني) انك دائم الشكوى من لا شيء . لِمَ تريد ان تعرف موعد وصول المعونة الينا ؟

المتهم السياسي الثاني (غاية الهدوء) : يسعدني ألا ابقى حيواناً .

المتهم السياسي الاول : لا تسخر . لست حيواناً وانت تعلم ذلك جيداً .

المتهم السياسي الثاني : باي مظهر اظهر لك ، اذا سمحت ؟

المتهم السياسي الأول : من فضلك ، لست أملك وقتاً للهو . أتريد ان تشكو من ان مظهرك المزيف هذا قد جعل منك حيواناً ؟

المتهم السياسي الثاني : ان مظهري ليس مزيفاً . المظهر هو نفسه المظهر ، وليس بمقدورك تزييفه . الروح يا اخي ، الروح هي التي تزيف حقاً .

المتهم السياسي الاول (الى المتهم السياسي الثالث) : هل سمعت اقواله ؟ يمكنك ان تتذكرها كما ارجو حين الحاجة . اما الآن فأود ان احدثكما عن بعض المحاذير الناشئة من موقفنا هذا . (يتحرك بتثاقل ثم يقف) اللعنة ، لسنا حيوانات ايها الاخوان . ارجو ان تبعدوا هذه الفكرة عن رؤوسكم ...

المتهم السياسي الثاني (مقاطعاً) : رؤوسنا المثقلة بحيوانيتها .

المتهم السياسي الثالث : ولكنك تلح كثيراً على هذه النقطة التي لا افهمها . ماذا يضيرك الا تكون حيواناً ؟

المتهم السياسي الاول : اتركاني اكمل حديثي . اني الاقي مشقة في إكماله . صدقاني . لسنا حيوانات ، سواء اردنا ذلك ام لا . دعونا ننتهي من هذا الى الابد . أتسمعان ؟ وصلتنا اوامر حاسمة وقاطعة . يجب ان نهرب من السجن. ماذا كان ينتظرنا لو بقينا ؟ لا أدري ، او لا استطيع اخباركما . تمت خطة

الفرار بنجاح ، وها نحن ، كما تريان ، هنا وسط الحيوانات وبزيها ولكن .. دون ان نكون مثلها . اضطررنا لاتخاذ هذا الطريق باعتباره المسلك الوحيد البعيد عن الشبهات . لا تنسيا اننا ننفذ الاوامر وان لها تتمة كما قلت لكما . لن نبقى هكذا، سيصار الى انقاذنا بالتأكيد . استطيع ان اؤكد لكم هذا التأكيد.

المتهم السياسي الثاني : تأكيد التأكيد ! هذه لغة الاسود ام الفيلة يا سيدي؟

المتهم السياسي الاول : لا تبحث معي الالفاظ وجماليتها . انقل لك معنى ما ، ارجو ان تلتقطه .

المتهم السياسي الثاني : بخرطومي حسبما اعلم ؟

المتهم السياسي الأول (مترشاً فترة قصيرة) : انك لا تساعد احداً بهذرك هذا ، وانا لا املك وقتاً طويلاً لأجاريك ، لذلك يجب ان تدعني انهي كلامي . انا آسف ان اخبركما بان حديثنا ، الذي لا يخلو من سفسطة ، لا بد ان ينقطع بعد شروق الشمس وبعد ان يبدأ الزوار باستعراضنا . يكفي ان يجمع هذا القفص اختلافات ايديولوجية لا يقبلها اي عاقل ! وانا اعتمد في بقائنا وسلامتنا على غباء المتفرجين وعدم اهتمامهم باخبار السلطات عن وجودنا السعيد هنا . لعل هناك من سيجد تسويغاً ما لجمع الأسد والفيل والأيل في قفص واحد .

المتهم السياسي الثاني : لست هذا الشخص بالتأكيد .

المتهم السياسي الثالث : يجب ان اقول انني لا استطيع ، في حالتي الاعتيادية ، ان اتحاشى ادراك هذا التناقض .

المتهم السياسي الاول (بعد فترة صمت) : اليس من المضحك ان اقف امامكما متهماً باشياء مريعة ، لسبب بسيط هو انني مسؤول عنكما امام الرفاق ؟ لماذا تظنان ان الأمور التي تتمتعان بالتشدق بها ، لم تخطر لي ، لا تخطر لي دائماً. دائماً؟

المتهم السياسي الثالث : ولكننا نتبادل الأفكار ليس الا، السنا كذلك ؟

المتهم السياسي الأول : التلاعب بالالفاظ الذي تسميه تبادلاً للافكار ، ليس هو ما يعوزنا الآن . نسيتما سريعاً اين كنا ايها الابلهان . كان يكفي ان نتأخر بضعة ايام كي يصدر علينا الحكم . وبودي ان اعلم رأيكما عن الحياة الشاقة التي كانت ستنتظرنا ، او الموت السريع الذي ربما حل مشاكلنا آخر الامر . (فترة سكون قصيرة) اننا نمثل طبقة ، لا ادري صفاتها او مدى تغلغلها في هذا المجتمع ، ولكنها طبقة يجب ان تزول . اننا نطالب بحقوق لا تقنع عادة ، وندافع عن طراز من الحياة لا وجود له . ولكننا نكافح . ربما لاننا خلقنا هكذا.

المتهم السياسي الثاني (محركاً خرطومه) : اني اعترض . سجلا اعتراضي.

ليس هذا كلام مناضل سياسي مؤمن بهدفه.

المتهم السياسي الأول : ولكني مؤمن بهدفي ، ولذلك تجدني هنا معك . انما ، دعني اسألك . لماذا نحن قلة دائماً ؟

المتهم السياسي الثاني : انت تعلم سبب ذلك جيداً .

المتهم السياسي الأول : لا تقل انها المصالح والطبقات .

المتهم السياسي الثالث : اصمتا . هنالك من يقترب من القفص . (يمر الحارس امام القفص دون ان يلقي بنظره الى الداخل) مر بسلام . الحمد لله .

المتهم السياسي الثاني : هدف ام بلا هدف ، هذه مشكلة حقاً . هدف يتحقق ام هدف لا يتحقق ، تلك هي الورطة. (يمد رجليه ويعدل من وضع ذيله) ماذا سنعمل خلال ساعات الفراغ الطويلة المقبلة ؟ وددت لو اخذنا بعض الكتب الحديثة من احدى المكتبات اثناء الفرار .

المتهم السياسي الثالث : فيل يقرأ .

المتهم السياسي الثاني : ستتحسر معي بعد اسبوع واحد .

المتهم السياسي الثالث : ماذا ؟ اسبوع ؟ ولكنهم سيتوصلون الى انقاذنا خلال الايام القليلة المقبلة كما وعدوا . اليس كذلك ؟ تكلما .

المتهم السياسي الاول : قيل لي ذلك ، ولقد نقلته اليكما بكل امانة .

المتهم السياسي الثاني : والسؤال الذي يتقافز بين قرونك يا عزيزي الايل ، لا جواب له الآن .

المتهم السياسي الثالث : لا تتحامق باظهار ذكائك امامي . لن اكون المغفل الوحيد في نهاية المطاف . خطر لي ان استوضح عن المدة التي سنبقى فيها منتظرين وصول الرفاق .

المتهم السياسي الأول : هل لذلك اهمية او فائدة ما ؟

المتهم السياسي الثالث : نعم . اريد ان اعلم متى يجب ان ايأس .

المتهم السياسي الثاني : امر مهم ، غاية في الأهمية كما ارى .

المتهم السياسي الثالث : هل يسخر مني ؟

المتهم السياسي الأول : ربما . لن تعلم يوماً حقيقة مقصده . ماذا اردت ان تقول بصدد اليأس ؟

المتهم السياسي الثالث : امر بسيط . او لعله كذلك بالنسبة لي وحدي . اني اعمل ، اباشر العمل بمفردي حين أيأس من الآخرين . مسألة عادة كما تريان . (فترة صمت . يمر زائر شاب وهو ينظر الى القفص بعيون جامدة كأنه في حلم)

هل لاحظتما كيف تطلع الينا ؟لسنا موضوعات تثير الفضول . شكراً لله .

المتهم السياسي الثاني : لماذا يجب ان نثير فضوله ؟ اننا حيوانات مثل بقية الحيوانات . كلنا سواسية . ولن تستطيع ان تقنعني اننا سنرى متفرجاً يقفز من الفرح لمجرد رؤيتنا . سأسميه مجنوناً . لا شيء يبهج القلب في الحيوانات. انها عوالم متكاملة مغلقة . عوالم منتهية . (لهجة اسى ، ممسكاً بخرطومه) ولا أخفي عليكما اني لا اعلم لم لا نغلق عوالمنا نحن البشر ونتكامل مع انفسنا مثل بقية الحيوانات .الى متى ، ونحن في القرن العشرين ،سيبقى هؤلاء البشر الحمقى منفتحين هكذا للقلق وحب الغير وللآفاق البعيدة ؟

المتهم السياسي الأول (الى المتهم السياسي الثالث) : ماذا تعتقد ان باستطاعتنا ان نعمل بمفردنا حين نقرر ان الوقت قد حان لذلك ؟

المتهم السياسي الثالث : لا أعلم ، لا يمكنني ان اعلم . حدد لي وقت اليأس كي أبدأ العمل . لا عمل بدون يأس ، هكذا اعتدت دائماً . لا تلمني .

المتهم السياسي الثاني : هل تعني ، هل تعني ان هنالك امكانية في ان نترك هنا .. لأنفسنا ؟

المتهم السياسي الأول : بمقدورك ان ترى ان ذلك غير مستحيل .

المتهم السياسي الثاني : كلا ، كلا ، لا يمكنني ان اصدق هذا . لن يتركونا في وضع مهين كهذا . قالوا لك ذلك . ألم يقولوه بوضوح ؟

المتهم السياسي الأول : قالوه ، لكن ليس بوضوح .

المتهم السياسي الثالث: آه،هذه نقطة مضيئة في طريق المصير ايها الاخوان.

المتهم السياسي الأول ، المتهم السياسي الثاني : ماذا تعني ؟

المتهم السياسي الثالث :اعني اننا يجب ألا نتأخر في اليأس (فترة صمت قصيرة)

المتهم السياسي الأول : لو سألتماني رأياً صريحاً لأجبتكما بانني يائس منذ البداية . (المتهم السياسي الثاني والمتهم السياسي الثالث يقومان بحركات واصوات تدل على الاحتجاج) اتركاني أتم توضيح فكرتي . كنت يائساً منذ البداية .

المتهم السياسي الثالث : أية بداية ، لو سمحت بالسؤال ؟ اشتركنا في الف عمل وعمل ، وكان لكل واحد منها بداية ما ، واحياناً نهاية كذلك . بل اني اتذكر الآن انك بدأت قبلنا ايها الاخ .

المتهم السياسي الأول : كنت يائساً منذ البداية لاني ايقنت اننا لن نخرج من السجن الى مكان أفضل .

المتهم السياسي الثاني : اوه ، افزعتني.ظننتك يائساً من فكرتك السياسية.

المتهم السياسي الثالث : اليس كذلك ؟
المتهم السياسي الاول : ما دخل السياسة في هذا الموضوع ؟
المتهم السياسي الثاني : لكن .. لكن ، الآن يجب ان نتوقف قليلاً .
المتهم السياسي الثالث : خيل الي دائماً انهم يدعوننا سياسيين ، او على الاصح ممتهني سياسة واحياناً هواة سياسة .
المتهم السياسي الأول : هل ترى رأيهم ، وهم الاعداء ؟
المتهم السياسي الثالث : لا تلق على رأسي بالغازك وانا احمل مثل هذه القرون.
المتهم السياسي الأول : هذه اشياء لم نعتد الكلام عليها ،ويسرني ان اسمع آراءكم فيها . ان من واجبنا كحزبيين الا نترك الفراغ يلتهمنا ، لأن الوقت ليس ملكنا .
المتهم السياسي الثاني : لست اشعر برغبة في الكلام. ان قلبي منقبض يازميلي، ولا ادري لماذا لم تؤخذ آراؤنا في هذه القضية المهمة . ليس من حق احد ان يمنع الآخر حرية لا يريدها . اذا لم يرد الأخوان ان نبقى مسجونين او ان يصدر علينا حكم ، فكان عليهم ان يقضوا علينا او ان يوفروا لنا هروباً مشرفاً ذا نهاية سعيدة، اعني محترمة . ان عليكما ان تفهما ان وضعنا لا يطاق .
المتهم السياسي الثالث : اسكت .. اسكت

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

(يقترب شاب انيق ترافقه امرأة عجوز بثياب بيضاء ويقفان امام القفص . الشاب يبتسم ابتسامة عريضة فارغة تدل على السعادة الغامرة . لحظات ويمضيان دون كلام) .

ها كم انساناً سعيداً .
المتهم السياسي الثاني : سعيد برؤيتنا . ما أعجب هذا !
المتهم السياسي الأول : الضحك لا يدل دائماً على ان المواطن سعيد بالضرورة.
المتهم السياسي الثالث : سندخل اذن في قضية الضحك بلا سبب .
المتهم السياسي الأول : هذا بعيد عن ذهني . الاطمئنان العميق هو وحده الذي يمكن ان يبث الحبور في القلب .
المتهم السياسي الثاني : الاطمئنان موت متنكر ، والناس تجهله هذه الأيام .
المتهم السياسي الثالث : اعتقد ان لنا ضلعاً في كل هذا .
المتهم السياسي الاول : ماذا تقصد ؟ عمن تتكلم ؟
المتهم السياسي الثالث (متحركاً بقلق) : لم اقصد احداً بالذات حين تكلمت . انا احب التعميم . ولكني كنت افكر باولئك الذين تهمهم السياسة الى حد ما . انت تعلم ، كل يفتش عن معيشته .

المتهم السياسي الأول : اليس هذا مضحكاً ؟ تبدلت آراؤك بتبدل هيئتك. انك الآن تداهن وتنافق بخلاف العادة .

المتهم السياسي الثالث : آه ، انك تقرؤني مثل كتاب مفتوح ، وانا اشعر بنفسي أضعف من الأيل امامك يا سيدي الأسد . ولا ادري في الحقيقة كيف سأمضي الوقت معكما .

المتهم السياسي الثاني : لا تنتظر يوماً نأكلك فيه . ولهذه المناسبة ، هل من السابق لأوانه ان اتساءل عن نوعية طعامنا وعن طريقة تدبيره ؟ اود ان اعلم الأخوين العزيزين بأنني لا اشعر الآن باية تخمة في معدتي .

المتهم السياسي الثالث : اليس هذا خبرا مفرحاً ؟

المتهم السياسي الأول : لا تأخذا الامر مأخذ الهزل . فكرت في طريقة لتدبير الطعام لنا . ليس امامنا غير محاولة الخروج ليلاً من القفص وجمع ما يتيسر لنا جمعه من فضلات الطعام من سلال المهملات التي لاحظت انتشارها في انحاء الحديقة .

المتهم السياسي الثاني (ملتفتاً بخرطومه الى المتهم السياسي الثالث) : تهاني القلبية الحارة .

(لحظات صمت . تقبل فتاتان مسرفتا الزينة وترتديان ثياباً ذات الوان براقة . تأكل احداهما بقية موزة ثم ترمي القشرة اثناء مرورها على المتهم السياسي الاول من خلال القضبان فتصيبه في وجهه . تمضيان دون اكتراث).

المتهم السياسي الثالث : اهذه اشارة ام رمز لا مر ما ؟ لعلها تروم ملاقاتك على انفراد في مكان منعزل .

المتهم السياسي الاول (يرفع القشر ويتأمله هنيهات ثم يرمي به الى الخارج): قشر موزة . سنعثر على الكثير منه قريباً .

المتهم السياسي الثاني : لا تقل لي اين .

المتهم السياسي الاول : انك تتذمر لغير سبب . لم لا تتحملان بعض المسؤولية معي ؟ اني مستعد ان انفذ اية خطة معقولة تقترحانها للحصول على الطعام . لماذا تتصوران انني لن اجوع مثلكما ؟

المتهم السياسي الثاني : القضية هي ان تحمّل المسؤولية معك لن ينقذنا من الموت جوعاً . سنموت آنذاك ونحن مسؤولون .

المتهم السياسي الثالث : ولن يتغير الطعم المرير ، لو تعلمون .

المتهم للسياسي الأول : انكما ابلهان . كان اولى ان تضعا رؤوس حمير . ان

المسؤولية التي تتحدثان عنها باستخفاف هي القادرة ان تغير من الأساس حياتك .. وموتك . انا اعلم انني لن اموت بغير معنى ، حين اريد ذلك .

المتهم السياسي الثاني : لكنك ستموت . ألن تموت ؟

المتهم السياسي الأول (صارخاً) : لا تقل لي هذا . (يضرب القضبان بيده) الانسان هو الوحيد الذي يختار طريقة موته . لا يغرنك لبوس الحيوانات الذي يتراءى لك مني . انني انسان وسأختار انا .. ميتتي .

المتهم السياسي الثالث : اما انا فسأختار طعامي اذا سمحتم .

المتهم السياسي الثاني : هوذا صوت العقل .

(يقترب السكير من القفص . انه كهل مهلهل الثياب يحمل قطعة خبز كبيرة وبصلة خضراء . يقف أمام القفص وهو يتمايل بعض الشيء . يتأملهم لحظات. تبدأ تقاطيع وجهه بالتشنج ويصدر من فمه صوت يشبه الصفير ووشوشة الماء الجاري . يتوقف برهة ثم يعاود الهمس بلغة مختلطة غير مفهومة تصاحبها حركات وجهه الغريبة . ينصت وهو ينظر اليهم كأنه ينتظر جواباً) .

المتهم السياسي الثالث (صوت منخفض) : اعملا شيئاً بحق السماء لطرد هذا القرد من أمامي . اخشى ان انفجر ضحكاً فتتساقط قروني .

المتهم السياسي الثاني (صوت منخفض) : اصبر قليلاً . بوصة واحدة وتكون قطعة الخبز من حصتنا .

(السكير ما يزال يحرك وجهه ويتكلم لغته المشوهة . قرون المتهم السياسي الثالث تضطرب قليلاً ويبدو عليه كمن يحاول السيطرة على نفسه كيلا يضحك. يقترب المتهم السياسي الثاني بهدوء من محل وقوف السكير ثم يمد يده بخفة فيخطف قطعة الخبز والبصلة منه . يضطرب السكير ويصمت ناظراً الى المتهم السياسي الثاني . لحظات ثم يعاود حركاته وهمساته . المتهم السياسي الثالث ينفجر ضاحكاً بعنف)

المتهم السياسي الاول (واقفاً ، صوت عال جداً) : ابتعد من هنا . امش لحالك ايها المجنون . هيا .. هيا .

(يضرب القضبان بيديه ورجليه . يصاب السكير بذهول وهو يتطلع الى المتهم السياسي الاول . فترة قصيرة ثم يتراكض مذعوراً بخطوات سريعة مضطربة . يهدأ المتهم السياسي الثالث من نوبة الضحك ويتراجع المتهم السياسي الاول الى الجهة التي كان فيها ثم يجلس على الارض ممسكاً برأسه).

المتهم السياسي الأول : ماذا حل بي ؟ لماذا كان يجب ان افقد اعصابي ؟

المتهم السياسي الثاني : لم يكن هناك موجب . لا تفسر تصرفاتك بقوانين جبرية لا توجد . كفانا خداعاً للنفس . فقدت اعصابك وتصرفت بحماقة. هذا

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

هو كل شيء لماذا لا تعترف به ببساطة ؟ (يقلب قطعة الخبز والبصلة بين يديه)

المتهم السياسي الثالث : اشعر اني يجب ان اعتـــذر عن انفلات اعصابي هكذا . لا أدري أي عنصر هزلي تقمص ذلك المسخ الغريب . كان باستطاعـتي ان اموت ضحكاً . اليس هذا محزناً ؟

المتهم السياسي الثاني : بودي ان اعرض عليكما اقتسام الغنيمة . انها اشيـاء تافهة ، خبز وبصل ، ولكنها بعد تصفية الحساب ، طعام بشري يؤكل . (يبدأ بتقسيم الخبز والبصل بينهم . المتهمان السياسيان الآخران يراقبانه بفضول) .

المنظـــر الثاني

(في القفص ثانية ، بعد فترة غير معلومة . الاضاءة داكنة ، حمراء زرقاء ، تشابه ساعات الصباح الاولى. تنتشر على الارض اوراق واشياء مهملة كثـيرة لا يمكن تمييزها .

المتهمون السياسيون الثلاثة نزعوا رؤوس الحيوانات وتشاهد هذه الرؤوس في بعض الزوايا وقد تجعدت . المتهمان السياسيان الثاني والثالث بلا ذنب ايضاً .

وجوه المتهمين قذرة كالحة بلحى مشعثة ، وهيئاتهم الرثة تدل بمجملهـا على التعاسة والعزلة الطويلة .

المتهم السياسي الاول يجلس منزوياً في ركن مظلم نسبياً من القفص منكمشاً على نفسه طاوياً رجليه الى صدره . يضطجـع قربه المتهم السياسي الثالث ، بينما يتمشى المتهم السياسي الثاني ببطء . لا اصوات حيوانات تسمع ، سكون تام خلال المنظر كله).

المتهم السياسي الثاني (صوت جامد بلا نبرات،الحديث غير موجه الى احد): لا أخفي امراً عظيماً لو قلت اني كنت سجينـــاً حين كنت في ذلك السجن الرهيب ، قبل فرارنا السعيد . كنت محتجزاً بين جدران اربعة . غير ان هـذا لم يكن الشيء الرئيسي . لا يجوز ان يكون الشيء الرئيسي . ذلك ان التقييد النفسي والعاطفي هو السجن . ان يركبوا على كتفيك في اليقظة والمنام وان يعتصروا قلبك ليل نهار . (يتوقف قليلاً وينظر من خلال القضبان الى الحديقة) رائحة الهواء تتغير حالما تخرج ارنبة انفك من بين هذه القضبان . (يعاود السير ببطء) .الا أنهم لا يستطيعون عمل شيء تجاهك حين تكون محتبس العواطف، حين تكون بارداً مثل الحديد وغير ذلك . اعني اذا وصلت الى مرحلة تشابـه هذه بشكل من الأشكال . انهم لن يلجأوا الى تقييدك . لن يكونوا اغبيـاء الى هذه الدرجة . ما نفع قطعة قماش رثة ؟ وما ضررها ، اذا جئت من الناحية

المعكوسة للموضوع ؟ اما عواطفك ، فلن يهتموا بها كما هو متوقع تماماً . هـذه مسألة شخصية بحتة . ماذا يهم ان تكون لك عواطف من نوع معين او لا تكون؟ لا تستطيع ان تعرضها مثلما تعرض النساء اجسادهن . اذن ..

المتهم السياسي الثالث (مقاطعاً) : قل لي ، هل مر ذلك الشخص السخيف الذي اعتاد ان يرمينا بالجوز ؟

المتهم السياسي الثاني (بلا مبالاة) : غداً ، هو موعد زيارته .

المتهم السياسي الثالث : اشتهي جوزة مقشرة . قطعة صغيرة من لب الجوز . انها تجعل طعم فمي مقبولاً .

المتهم السياسي الثاني (يحك جلده) : لم يخطر لي ان اشتهي الجوز يوماً . احببت الفواكه دائماً . الموز والبرتقال ، اذا اردت ان تعلم . اما المكرزات فلم احمل فكرة وجودها في معدتي .

المتهم السياسي الثالث : اعتقد ان من العسير عليك ان تفسر سبب كل هذا .

المتهم السياسي الثاني : نعم . هنالك اشياء كثيرة لا معنى ولا سبب لها ، ولست مسؤولاً عن تفسيرها . (يتوقف قليلاً . يحك جلده) . هل تتذكر تلك الفتاة الشقراء التي رأيتها معي في احد الأيام ؟ لم انل منها شيئاً . طبعاً . ماذا تتوقع من فتياتنا الغبيات ؟ لكني لم اعلم حقاً لماذا لم اتزوجها وانجب اطفالاً وامت بينهم كما يموت الجميع ؟ لا تسلني تفسيراً . زجرتني بشدة لانها لم تجد سبباً يدعوني ان آكل موزة قبل تناول الغذاء . اعتقد انها كانت عذراء .

المتهم السياسي الثالث : ليس من حق النساء ان يفتشن عن الاسباب .

المتهم السياسي الثاني : اليس كذلك ؟

المتهم السياسي الثالث : كانت جميلة ، صاحبتك هذه ، اذا لم تخني الذاكرة . مالك تحك جلدك هكذا ؟

المتهم السياسي الثاني : ليس هنالك من يحكه لي . ثم .. (فترة صمت) هل لديك طريقة اخرى لحك الجلد ؟ (يقف قرب القضبان ناظراً من خلالها الى الخارج) الهواء بارد رطيب في الخارج . (يعاود المسير) انني محتبس العواطف ، ولست سجيناً . هل تظننا سنموت عن قريب ؟

المتهم السياسي الثالث : لا اعلم ان هناك وسيلة لمعرفة ذلك .

المتهم السياسي الثاني : لكنك لا تبدو لي يائساً .

المتهم السياسي الثالث : كلا . لم تتوفر بعد كل شروط اليأس .

المتهم السياسي الثاني (معاوداً سيره وحك جلده) : قبل يومين او ثلاثة .

(لحظة توقف) . . لعله كان منذ اسبوع او اقل بقليل ، ام ان شهراً قد مضى عليه ؟ رأيت حلماً جميلاً . واليوم تذكرت حادثة طريفة وقعت لي منذ سنوات . اراد شخص ان يقرضني مبلغاً من المال اتزوج به . لا ادري لماذا كان يكرهني هكذا .

المتهم السياسي الثالث : اعتقد انك تصلح للحياة الزوجية .

المتهم السياسي الثاني : لماذا ؟

المتهم السياسي الثالث (مشيراً بيده اشارة مبهمة) : شيء ما في مظهرك لا يوحي بالثقة .

المتهم السياسي الثاني : لأني احك جلدي هكذا ؟

المتهم السياسي الثالث : ربما . هل تظنني سفيهاً لاني اشتهي جوزة صغيرة مقشرة ؟

المتهم السياسي الثاني : يوم ماتت والدتي ، انتميت الى الحزب . دونت في طلب الانتماء أني كاتب قصصي .

المتهم السياسي الثالث : ألم تجد أسخف من ذلك ؟

المتهم السياسي الثاني : شعرت ان ليس من حقهم ان يسألوا عن مهنتي وانا الذي اقدم لهم دمي . كنت مقتنعاً اني سأفقد حياتي مدافعاً عن فكرتي . (يحك جلده بقوة) هل تظن ان القمل يسبب مرضاً ما ؟

المتهم السياسي الثالث : نعم ، ولكنني لا اتذكره . انه مرض غير مميت على كل حال .

المتهم السياسي الثاني (يعود الى سيره البطيء) : كانت اخبارهم سيئة اليوم . سيئة أكثر من اي وقت مضى .

المتهم السياسي الثالث : هل مرّ الثرثاران هذا الصباح أيضاً ؟

المتهم السياسي الثاني : نعم . (لحظة توقف) كلا . لمَ تظن ان ثرثاريك الاحمقين هما وحدهما اللذان يثرثران ؟ هنالك كثيرون غيرهما . الكل يشكو ويتكلم ويثرثر . انهم يفرغون محتويات ادمغتهم الواعية واللاواعية امام هذا القفص المقدس . كأنهم يظنونني مؤرخاً .

المتهم السياسي الثالث : عيبك هو الانصات كثيراً لما يقال .

المتهم السياسي الثاني : ولكن الأمور لا تجري معك كما تجري معي . نحن في قارب واحد .

المتهم السياسي الثالث (مقاطعاً) : قارب بلا دفة .

المتهم السياسي الثاني : لا يهم . نحن معاً في هذا القارب التعس ، ولكننا

نعيش زمنين مختلفين .تذكر هذا . ان ديمومتنا لا تمضي بالسرعة نفسها . انا قد اموت امامك خلال ثانية واحدة لو تأكدت ان الناس هناك يعيشون كبشر .. كبشر أتفهم ؟ (مشيراً الى الأفق) .

المتهم السياسي الثالث : تموت حسداً .

المتهم السياسي الثاني : القمل يفهمني أكثر منك . هل تبادلني الجلد ؟

المتهم السياسي الثالث : انا مطمئن في جلدي .

المتهم السياسي الثاني : اوقع بنا وبقي ان نعلم هل نحن في أفضل مكان ؟

المتهم السياسي الاول (صوت اجش جداً) : نحن كذلك .

المتهم السياسي الثاني (لا يسمعه) : الاجابة تروعني .

المتهم السياسي الثالث (يعتدل في جلسته) : قرأت مرة او ربما سمعت ، ان المسيحيين في زمن الرومان كانوا يموتون سعداء بين انياب الاسود .

المتهم السياسي الثاني : اولئك المؤرخون التعساء ، نقلوا الينا كل شيء الا الحقيقة . لماذا يجب ان يموتوا سعداء والناس فرحون من حولهم ؟ قل لي سبباً يمكن ان اقبله وانا بحالتي العقلية الحاضرة . ولكن ، اعطني بشراً يموتون حرقاً، كي اتمتع بالانتحار بحبوب منومة .

المتهم السياسي الثالث : حبوب منومة والناس يحترقون؟ لا تطلب مني هذا، فتش لي بالأحرى عن لب جوز بين ثنايا جلدك .

المتهم السياسي الثاني : أمس ، لم يتكلموا عن احوالهم المعاشية ولا عن صحفهم المغلقة او احبائهم الغائبين . امس تحدثوا برعب عن الغد ، الغد الذي لا يعلمون ما سيجلبه لهم .

المتهم السياسي الثالث : وانت لذلك سعيد كما يجب .

المتهم السياسي الثاني : انا محتبس عاطفياً . قلت لك هذا من قبل . لا تدعني أكرر ما قلته خلال وجبة كلامية واحدة . انا محتبس عاطفياً ويبدو لي من كلامك السخيف انك ايضاً اقرب الى هذه الحالة من غيرها . اذن ، لا مجال امامنا للسعادة او الشقاء . هنا ، افهم هذا جيداً ان امكن ، هنا والآن ، نحن نرتفع او ننخفض الى مستوى فكرة السعادة ... فكرة السعادة .

المتهم السياسي الثالث : ماذا يعني هذا او ذاك ؟

المتهم السياسي الثاني (مشيراً بيده الى المتهم السياسي الأول والى الفضاء الخارجي في حركة دائرية) : لا شيء بالتحديد وكل شيء في بعض الأحيان . لن تفهم .أنت تفتش عن قطعة جوز . لبة جوز صغيرة تجعل فمك ذا طعم

مقبول . وكل هذا يعني انك لا تيأس . لن تيأس لعنة الله عليك ، وانك سعيد مثلي . انت سعيد فكرياً .

المتهم السياسي الثالث : لا تجهد نفسك كثيراً . ما تريد ان تقوله هو انني قانع بحالي وسعيد بها . حسناً ، انا لا جواب لدي عن كل هذا . فتش لي عن جوزة او ما أشبه من المكرزات . لا داعي ان نعيش بفم خبيث الطعم . قل لهم ذلك ان اردت .

المتهم السياسي الثاني (يتلفت) : لمن ؟

المتهم السياسي الثالث : لا يهم . كلهم سواسية .

المتهم السياسي الثاني (منكفئاً عنه الى خارج القفص ناظراً الى الأفق) : بودي ان اكتب شيئاً ما يدور في نفسي هذه الأيام . ان احلامي جميلة أكثر من المعتاد وذكرياتي طرية دائماً ومشوقة . وانا احاول في بعض الأحيان ان احصر ذهني في الشيء الذي انتظره . ان مجرى الأمور يدل على اننا ننتظر شيئاً ، امراً معيناً ، وأخشى ان يكون هذا المجرى خدعة كبرى . (يتنهد عدة مرات) أمس رأيت حلماً . كنا منتصرين بلا نصر ، اغنياء بغير ثروة او مال ، فرحين بلا سعادة . وكانت والدتي بجانبي تطعمني الموز وتلك الشقراء تحك لي جلدي . (يحك جلده فجأة)

http://Archivebeta.Sakhrit.com

المتهم السياسي الثالث : مرحباً بالقمل اذن .

المتهم السياسي الثاني (مستديراً) : قلت مرة لاستاذ الفلسفة ، ارني شيئاً أبدأ به الحياة . فضحك بغباء ولم يجبني . وعلمت بعد ذلك انه متزوج حديثاً من احدى تلميذاته الجميلات وانه قد جن بعد ان انجب منها عدة اطفال .

المتهم السياسي الثالث : اعطني جوزة أبدأ بها الحياة انا الآخر .

المتهم السياسي الثاني : الست مجنوناً ؟ لماذا تظنني اخبىء عنك الجوز طيلة هذه الفترة ؟

(المتهم السياسي الاول يقوم ببطء من زاويته ويسير حذاء القضبان وهو محنّي الظهر . لا يبدو على الآخرين انهما قد رأياه . يصل الزاوية المقابلة فيجلس فيها منكفئاً على نفسه).

المتهم السياسي الثالث : وجدتك تتكلم بطلاقة وتتمشى كثيراً فخطر لي ان لديك عسر هضم .

المتهم السياسي الثاني : كلا ، انك مخطىء يا سيدي . ان حالتي لا توصف بعسر الهضم . كما انها ليست ازمة فكرية او نفسية . دع عنك العواطف

واختلاطاتها الاخرى . ان شكوكي تحوم منذ مدة حول تشخيص غريب غير مسموع من قبل ولا رواه احد . انني اولاً وكما اخبرتك (يحصي باصابعه) محبوس عاطفياً . أي ان عواطفي بمجموعها قد انكمشت داخل نفسها وتضاءلت رويداً رويداً ثم تداخلت فيما بينها مبتلعة الواحدة الاخرى حتى صارت في تشكيلها النهائي مثل ..

المتهم السياسي الثالث (مقاطعاً) : مثل جوزة مقشرة .

(يتوقف المتهم السياسي الثاني عن الكلام ناظراً الى المتهم السياسي الثالث ثم يخفض يديه الى جانبه وينخفض ظهره قليلاً خلال الفترة الزمنية اللاحقة . لحظات صمت).

المتهم السياسي الثاني (منشداً الى غير احد ، مستديراً بين هنيهة واخرى نحو الأفق) :

قل لمن يبكي على رسمٍ درَسْ واقفاً ما ضرّ لو كان جلس

المتهم السياسي الثالث : شكسبير ؟

المتهم السياسي الثاني :

قل لمن يبكي على رسم درس واقفاً ما ضر لو كان جلس

المتهم السياسي الثالث : شارلي شابلن ؟ (المتهم السياسي الثاني يمسك بالقضبان متطلعاً الى الخارج) لا مجال لمحاورة ثقافية كما يبدو . ومع ذلك تراهم يتشدقون كل يوم بالمساواة والعدالة . (يرتفع نحيب المتهم السياسي الاول وهو يخفي رأسه بين ساقيه . عويل متصل لا حياة فيه يستمر حتى نهاية المنظر).

المتهم السياسي الثاني (مستديراً غير ناظر الى احد او الى اي شيء معين):

قل لمن يبكي على رسم درس واقفاً ما ضر لو كان جلس

المتهم السياسي الثالث : بودي ان اقول اني افهم شيئاً من كل هذا الضجيج . ولكني لست في حال تسمح لي بان اخادع احداً . لقد سألوا عن اليأس كي يبدأوا العمل ولم يكن لدي جواب لهم .

المتهم السياسي الثاني (معاوداً وقفته الاولى وهو يمسك القضبان ممتد الذراعين الى الأعلى):

قل لمن يبكي على رسم درس واقفاً ما ضر لو كان جلس

المتهم السياسي الثالث : هل سأكون آخر من يرى ويسمع ؟ آخر من رأى وسمع ؟

المتهم السياسي الثاني :

قل لمن يبكي على رسم درس واقفاً ما ضر لو كان جلس

(يسمع وقع اقدام ثم يبدو السكير في مثل هيئته الاولى . يقترب من القفص حاملاً خبزاً وبصلة ويقف ثم يبدأ بالصفير وبتحريك يديه وعضلات وجهه حركات غريبة غير مفهومة).

المتهم السياسي الثالث : اخيراً ، اخيراً ، اخيراً .

المتهم السياسي الثاني (غير ملتفت الى السكير . صوت عالٍ نسبياً يشابه الصراخ) :
قل لمن يبكي على رسم درس واقفاً ما ضر لو كان جلس

(يتكلم السكير بلغة مختلطة لا يفهم منها أي شيء وهو يشير بيديه وحركات جسمه ووجهه اشارات غامضة موجهاً الحديث الى المتهم السياسي الاول الذي ما يزال على نحيبه . يتوقف السكير لحظات يبدو فيها منصتاً أشد الانصات وكأنه ينتظر جواباً . ثم يعاود اصدار الاصوات وابداء الاشارات) .

المتهم السياسي الثالث : اخيراً ، اخيراً ، اخيراً .

المتهم السياسي الثاني :
قل لمن يبكي على رسم درس واقفاً ما ضر لو كان جلس

(ينزل الستار اثناء انشاد المتهم السياسي الثاني وكلام السكير المختلط ونحيب المتهم السياسي الأول)

النهـــاية

(بغداد ، ١٩٦٩)

عفيف فراج

٢٣ يوليو : اصلاح لا ثورة

وسط الوعي الحاد بضرورة التغيير تصبح الثورة مرتبطة في اذهان الكثيرين ارتباطات عاطفية مزاجية مبهمة قد تعني أي شيء عدا تحرير اليد العاملة والعقل البشري المفكر وهو في التحليل الأخير المضمون الحقيقي للثورة. والثورة المحرّرة هي الثورة الاشتراكية بالضرورة ، وهي الاشتراكية التي اجتازت مراحل الطفولية الطوباوية ومخاض الفكر اليميني الاقتصادي الاصلاحي الذي كان يحسب نفسه عليها — وما يزال [1]، وهي الاشتراكية التي اجتازت مراحل التمرد الفردي الفوضوي العدمي الذي يدمر الذات حيث يقصد تدمير العالم القديم كما اجتازت العفوية التي تنتهي الى الوقوف حيث يتعبها الدوار . انها اشتراكية ماركس — انجلز — لينين العلمية .

يشير انجلز ومن بعده لينين ، الى ان الاشتراكية « منذ غدت علماً تتطلب ان تُعامَل كما يعامل العلم اي تتطلب ان تُدرس ثم توضح وتعطى للجماهير [2] » . وتقييمنا لثورة ٢٣ يوليو او أية حركة سياسية اخرى لا بد من أن يصب خارج الدائرة الماركسية ان لم يرتكز على الأسس العلمية التي ارساها مؤسسوها استناداً الى واقع تجربة تاريخية خصبة . ولكي نكون في موقع المصارحة التي تفصّل الكلمة على حجم الواقعة ، لا بد من القول ان الحقيقة الثورية فيما يختص بثورة ٢٣ يوليو وامثالها ، ما زالت محجوبة عن الجماهير بفعل قوى ثلاث :

---

١) من ممثلي هذا الفكر كاوتسكي وبرنشتين وبليخانوف وورثتهم من الشيوعيين الاصلاحيين .

٢) لينين : الدولة والثورة .

قوى البورجوازية الصغيرة الحاكمة في الانظمة (التقدمية) بكل ما تملكه هذه من مدفعية دعائية ديماغوجية مضللة . وقوى اليمين الرجعي التي تستغل ادعاءات هذه البورجوازية ومزاعمها الاشتراكية لكي تلقي بتركة الهزيمة الثقيلة على كتف الاشتراكية . وتشكل الأحزاب الشيوعية الرسمية المحسوبة على الثورة ثالث هذه القوى حين تدعو الى احباط الهجمة الاسرائيلية الاستعمارية بمساندة الانظمة التقدمية التي ما زالت منتصرة (بحمد الله) لأنها ما زالت صامدة ، بصرف النظر عن الخطوط الدفاعية التي تصمد خلفها ! ولا تخجل هذه الأحزاب من ترديد كليشهات جاهزة عن دور الحزب الطليعي من مواقع ذيلية ، كما لا يحول الحس النقدي الماركسي بينها وبين ترديد كليشهات اخرى عن « التحول العصري من الرأسمالية الى الاشتراكية على النطاق العالمي » في الوقت الذي تتساقط فيه انظمة البورجوازية الوسطية عند اول هزة امبريالية ويضطر الاتحاد السوفييتي ان يحرك قواته في اكثر من اتجاه ليمنع تحول الاشتراكية الى رأسمالية على النطاق العالمي ،وليحمي (المكتسبات الاشتراكية) في تشيكوسلوفاكيا و(التحولات التقدمية) في انظمة البورجوازية الصغيرة المتهافتة . ان ترديد الكليشهات هو الأسهل دائماً على الفكر العقيم العاجز عن استيعاب التجارب التاريخية على تكررها ،والعين الماركسية الناقدة هي الوحيدة القادرة على ايصال الحقيقة الى الجماهير ، عارية من الاعتبارات البيروقراطية والطبقية الانانية ، التي تقف على أرض من المصالح الذاتية تضطر معها ان تلوي عنق العقيدة لتلائم بين هذه المصالح الذاتية والممارسة اليمينية . ان اعتبار انظمة البورجوازية الصغيرة وثورة ٢٣ يوليو أنظمة اللحظة التاريخية الراهنة بعد ان كشفت الهزيمة كل مؤسساتها الطبقية وبعد ان كشفت وقائع ما بعد الهزيمة عن استجابة بورجوازية غير شعبية لها ، يعتبر تجاهلاً لهذه الحلقة الأخيرة في سلسلة التجارب التي مرت بها هذه الانظمة في العراق واندونيسيا وغانا ومالي ، وانقياداً سهلاً لديماغوجية البورجوازية الصغيرة بعد ان انقادت لها سياسياً .

٥ حزيران ، الضوء الكاشف

قبل الهزيمة كانت تبدو دولة البورجوازية في مصر بجهازها العسكري منيعة قادرة كالقدر . وكانت آلتها القمعية السرية (المباحث) تبدو كأنها قد سخرت

كل قوى الغيب لتكشف ما يلد ، وما لم يولد بعد ، من حركات مناهضة . وكانت أجهزة رصدها تسجل اضعف الاهتزازات ، ثم جاءت النكسة لتكشف اول ما تكشف ، ان هذه القدرة على ضبط الحركة في الداخل ، يقابلها عجز كامل وجهل تام بطبيعة وقدرة القوى الامبريالية المعادية للشعب في الخارج . ولئن دل هذا على شيء ، فهو لا يدل على مناعة العدو العسكرية واستغلاق اسراره على اجهزة البورجوازية العربية ، وانما يدل على ان عيون هذه البورجوازية كانت مركزة على دائرة مصالحها وامتيازاتها ، وأن أجهزة مراقبتها كانت ترصد المنطقة التي كانت هذه البورجوازية البيروقراطية العسكرية تتوقع ان يبدأ الهجوم منها على هذه المصالح والامتيازات ، وهي منطقة الجماهير الشعبية . وهكذا ، بدل ان يأتي الهجوم من جهة الشعب ، جاء من الجهة الامبريالية ، متخطياً كل الحسابات الديماغوجية فكان ما كان . وكانت مفاجأة الجماهير الشعبية المعطلة اضعاف مفاجأة الحكام . فقد فاجأت الهزيمة هذه الجماهير وهي مكتوفة الأيدي مطمئنة في معظمها للمصير الذي وضعته في ايدي الابطال الذين « جاؤوا مع القدر » . ان الجماهير التي خرجت مساء ٩ حزيران، لم تخرج بدافع المبايعة للزعيم ، وانما لتعلن رغبتها في استمرار القتال ، ولتلفت النظر لهذه القدرة المعطلة التي كانت مهيأة لصراع لم تُعدّ له فكانت مظاهرتها الرائعة اشارة لسلاح رهيب معطل هو الجماهير التي وقفت وحدها منتصرة — في تلك الليلة — بارادتها على الاقل ، ولم تقبل الهزيمة التي قبلها النظام . كانت الجماهير تطالب بالسلاح لحظة كان اهل النظام يتصارعون فيما بينهم ، ليقرروا من يكون كبش الفداء ومن يكون حامل السكين . حقائق أولية بدائية لها هي كذلك بداية .

حكاية البورجوازية الصغيرة باسلوب ماركسي

ان الذين يحرصون على عدم محاسبة نظام ٢٣ يوليو حساباً اشتراكياً دقيقاً ، يعودون بنا الى « براءة » الانقلابيين « النظرية » اي عفويتهم ليقرروا انه لا تجوز محاسبتهم بمقاييس وأحكام ماركسية . اننا لسنا هنا امام محكمة عادية تأخذ بالأسباب التخفيفية ، وانما نقف امام ملايين الجماهير التي تعاني معاناة لا تسمح باستمرار مثل هذا التفكير الذاتي الذي يرشح بالعواطف الكريمة . ان القول ببراءة الضباط النظرية وحيادهم العقائدي هو في ذاته شهادة ادانة دامغة.

اذ أن الوعي القائم في ذهن الانسان ليس مستمداً من اللا"مكان ، وبل من البيئة الاجتماعية الطبقية المحيطة . والمناخ الاقطاعي الرأسمالي السائد في المجتمع المصري وغيره من المجتمعات المتخلفة هو مناخ يميني رجعي بالضرورة ، وفيه ينتشر خليط فكري يميني يتراوح بين الغيبيات التي تعود جذورها الى ما قبل التاريخ ، والأفكار الاصلاحية المستوردة من الفكر الليبرالي الغربي ، والذي وصلت مؤثراته الى ابناء البورجوازية الصغيرة ، الذين تمكنوا من الافلات من الحصار الطبقي المحكم على الطبقات الشعبية ، وتسللوا الى الجامعات والكليات العسكرية ، وليس هناك بالتالي ما يسمى بالحياد الفكري . فاما ان يفك الوعي الثوري حصار الفكر اليميني السائد في البيئة الاجتماعية الطبقية ، واما أن يسقط في شباك هذا الفكر بمنتهى العفوية . « فلا حركة ثورية بدون نظرية ثورية » * وقد بدأت نتائج هذه البلبلة الفكرية تظهر منذ الأيام الأولى للانقلاب حين يمم الانقلابيون شطر الولايات المتحدة طلباً للدعم والمعونة ، وهي في اعتبارهم — وباعترافهم — زعيمة العالم الحر . وكان ذلك اول الطريق نحو التجريبية والانتهازية الاقتصادية والتذبذب الذي كان يميل دائماً لمصلحة الغرب في النهاية .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وقد اتضح منذ البدء اتجاه هذا النظام للاعتماد على مصادر خارجية للتنمية بدعوة رأس المال الاجنبي ، وتشجيع رأس المال المحلي ، والاعتماد على القروض وافتراض حسن النية في « المصرف الدولي » ؛ وهو اعتماد حدد منذ البدء وجهة سير النظام المخالفة للخط الجماهيري الذي كان يفرض الاعتماد على الجماهير وتحرير طاقاتها الانتاجية المكبلة ، وتوظيفها في بناء قاعدة صناعية انتاجية ثقيلة تحقق الاستقلال الاقتصادي وتنهي البنية الاقتصادية الاستهلاكية التي اقامتها الامبريالية لتبقي البلدان المتخلفة تابعة لها . ان تغييراً ثورياً على هذا المستوى يتطلب وضوحاً نظرياً ثورياً على مستوى رفيع ، يدرك العلاقة الوثيقة بين الاستعمار والتخلف ، ويحدد القوى الطبقية المنتجة التي يتوقف قهر التخلف على تحريرها ، كما يحدد طابع البنية الانتاجية التي تحررها ؛ وهو وضوح لم تكن البورجوازية الصغيرة بتطلعاتها الطبقية تملكه منذ البدء . وهذا الوعي لا يتوفر الا لحزب يحمل عقيدة الطبقة العاملة ويمثل مصالحها المتناقضة

* حتى الآن لم يقل الشيوعيون بوجود فكر « لا يميني » كما قالوا « بالتطور اللارأسمالي » .

بالضرورة مع بنية الانتاج القائم على الملكية الفردية للأرض ورأس المال التجاري. ومن هنا بالذات تنبع صحة المقولة اللينينية « لا يستطيع ان يقوم بدور مناضل الطليعة الا حزب الطليعة » . وتجدر الاشارة هنا الى ان الاتجاه الى التأميم لم يأتِ الا بعد يأس البورجوازية الصغيرة من انتظار نزول رأس المال الأجنبي والمحلي الى ميدان الانتاج . ولا تعني التأميمات في ذاتها تحولاً نحو الاشتراكية . فلا تكون للتأميم صفة التحول الاشتراكي الا اذا كانت السلطة السياسية بيد الطبقة العاملة [١] .يقول شارل بتلهايم في كتابه التخطيط والتنمية:

« ولا تكفي ملكية الدولة لبعض وسائل الانتاج بالطبع ، لتمييز التطور نحو الاشتراكية ، وإلا تعيّن اعتبار التأميمات البورجوازية بداية تطور نحو الاشتراكية في حين انها ليست الا وسائل لتدعيم السلطة الجماعية للبورجوازية . » وفي جهاز الانتاج كما في الجهاز العسكري لم تراعَ الكفاءة العلمية والفنية وانما اعطي عامل الاخلاص للنظام الاعتبار الاول وهو اعتبار طبقي صرف يتناقض مع مصالح الجماهير العريضة . فقد دخل كبار العسكريين الأميين اقتصادياً وثقافياً وفنياً ، الى مراكز ادارة الانتاج. ووسط تذمر العمال والفنيين من سوء الادارة وفسادها اصدر محمد حسنين هيكل فتوى في الموضوع ، عكست هاجس النظام وحساسيته الطبقية . فقد كتب هيكل في صحيفته عام ١٩٦١ : « ان الثورة في هذه المرحلة بحاجة الى الاخلاص اكثر من حاجتها الى الكفاءة»، وهذا التبرير يكشف وعي هذه الطبقة لمصالحها الخاصة التي تعمل بوحيها وتضعها فوق سلامة سير الانتاج في قطاع يفترض ان يكون للشعب . وكان التمسك بحبل « الاخلاص » سائداً في جميع القطاعات ، ومن بينها القطاع العسكري . وبين الكارثة الوطنية التي نزلت بالأمة في الخامس من حزيران وهذا « الاخلاص » رابطة وثيقة . فليس اخلص للنظام من اهله ، واهله مخلصون لمصالحهم .

ان « دولة كل الشعب » التي تبجحت البورجوازية المصرية بانشائها لم توجد تاريخياً بعد . فاما ان يكون الحكم بيد الطبقة العاملة او بيد الطبقات المعادية والخلط بين الاثنتين ديماغوجية لها تاريخ، فما من طبقة تخلت عن مصالحها بكامل ارادتها . وكانت كل طبقة تقيم جهاز دولتها الخاص وآلتها القمعية

---

١) راجع الطبقة الجديدة وشروط بناء الاشتراكية بقلم محمد كشلي ،الحرية ٧-٧-٦٩ العدد ٤٧١.

الخاصة . فلم يكن من الممكن مثلاً ان تقوض البورجوازية المصرية المؤسسة العسكرية التي جاءت على رأسها للسلطة واستبدالها بجيش الشعب المسلح ، لأن ذلك يعني انتحارها كطبقة . وعلى العكس فقد انشأت البورجوازية جهازاً عسكرياً وبوليسياً « ودواوينياً » هائل الحجم « يسد على جسم المجتمع جميع مسامه » على حد تعبير ماركس .

ولكي تكمل البورجوازية الصغيرة تغطية مصالحها الانانية كان لا بد من اقامة واجهة ديموقراطية مزيفة اطلقت عليها اسماء رنانة ضخمة . فقد وصف الاتحاد القومي والاشتراكي من بعده [1] . بانهما يمثلان « تحالف قوى الشعب العاملة » وهذا الشعار اللفظي التضليلي المنتفخ — الذي طرح بفخر كبديل — « لدكتاتورية الطبقة الواحدة » في النظامين العالميين ... كان يتسع « للرأسمالية الوطنية » والبورجوازية الريفية ، ويضيق بالعمال والفلاحين والمثقفين الثوريين، وكان هذا الشعار يغطي — كما هو شأنه دائماً — واقع دكتاتورية البورجوازية الصغيرة والبورجوازية الادارية والعسكرية وهي الطبقة التي يسهل عليها كسب القوة السياسية لتفوق قوتها الاقتصادية . وهكذا جمعت هذه الطبقة الى الدكتاتورية الاقتصادية الدكتاتورية السياسية واحتفظت بقوة « ارهاب احتياطي » يضطرها اليه الوضع الاقتصادي المتخلف العاجز عن انتشال الجماهير من هوة البؤس والجهل. وقد انصرفت هذه البورجوازية البيروقراطية العسكرية المتحالفة مع الرأسمالية الوطنية ، الى جمع الثروات وسط غياب الرقابة الجماهيرية . ان البيروقراطية — وهذه احدى اهم ميزاتها كطبقة — لم تكن تمثل تحالف « قوى الشعب » وانما كانت تنوب عن الشعب ، وتحكم عنه وتتحكم باسمه . اما الميزة الثانية التي تكمل ملامح هذه البيروقراطية ، واية بيروقراطية فانها تتمثل في المرتبات العالية ، التي كانت تتقاضاها الطبقة الادارية ، لقاء سوء ادارتها للقطاع العام . هذه المرتبات التي وصلت الى حدود ٥٠ ضعفاً بالنسبة للحد الادنى للاجور [2] ، الذي يهبط الى ٩٠ جنيهاً في العام بينما يرتفع الحد الاقصى الى ٥٠٠٠ جنيه . ان عدم تفجير قوى انتاجية جديدة (قوى الفلاحين بشكل خاص) يؤدي الى التحالف مع القوى الطبقية القديمة القائمة . ان

---

١) في احدى فتاويه الشهيرة وصف محمد حسنين هيكل التنظيم السياسي المصري بانه يحتوي على مصالح « قد تتناقض ولكنها لا تتصادم » وذلك بقدرة قادر .

٢) ان التفاوت يصل في الاتحاد السوفييتي الى ٩ أضعاف ولا يزيد في كوبا والصين وفيتنام عن ٣ اضعاف .

البورجوازية الصغيرة كانت دائماً اقرب الى البورجوازية الكبيرة منها الى الطبقات الشعبية . وكانت تبرز مخالبها وانيابها الطبقية بعد استلامها للسلطة كما حدث في روسيا عندما انحازت البورجوازية الروسية الصغيرة الى البورجوازية الكبيرة بعد استلامها السلطة عشية ثورة اوكتوبر . فقد انهمكت هذه البورجوازية في تقاسم المناصب والثروات والامتيازات مع هذه البورجوازية . ان ممارسة المنشفيك والاشتراكيين الثوريين الاصلاحيين الاقتصاديين للسلطة السياسية اعطت صورة لممارسات هذه الطبقة . يقول لينين : « ان البورجوازية الصغيرة هي التي تنجذب الى جانب البورجوازية الكبيرة وتخضع لها الى حد كبير عن طريق جهاز الدولة الدواويني والعسكري الذي يعطي الفئات العليا من الفلاحين وصغار الحرفيين وغيرهم مقاعد مريحة وهادئة نسبياً ومحترمة نسبياً تجعل الجالسين فيها فوق الشعب » . ان مؤسسي الماركسية العلمية ماركس وانجلز يؤكدان استحالة بناء نظام اشتراكي ثوري بدون تحطيم جهاز الدولة الذي اقامته البورجوازية لادارة وحماية مصالحها كما يصف لينين اشتراك الوزراء الاشتراكيين في حكومات رأسمالية والذين ابقوا على جهاز الموظفين باكمله كما هو دون تغيير بانه « دعارة سياسية » . لقد بقي الجسد السياسي للنظام المصري يتنفس برئة جهاز الدولة الفاروقي القديم . وهذا الجهاز كان مطية سهلة للبورجوازية البيروقراطية ، وقد اصاب النظام بتصلب في الشرايين ، وحال بمؤسساته السياسية والبوليسية والحقوقية ، دون وصول القوانين والتشريعات الاصلاحية الى القاعدة الشعبية [1] . ان التغيير السياسي لجهاز الدولة لم يتم لعدم اتجاه البورجوازية الصغيرة لتغيير بنية الانتاج الاستهلاكي القائم على الملكية الفردية والادارة الدواوينية . وهذا ما حول عملية وصول هذه الطبقة الى السلطة الى عملية « استبدال » بين البرجوازية الصغيرة والرأسمالية الكبيرة المتحالفة مع الاقطاع . وهذا الاستبدال الطبقي « لا يعني تغييراً في بنية الانتاج الاجتماعي

---

١) كان موظفو التعاونيات يحجبون المخصبات والادوية عن الفلاح الصغير او العامل الزراعي ويخصون بها كبار ومتوسطي المالكين . اما البوليس فكان دائماً مستعداً لتقديم خدماته لكبار المالكين والمضايقات التي تعرض لها الشهيد صلاح حسين قبل ان يقتله الاقطاع بعد ١٥ سنة من « الثورة » تثبت ذلك . والجدير بالذكر ان محاكم القاهرة برأت الفقيه من الجريمة واعادته للريف بكل جبروته وذلك عام ١٩٦٨ . كما كان ملايين الفلاحين يدفعون لمالك الارض المبلغ الذي يحدده هو لفدان الارض المؤجر وكان يبلغ احياناً ضعف المبلغ الذي كانت الحكومة حددته بـ ١٨ جنيه . وكان المبلغ الزائد عن السعر المحدد يسدد بصفته «سلفة» .

اي انتقالا لهذه البنية الى بنية انتاج آخر اشتراكي مثلا ، كما قد يتبادر الى الذهن »[١] . واذا كنا قد حددنا « الثورة » في بدء هذه الدراسة بانها الثورة الاشتراكية التي تحرر قوى الانتاج ، فينبغي تحديد هذه القوى التي تتحدد بدورها بادوات الانتاج . كما ينبغي تحديد السبل التي تكفل هذا التحرير وسلطة الطبقة السياسية التي لها مصلحة في تحقيقه . وهذا يقتضي تحليلا موجزاً لبنية الانتاج في العالم المتخلف ومصر جزء منه .

الملامح الاساسية للبنية الانتاجية التي حددت قوى الانتاج

ان الانقلابات العسكرية التي قامت وتقوم بها البورجوازية الصغيرة في الدول المتخلفة ، اشبه بعمليات قيصرية غير طبيعية ، لتعذر ولادة قوى اجتماعية منتجة بشكل طبيعي ، تستطيع ان تحرك التاريخ من موقعها في الانتاج وذلك لعدم وجود اقتصاد انتاجي في الأصل. ان النظام الرأسمالي انسجاماً مع منطق تطوره الامبريالي، خلق في البلدان المستعمرة طبقة بورجوازية طفيلية تصرف منتجاته ، بدل ان تنشىء نظامها الانتاجي الخاص الذي يضعها في علاقة جدلية تناقضية مع الاقطاع و بناه الانتاجية الاجتماعية ، فتنشىء نظامها الانتاجي على انقاضه ، ويكون اهم ثمار الانتاج الجديد تكوّن طبقة عاملة متماسكة كما حدث في اوروبا . لكن البورجوازية الاستعمارية الوسيطة – بين السوق الرأسمالية العالمية والسوق المحلية ، والاستهلاكية – لانها لم يكن بامكانها ان تكون منتجة وهي التي تكونت في ظل الهيمنة الاستعمارية المباشرة ، فانها لم تجد نفسها في تناقض مع الاقطاع لانها لم تكن محتاجة لتحرير القوى الفلاحية المنتجة المكبلة على أرضه لتوظيفها في الصناعة . وهكذا تعايشت الطبقتان في بنية اجتماعية واحدة تواجد فيها الاثنان في مواقع استغلالية وضعت الجماهير الشعبية – بما فيها البورجوازية الصغيرة – في وضع تناقضيّ معها. يقول الدكتور مهدي عامل في دراسته العلمية «الاستعمار والتخلف» :

« اما علاقات الانتاج الكولونيالي ، فلم يكن تكونها تحقيقاً لضرورة تطور القوى المنتجة داخل اطار الانتاج السابق للاستعمار ، بل كان تكونها ، تحت تأثير العنف الاستعماري الهدام ، يسدّ امام تطور هذه القوى المنتجة افق

١) الاستعمار والتخلف، نظام الانتاج الكولونيالي ، مهدي عامل، مجلة «الطريق» عدد ٥ .

التطور الرأسمالي ، بتوجيهه في افق التبعية الاستعمارية » . ووسط دوران هذا الاقتصاد التبعي بالضرورة في حلقة مفرغة ينتشر ضمن دائرتها البؤس والجهل والمرض – وهي حوافز التغيير الكبرى – ووسط غياب قوى فلاحية واعية منظمة في اطار حزب ثوري ، ووسط الوجود العددي الضعيف للعمال ، عرفت دول العالم الثالث الولادة القيصرية التي قام بها ابناء البورجوازية الصغيرة من مواقع القوة العسكرية وكان هؤلاء هم الاقدر على الحركة بحكم المراكز العلمية والعسكرية التي تمكنوا من احتلالها في اطار النظام القديم . وقد واجهت هذه البورجوازية البنية الانتاجية الممسوخة التي اقامها الاستعمار دون ان تعي بفكرها الليبرالي الاصلاحي العلاقة الوثيقة بين ازدهار الاقتصاد الاستعماري، والتخلف الاقتصادي السائد ، نتيجة لتبعية السوق المحلية المستهلكة للسوق الرأسمالية المنتجة . وبالتالي فان الأفكار والتطلعات البورجوازية لابناء هذه الطبقة ، لم تجعلهم يتجهون لتغيير جذري لبنية الانتاج التبعي بتحرير قوى الانتاج في الريف وتحويلها الى بناء قاعدة صناعية انتاجية ثقيلة تكسر الارتباط بالسوق الامبريالية ، وتعبىء الشعب في تنظيمات سياسية عسكرية ، استعداداً لمواجهة ردة الفعل الأمبريالية . وعلى الرغم من ان البورجوازية المصرية اصطدمت بالعدوان الاستعماري المسلح حول تأميم السويس، فقد استمرت تواجه الامبريالية بنفس العفوية والتذبذب بدل ان تنشىء جيش الشعب المسلح [1] . ان المصالح الاستهلاكية لهذه الطبقة وضيق افقها العقائدي واخلاقيتها الاقتصادية النفعية كانت تشدها دائماً باتجاه الامبريالية ،فالبنية الانتاجية والطبيعة السياسية للطبقة المسيطرة التي تدير هذه البنية هي التي تحدد نهجها وممارساتها السياسية . ان جيش الشعب المسلح تنشئه الطبقة العاملة لحماية مكتسباتها ، ولا يمكن ان تنشىء البورجوازية جيش الشعب لحماية مكتسبات البورجوازية ، وانما تنشىء جيشاً قمعياً محترفاً يسلط آلته القمعية فوق رأس الجماهير ، مقابل امتيازات سياسية ومادية يوفرها له نظام « تحالف قوى الشعب العاملة » . ان هزيمة ٥ حزيران اسقطت جميع هذه الأقنعة الطبقية التي تمركزت البورجوازية الصغيرة خلفها . وانسياق الشيوعيين وراء تحليلات هذه البورجوازية [1] بدل

---

١) في هذا المجال منع النظام التدريب العسكري لطلاب الجامعات والثانويات بعد المظاهرات الاخيرة .

٢) يتبنى الشيوعيون الادعاء الديماغوجي القائل بان الهدف من هجمة ٥ حزيران الاستعمارية كان اسقاط «الانظمة التقدمية» .

مرافقة الحركة الجدلية ، يعتبر مشاركة منهم في « ستر عورة هذه البورجوازية بأجسادهم » . واذا كنا نتبنّى مفهوم لينين عن الحرب بانها « امتحان لجميع قوى الأمة من اقتصادية وتنظيمية » فمن هي هذه القوى البائسة اقتصادياً ، المبعثرة تنظيمياً ، والغائبة سياسياً ، التي فاجأتها الهزيمة وهي مكتّفة جاهلة مستغلة ؟

ان قوى الانتاج وتطورها تتحدد بادوات الانتاج التي يستخدمها البشر لتحصيل اسباب معيشتهم المادية . وفي بنية اقتصادية متخلفة ، تشكل « الأرض » الأداة الرئيسية للانتاج ويشكل الفلاحون اكبر قواها الانتاجية (لضعف الحلقة الصناعية كما هي الحال في مصر وانعدامها في بلدان اخرى اكثر تخلفاً) وبالتالي، فان تحرير هؤلاء الفلاحين الذين تبلغ نسبتهم في مصر ٨٠ بالمائة من مجموع السكان ، يكون المقياس الثوري الأهم لمنجزات النظام الاجتماعية . ان هذا التحرير لا يكون ممكناً إلا بتغيير البنية الانتاجية الحاضرة التي يغلب عليها الطابع الاستهلاكي وتحويلها الى بنية انتاجية تكسر حلقة الملكية الفردية الضيقة وتقضي على الهيمنة الادارية الفاسدة بكل جهاز دولتها القمعي ، الذي كان يشكل في مصر اكبر وجه للنفقات التي كانت تجمع من انتاج الشعب بالاضافة الى تبذير المدخرات التي كان يحققها القطاع العام لاغراض الترف ، بدل توظيف هذه الرساميل المهدورة في حقل الانتاج – وفي اطار هذه البنية الانتاجية الجديدة يمكن ان يتم القضاء على تبعثر الفلاحين الاجتماعي ، بتجميعهم فوق الأرض المملوكة جماعياً . وهذا التجميع بالاضافة الى انه يزيد من انتاجية الأرض ، يسهل تثقيف الفلاحين ، وايقاظ وعيهم ، وصقل حواسهم ، وتعبئتهم في تنظيمات سياسية عسكرية . وفي اطار هذه البنية الاشتراكية بالضرورة ، تقوم علاقة تكامل اقتصادي بين الصناعة الانتاجية الثقيلة والزراعة بحيث تزود هذه الصناعة الريف بالآلات الزراعية ، وتمتص منه فائض القوى الانتاجية المحررة التي بقيت طيلة سبعة عشر عاماً من عمر « الثورة » تعيش باغلبيتها وضعاً من البطالة المقنعة ، والاستغلال المقنع ؛ وضعاً من البؤس المادي والعقلي يجعلها في حالة من الشلل والغياب الكلي عن الوجود الانساني النوعي . ان ارقام منجزات الخطة الخمسية تشير الى عجز البورجوازية الصغيرة حاضراً ومستقبلاً عن تحرير هذه القوى . فخطة التنمية ١٩٦٠–١٩٦٥ لم تزد عدد العاملين في الصناعة الى اكثر من ٣ بالمائة ،فبعد ان كان عدد العاملين في الزراعة يشكل

٥٤ بالمائة قبل الخطة اصبح يشكل ٥١ بالمائة بعدها ، ولم يستوعب القطاع الصناعي اكثر من ١٢٫٢ بالمائة من هذه القوى بينما تحول الباقي لقطاع الخدمات [١]. وقد انخفض الدخل من الزراعة بعد الخطة من ٣١٫٥ ٪ الى ٢٧ بالمائة ولم يزد في الصناعة عن ١٫٢ بالمائة .

لقد ادى عدم تغيير البنية الانتاجية للمجتمع المصري الى بقاء الاقتصاد يدور في حلقة استهلاكية مفرغة تضيق بتزايد عدد السكان . يقول الدكتور عمر محي الدين : « اذا حاولنا تقسيم الصناعات الى استهلاكية وانتاجية فقط نجد انه في عام ١٩٦٥ كان مستهدفاً ان تمثل الصناعات الاستهلاكية ٧٨ بالمائة من القيمة المضافة ، والصناعات الاستثمارية ٢٢ بالمائة ، اي ان الهيكل الصناعي ما زال متحيزاً للصناعات الاستهلاكية التي كان كثيراً مما اختير منها صناعات استهلاكية تفي بحاجات استهلاك الطبقات الوسطى [٢] » . وبما اننا اصبحنا ندرك ان تحرير الاقتصاد لا يتم الا بكسر النمط الاستهلاكي الذي اقامه الاستعمار وان بقاء هذا النمط يبقي الاقتصاد في حالة من التبعية الاقتصادية للسوق الرأسمالية تستتبع تبعية سياسية بدرجة او باخرى ، فاننا نصل الى نتيجة لا مجال للشك فيها ، وهي ان البورجوازية الصغيرة بحكم طبيعة مصالحها تقيم نظامها الانتاجي الخاص العاجز عن اعطاء الاستقلال السياسي مضمونه الاقتصادي الحقيقي . ان الصناعة الاستهلاكية تحتم الاعتماد على السوق الرأسمالية وذلك يتضح من جدول حجم التجارة الخارجية لعام ١٩٦٦-١٩٦٧ . فقد بلغت نسبة الواردات من الغرب ٥١٫٦ بالمائة مقابل ٢٨٫٦ من الكتلة الشرقية وتنعكس الآية بالنسبة للصادرات حيث نجدها لا تزيد عن ٢٦٫٨ بالمائة الى الغرب بينما تصل الى ٥٠٫٣ الى الشرق [٣] . من هنا ندرك لماذا يعجز النظام عن « التناطح مع الامبريالية » ولماذا لا تستطيع البورجوازية ان تلقي «بعلاقاتها مع اميركا الى عرض البحر» [٤]. اننا

---

١) راجع دراسة محمد كشلي : تصنيع خفيف ام تصنيع ثقيل ؟ الحرية، العدد ٤٧٠ السنة العاشرة ٦٩/٦/٣٠ .

٢) راجع الدراسة نفسها.

٣) النمو الاقتصادي واحتياجات الحرب في الواقع المصري ، عمر محي الدين ، الطليعة عدد ٣ سنة ١٩٦٨ .

٤) الكلمات لمحمد حسنين هيكل من مقالات له بالاهرام . ان النظام الناصري يعمل بالقناعة الكافية بأن اميركا هي التي تقدر على انجاز الحل السلمي لانها الوحيدة القادرة على الضغط على اسرائيل . واميركا مقابل ذلك ستضغط على النظام الناصري الذي يحتاج الى الحل السلمي حاجته للبقاء . وقد كانت اقالة علي صبري من منصبه في الاتحاد الاشتراكي ومحمود امين العالم من منصبه في دار الاخبار أول الغيث .

لسنا هنا في مجال انكار مطلق لكل تقدم حققه النظام الناصري . ولئن بدت سلبيات هذا النظام طاغية على ايجابياته فلأننا نقيم ما يعتبره الكثيرون «ثورة» بمقاييس ثورية . فلا مجال لانكار نمو الطبقة العاملة عددياً في ظل نظام البورجوازية الصغيرة نتيجة الصناعات الاستهلاكية التي اقامتها والمشاريع التي حققتها . ولكننا ننظر الى ما كان يمكن للنظام ان يحققه في فترة زمنية طويلة نسبياً – على عكس ما يعتقد الكثيرون . ومن هنا فاننا ننظر الى هذه القاعدة العمالية كقوة مستقبلية ليس الحاضر بالنسبة اليها الا مرحلة تتكون فيها عناصر الحركة الجدلية التاريخية بين هذه الطبقة والفلاحين والعمال والمثقفين وصغار الموظفين من جهة ، وبين البورجوازية البيروقراطية من جهة اخرى . وليس لاحد مصلحة في طمس الوجه الاصلاحي للنظام ولكن ليس في مصلحة الثورة ان نبالغ في تبجيل ثوريته . فلا احد ينكر مثلاً ان انصاف العمال بتحديد حد ادنى لاجورهم (٢٥ قرشاً في اليوم للعامل الصناعي و١٥ قرشاً للعامل الزراعي) ليس خطوة الى الأمام ولكنها بالتأكيد خطوة اصلاحية وليست ثورية . يقول ماركس في نقد برنامج غوتا : « ان نظام العمل المأجور هو نظام رق واستعباد ، وهو في الحقيقة استعباد تشتد وطأته بقدر ما تتطور قوى العمل الاجتماعية المنتجة ، مهما كانت عليه الاجرة التي يتقاضاها العامل ، سواء كانت احسن ام اسوأ بعض الشيء . » ان التخريجات اللفظية مثل التطور اللارأسمالي و« السير في طريق الاشتراكية » هي من البضاعة الديماغوجية نفسها التي تعرضها البورجوازية الصغيرة . ان للسير في طريق الاشتراكية «والتحولات الاجتماعية» نقطة يتوقف عندها ، وهي حدود مصالح النظام الطبقي الذي لا يمكن ان يتجاوزها . ان السير في طريق الاشتراكية يصل الى اهدافه عندما تقوم الطبقة العاملة بقيادة المسيرة وليس البورجوازية الصغيرة . اما وصف التطور بأنه « لا رأسمالي » فيتساوى مع القول بانه « لا اشتراكي » ولكن «الحياء» يمنع «الشيوعيين» من تفصيل الكلمات على حجم الوقائع . واذا كان هذا النظام « لا اشتراكياً »وعاجزاً عن اكمال المسيرة نحو الاشتراكية ،وعاجزاً بالتالي عن كسر الحلقة التي تشد اقتصاده الاستهلاكي التبعي للسوق الامبريالية وعاجزاً اخيراً عن تفجير طاقات الجماهير الشعبية المكبلة والاستفادة من طاقاتها

البشرية ١ ، فكيف يصح ان توقف الحركة الجدلية لمصلحته ويدعم على حساب مصالح الجماهير ؟ ان على الاحزاب الشيوعية لكي تكون كذلك ان تعيد النظر بمنظار ماركسي موضوعي في الخريطة الطبقية وتبني على ضوء الرؤيا بالعين الثورية السليمة استراتيجيتها الثورية . وعليها ان تعطي الجماهير العقيدة العلمية نقية من خليط « الاقتصادية » الانتهازية الذي يسلبها روحها الثورية ويقربها الى النفعية . ان قيادات التنظيمات الشيوعية بعد خرق للديموقراطية امتد نصف قرن وانعدمت فيها رقابة القواعد ، تسودها البيروقراطية والتسلط الفوقي ويراعى في تكوين كادراتها « الأقدمية » و« الاخلاص » الذي رأينا نموذجاً له في انظمة البورجوازية الصغيرة وهذه القيادة هي المسؤولة عن كل الممارسات اليمينية ، وعن التشويهات النظرية التي تحول دون تحول الماركسية الى قنبلة للثورة الموقوتة . ان النظرية لا تفعل في الواقع الا اذا فصلت على حجمه ، ونبعت من ظروفه ومتطلباته ، والا اذا دخلت الى وعي الجماهير نقية . عندها وحسب ، تصبح هبّة الريح في شراع التاريخ .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

---

١) آخر «تقليعة» يفكر النظام باستيرادها من «الهند» هي تقليعة « التعقيم المؤقت » لمواجهة تضخم السكان الذين يتكاثرون بسرعة تفوق نمو الانتاج . وهذا الحل «المالتوسي» الرجعي يؤكد عجز النظام عن تحويل هذه الطاقة لحقول انتاجية بدل ان تكون عبئاً على الانتاج .

جميل كاظم المناف

نحو يسار عربي جديد :
فشل البورجوازية وفشل الحركات اليسارية التقليدية

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بات من المحتم أن نغيّر مفاهيمنا التي ورثناها من ثورتي الخمسينات والستينات عن طبيعة الثورية . فقد ثبت فشل هذه المفاهيم وسقوطها لأنها ليست مفاهيم ثورية أصيلة ، بل مصادرة للثورة الحقيقية ، والغام وضعتها البورجوازية الصغيرة في البلاد العربية أمام القوى الشابة التواقة الى نفض غبار الماضي وأثقاله . واليوم اذ تصحو هذه القوى الفتية على الخيبة ، وعلى هزيمة حزيران وأكاذيب البورجوازية الصغيرة ماذا ينبغي أن يكون رد فعلها ؟

مشكلة البورجوازية الصغيرة

ان للبورجوازية الصغيرة في بلدان العالم الثالث الذي خضع للسيطرة الاستعمارية ، التقليدية منها والجديدة[١] ، "بنى" تغاير بنى ما يقابلها من الطبقات في أوروبا . فالبورجوازية الصغيرة هي الخادمة الشرعية للبورجوازية الكبيرة ، لأن أطرها تتكون ، في الغالب ، من الفنيين والأطباء والمهندسين والخريجين ،

١) راجع فرانز فانون « معذبو الارض » ترجمة سامي الدروبي وجمال الأتاسي ، دار الطليعة ، بيروت ١٩٦٦ .

الذين يستوعبهم الاطار التكنيكي والبيروقراطي للدولة .

ومن أهم النتائج الاجتماعية التي نجمت عن وضعية هذه الطبقة في الغرب الرأسمالي ، بروز سلطة « ذوي الياقات البيضاء » * وهي بمثابة السلم الذي يوصل الى سلطة الاحتكارات الكبيرة. وبذلك أوجد النظام الرأسمالي بوجهه المادي، تركيباً هرمياً . ومعروف أن قاعدة هذا الهرم غير المتماسك تتكون من البروليتاريا الصناعية المنتجة . أما البورجوازية الصغيرة فتحتل فيه مركزاً وسطاً . ومن هنا تأتي سلطة « ذوي الياقات البيضاء » ؛ فهي سلطة طبقية وفنية في الوقت ذاته [1] . وتتوقف كيفية هذه السلطة على وزنها الكمي ، وامتيازاتها البيروقراطية . والنتيجة المباشرة لذلك ، هي ان البورجوازية الصغيرة في اوروبا وأميركا احتياطي للرأسمالية الكبيرة ، لأن بنيتها الطبقية تلعب الدور الأساسي في تحديد هويتها . ولقد قويت سلطة « ذوي الياقات البيضاء » بشكل مذهل في الغرب وأميركا على حساب القوى المنتجة ، مما أدى الى انخفاض قوى البروليتاريا [2] . هذا التغير الأساسي في المجتمعات الغربية يقود بالضرورة الى توسع سلطة « ذوي الياقات البيضاء » ؛ وتحتل الطبقات البورجوازية الاحتكارية، تبعاً لذلك ، أعلى قمة في الهرم فيما تظل مختفية عن الانظار خلف سلطة البورجوازية الصغيرة التي يسميها شرايبر سلطة « الشعب العامل » . ولعل هذا التطور ناتج عن التطور التكنيكي السريع في البلدان الصناعية . ويشير هذا الى أننا ندخل في عصر استعمار جديد هو « الاستعمار العلمي » الذي تشترك فيه معظم الطبقات في البلدان المصنّعة تصنيعاً عالياً [3] .

كانت سلطة البورجوازية الصغيرة في اوروبا، إبان عصر الاستعمار التقليدي، مستمدة من بنية المجتمعات الأوروبية . وقد جعلها هذا تحتل منزلة وسطى

---

* أستخدم اصطلاح « ذوي الياقات البيضاء » للاشارة الى البيروقراطيين في الدولة والأحزاب والحركات .

١) انظر كتاب « التحدي الأميركي » ج.ج. سرفان شرايبر ، ترجمة فكتور سحاب ، منشورات الآداب .

٢) مجلة نيوتايمس السوفياتية عدد ١٣ عام ١٩٦٨ .

٣) British Marketing council .

تنحاز مباشرة الى السلطة الرأسمالية . هكذا كانت « الأداة » التي تنفذ أغراض هذه السلطة في النطاق المحلي عن طريق تشكيلاتها العسكرية والفنية والمكتبية، فتقهر القوى المنتجة وتضطهدها . ثم عادت في عصر الثورة العلمية والتكنولوجية تلعب الدور نفسه الى جانب تحولها الى طبقة عاملة بيروقراطية . واذا استمرت المجتمعات الصناعية بتطوراتها العلمية المذهلة ، فانها ستتوصل الى « تعميل » البورجوازية الصغيرة ، وبرجزة البروليتاريا ؛ وهكذا لا يبقى من محرّك للثورة والرفض والتناقض غير القوى المنعزلة والشابة والمضطهدة ، كالأقليات ، مثل الزنوج والآسيويين وحركات الشبان [1].

لقد سلط الاستعمار البورجوازية الصغيرة في بلاده على القوى المنتجة فأرسلها الى المستعمرات جيوشاً تنكّل بسكانها . ثم جنّد بروليتاريا الأرياف والمدن في البلدان المستعمرَة وسلطها على بروليتاريا بلاده وبروليتاريا البلدان الأخرى : كان جنود المستعمرات من السنغاليين يحرسون نهر السين باستمرار ، أما الهنود فقد سلطهم الانكليز على المستعمرات . ولقد دافعت بروليتاريا المستعمرات عن مستعمريها دون ارادة منها ، أو بخديعة من البورجوازيات الوطنية التي زجّتها في الحرب العالمية الثانية [2] . كانت اللعبة متقنة ، مبرمجة الفصول [3] . أما اللعبة الجديدة فهي في اخفاء الصراع الطبقي : وبواسطة ذلك « تعميل » الشعوب الصناعية من جهة ، وجعل سلطة البورجوازية الصغيرة شمولية عن طريق التوسع في المجتمع التكنوقراطي الاستبدادي الشمولي Totalitarian . وتأتي الحقيقة التاريخية لسلطة البورجوازية الصغيرة في العالم الثالث ، ومن ضمنه الوطن العربي ، لتؤكد ذلك ، وفي هذا الطور الحضاري بالذات .

لقد وصلت أحزاب البورجوازية الصغيرة الى السلطة عن طريق انقلابات عسكرية ، أو انتخابات تآلفت فيها عدة أحزاب او حركات ، مثلما حدث ويحدث في أفريقيا وأميركا اللاتينية والوطن العربي . فالتحولات التي حدثت في بنية مجتمعات العالم الثالث نتيجة الاستعمار ونشوء الرأسماليات الوطنية

---

١) يمكن الرجوع في هذا الصدد الى كتاب ستوكلي كارمايكل وتشارلز هاملتون : «القوة السوداء» — دار الآداب .

٢) في الحرب العالمية الثانية سخر المستعمرون الفرنسيون مائة الف تونسي ومائة الف جزائري للدفاع عن مصالحهم .

٣) راجع لينين : الامبريالية أعلى مراحل الاستعمار ص ١٨٥ الى ٢٣٤ . دار التقدم ، موسكو ١٩٦٧ .

وعمليات البحث عن المناجم والبترول ونهب المطاط والماس وشق الطرق الخ .. حدثت من أجل تصدير الرأسمال الى الخارج [١] وتزويد الصناعات الأوروبية بالمواد الخام . هذه التحولات التي حدثت في المجتمعات الزراعية (الفلاحية) تمثل تناقضاً جذرياً بين وسائل الانتاج اليدوي ووسائل الانتاج الآلي ؛ وقد نتج عنها اقامة مدن هجينة في البلدان المتخلفة ، تحول الرأسمال الاقطاعي فيها الى رأسمال تجاري ، فعقاري ، فصناعي خفيف . وقد أدى ربط البورجوازيات الوطنية الناشئة بالرأسماليات الأوروبية الكبرى الى جعل هذه البورجوازيات شريكاً هزيلاً نظراً لأن تلك الرأسماليات مصنّعة ومزودة بقدرات صناعية ومالية احتكارية كبيرة ، ويؤيدها فوق ذلك ، استعمار فكري وسياسي وجيوش جرّارة ، وتخدمها قوة تكنولوجية متفوقة . واذا كانت بعض الرأسماليات الوطنية قد قادت مرحلة كفاح ضد الاستعمار فان هذا يؤكد على ان الاستعمار قد فشل في « ترويضها » في مرحلة الاستعمار القديم ، الا أنه عاد « فاستوعبها » في مرحلته الحديثة [٢] .

هكذا سقطت الرأسمالية الوطنية من حساب الثورة الوطنية التحررية في بلدان العالم الثالث . فجاءت البورجوازية الصغيرة لتقفز الى السلطة بواسطة قيادتها للحركة الوطنية . ولما تولت السلطة أخذت تبحث عن مرتكز اقتصادي كان يعوزها قبل ذلك فأصبحت السلطة وسيلة لبلوغ هذا المرتكز . وبهذا لا تصبح الدولة أداة سيطرة سياسية وحسب ، بل تصبح مصدراً للسلطة الاقتصادية كذلك . وتلك هي المسألة [٣] .

واقع البورجوازية الصغيرة في العالم العربي

أما البورجوازية الصغيرة في البلدان العربية ، فقد حولت الدولة الى مصدر للثراء الاقتصادي . ومما يؤكد هذا القول النمو المتصاعد في داخل هذه الطبقة ، والتحول الهيكلي في بنائها . كما يؤكده تحول الدولة الى « أداة » استغلال طبقي بورجوازي صغير ، وتكوين علاقات احتكارية واستغلالية ، فردية وجماعية .

---

١) راجع كريستوفر لايتون : توظيفات خارجية .
٢) أفضل ما يحسن الرجوع اليه بهذا الصدد هو كتاب أعمدة الاستعمار الاميركي .
٣) يشرح ريجس دوبريه هذه النقطة باسهاب في كتابه « ثورة في الثورة » ، دار الاداب بيروت ١٩٦٨ .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وما حكايات الرشوة والمحسوبية ومشاركة المهربين وتقاضي العمولة من عملاء المقاولات والاجازات والامتيازات والاستيراد والتصدير والتزامات تعبيد الطرق ومد الخطوط الكهربائية فضلاً عن الشؤون الصغيرة والجزئية ، الا دليل بسيط على ذلك الاستغلال [١] .

ان النظرة العلمية الفاحصة لواقع البورجوازية الصغيرة في البلدان العربية تبين ان سعيها الى السلطة كان مدفوعاً بعامل طبقي يهدف الى اختصار مراحل التطور والتدرج الاجتماعي . وإذ تنحّت البورجوازية العليا عن السلطة بالقوة ، تحولت الدولة من كونها **التعبير القانوني والسياسي عن العلاقات الانتاجية الرأسمالية** ، لتصبح – الى حد ما – أداة للتعبير القانوني والسياسي عن العلاقات شبه الرأسمالية ؛ ذلك ان البورجوازية العربية الصغيرة لم تستطع اقامة علاقات انتاجية ، رأسمالية تامة ، أو اشتراكية تامة [٢] . ومردّ هذا الى ان ثورة هذه الطبقة على الرأسمالية والبرلمانية ثم طموحها الى الوظائف الكبيرة والصغيرة ، **وتورطها السياسي بشعارات اشتراكية** ، جعلتها تنتهج سياسة **تأميمية** يلعب فيها القطاع العام الدور الرئيسي : هكذا أمكن تعيين الأتباع وأعضاء الحزب المسيطر على السلطة ، وباتت الوظائف الحكومية في قبضة الجهاز البيروقراطي. ويجيء التوسع في الجهاز الاداري كبديل عن تنمية الجهاز الانتاجي ، ذلك لأن العقلية البورجوازية الصغيرة لا تمتلك البعد الصناعي ؛ فواقع هذه الطبقة الاجتماعي وهزال بنيتها الاقتصادية لا يسمحان لها بتصنيع البلاد؛وهي الى ذلك جبانة تخاف التأميم الذي بدأته بنفسها . لذلك تمضي في استثمار أموالها المتكدسة نتيجة لتقاسم تركة الطبقة الرأسمالية [٣]. هذه الطبقة لا تساوي ، مع ذلك ، شيئاً على الصعيد الاقتصادي لأن عهدها السياسي على اختلاف أشكاله لم ينتج إلا التضخم في الجهاز الاداري ونمو المدن البورجوازية المترفة ؛ وفوق ذلك

---

١) راجع محاكمات الثورة بعد هزيمة حزيران في الجمهورية العربية المتحدة ، الأهرام ، أعداد أيام الجمع خلال شهري اوكتوبر ونوفمبر ١٩٦٧ .

٢) راجع بليابيف : الطريق اللارأسمالي للبلدان النامية،نشرة من وكالة نوفوستي عام١٩٦٦.

٣) عندما نتكلم على ذلك ، نتكلم عن خبرة ومعاينة ومعايشة في واقع العراق الراهن وواقع سورية . وكمثال على ذلك نأخذ التقارير الصادرة عن الجهات الاقتصادية لأعوام ١٩٦٦ و٦٧ و٦٨ و٦٩ التي تؤكد الكساد الاقتصادي وتجميد الأموال في العقارات وانخفاض الدخر القومي ، وانشقاق الشركات الى شركات صغيرة بدلاً من اندماجها ، كانشقاق شركة دجلة للأحذية مثلاً الى ثلاث شركات : رافد ، والشاكري ، ودجلة . راجع بصدد الأرقام تقارير الجهات الاقتصادية المذكورة .

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

ليس لهذه الطبقة وزن اقتصادي ما لم تكن السلطة السياسية في قبضتها . وهذا ما يفسر اقتتال البورجوازية الصغيرة العنيف على السلطة . فهي لأنها هامشية في تكوينها الاقتصادي ، طفيلية في تركيبها الطبقي ،غير منتجة ، حالمة ، ذات تفكير سوفسطائي تتعامل بالمادية الآلية في واقعها بينما تفسر الأمور تفسيراً أخلاقياً أو مثالياً . انها الآكل الهاضم الذي لا يشبع ، والمخاتل الذي ينشب أظافره في لحم أخيه كي يسيطر عليه . لذلك نراها تنشق باستمرار الى كتل وأحزاب [1] .

إن البورجوازية العربية الصغيرة مقبرة الثوار الحقيقيين ،تعلمهم أخلاقيات البيروقراطيين في الجامعة والدوائر ، كما تعلمهم الانتهازية ، فلا تعود عقولهم تنفعل الا بدافع الحافز المادي . وتلك مصادرة كاملة للحوافز المعنوية الأصيلة لدى الثوري [2] . هكذا تبرجز معظم المناضلين الذين أفرزهم جيل الخمسينات والستينات . وقد آن لنا أن نتجاوز ثورية هذه الطبقة التي أنتجت هزيمة حزيران . فالظرف الموضوعي الراهن هو ظرف الكفاح الفدائي المسلح في فلسطين ، لذلك ينبغي أن ترتبط ثورية الشبان بهذا الكفاح ارتباطاً كاملاً .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الديمقراطية والصعيد الفكري

تهدف البورجوازية الصغيرة الى اقامة حكم استبدادي شمولي مع انها تدعي عكس ذلك ، فتظهر بمظهر عقلاني وتاريخي محدد يحاول استعمال أدوات **التحليل المادية التاريخية** لتفسير جميع الظواهر . وقد أنشأت في اوائل الخمسينات حركات أدبية وفكرية من أجل ايجاد صيغ «للتمذهب» البورجوازي الصغير ، معتمدة على الارتباط الكامل بالتراث القومي بايجابياته وسلبياته والخضوع شبه الكامل للحضارة الأوروبية [3] . أما ما نشأ بعد ذلك من حركات البورجوازية الصغيرة وأحزابها فقد حاول أن «يتمذهب» اشتراكياً ، بيد أنه لم يستطع أن يتمثل هذا الفكر تمثلاً نظرياً عميقاً ، ذلك لأن الواقع الطبقي لهذه الفئة يجعلها تخاف الفكر الثوري الشعبي . وعندما مرت مرحلة الخمسينات والستينات وجدنا

---

١) في القطر العراقي اكثر من ٢٥ حزباً للبورجوازية الصغيرة .
٢) في الحوافز المادية والمعنوية ، راجع كتاب جيفارا « الاشتراكية والانسانية في كوبا ».
٣) للتوسع في هذا الشأن انظر «نقد الفكر القومي» الياس مرقص ،دار الطليعة ـ بيروت .

التشدق النظري بالاشتراكية يسير مع أقصى درجات التطرف (الطفولة اليسارية). فتاريخية هذه الطبقة وأعمالها -- في المجال التطبيقي – أثبتت انهـا تتعاطى الصيغ الفكرية الجاهزة كما تتعاطى التجارة. فهي مفيدة في تخدير الجماهير الكادحة وفي الحد من ثورية جيل الشبان الذي كفر بقيم القديم ؛ هذا الجيل الذي يحاول الافلات من قوقعة الجدل البيزنطي الى العمل الجدي الذي يرتبط بالكفاح المسلح في فلسطين، ضد الامبريالية والصهيونية، دون التقيد بما قد تمليه عليه الأوضاع السياسية الراهنة في البلدان العربية. ان معطيات الأعمال التي يقوم بها الثوري البورجوازي الصغير ومواقفه السياسية والاقتصادية من مسألة الديمقراطية باعتبارها المحك العملي لكل فكر ونظام، تكشف عن هذا كله [١]. فالموقف من الديمقراطية في مرحلة التحرر الوطني يقتضي قيام تضامن شامل بين القوى الثورية والتقدمية بغية انجاز هذه المرحلة. وتتم الخطوة الأولى بوضع برنامج عملي تمثل فيه جميع الاطراف [٢].

إلا أن الثوري البورجوازي الصغير في صفوف الأحزاب، التقدمية القطرية منها والعروبية، وحتى في صفوف الأحزاب الماركسية عجز عن انجاز هذه المرحلة، بل وقف عثرة في طريقها. وكم تولت السلطة في بعض البلدان العربية أحزاب وحركات تقدمية، قطرية وعروبية ثم وقفت عاجزة عن حل مسألة الديمقراطية. فثوريوها يرون الديمقراطية مسألة تخص الحزب أو الحركة الحاكمة وحدها، وكل من يريد أن يجد له مصدراً للرزق ولا يجني على نفسه بالسجن او التشريد عليه ان ينخرط في صفوف الحزب الحاكم أو يتحول الى متملق أو مادح. وحتى الطبقة العاملة خضعت لتأثير هذه التجارب وتقمصت سلوكيتها ؛ ومرد ذلك الى أن معظم قيادات الأحزاب والحركات العربية التقدمية التي تقود الطبقة العاملة واقعة في أيدي بيروقراطيي البورجوازية الصغيرة أو « ذوي الياقات البيضاء ».

أخيراً هناك النمو الفكري غير الصحي لبعض الاتجاهات النفعية في صفوف الطبقة العاملة العربية. وقد نتجت هذه الظاهرة من العوامل الآتية :

١ – سوء فهم الظواهر المرضية في ثورية البورجوازية الصغيرة. فبدلاً من

---

١) راجع بهذا الشأن كتاب لينين « اشتراكية بورجوازية صغيرة ام اشتراكية عمالية ».

٢) لم يجر هذا في البلدان العربية الا في مرحلة النضال ضد الاستقلال الرجعي أما في مرحلة الثورات العسكرية فقد كان الصراع هو الأساس.

تحليلها تحليلاً علمياً تاريخياً مادياً ، خضعت لتحليلات تابعة من فكريات الثورية البورجوازية الصغيرة ؛ أي فسرت ظواهر فشل الثوري البورجوازي الصغير تفسيرات ذاتية، مما جعل للعوامل الشخصية والغيرية الدور الأساسي في المسألة.

٢ – طغيان المؤثرات القبلية والعرقية الدينية على الطبقة العاملة في البلدان العربية ، مما أدى الى الخلط بين هذه النزعات وفكرة التقدم والديمقراطية وحقوق العمال والثورية العربية . وقد ولّد هذا الخلط المقصود والعفوي في الوقت نفسه الكثير من الارتباكات لدى القوى المنتجة ، فتولدت لديها ردود فعل محافظة ازاء الثورية ، أي حدث ما يسمى « بالنكوص » . والثوري البورجوازي الصغير مسؤول عن ذلك . فقد كان هذا الثوري في اوائل الخمسينات يعتمد في ثوريته على احياء التراث الثقافي العربي القديم احياءً للشخصية القومية باعتبار بعث الثقافة الوطنية مرحلة من مراحل الثورة العالمية ضد الاستعمار . إلا انه خلط بين الاتجاهات المحافظة والتقدمية في التراث ، فجاء هذا الخلط ليولّد الشوفينية . وهذا يناقض التجارب الاشتراكية التي تعتمد الانفتاح الثقافي على شعوب آسيا وافريقيا وأميركا اللاتينية . ان دور الثقافة القومية ينحصر في اقامة مناعة ثقافية ضد الأفكار الاستعمارية والاستغلالية والعنصرية، والانفتاح شبه الكامل على تجارب الشعوب ومعطيات الفكر الاشتراكي ، فليس هناك ، بالطبع ، من قومية متفوقة ، ثقافياً وعنصرياً ، انما هناك تجارب ومعطيات لدى هذا الشعب او ذاك تضيف الى الحضارة الانسانية اضافات معينة . لذلك كان من مميزات القومية في العالم الثالث والبلاد العربية انها ليست ذات مناعة ضد الاشتراكية [1] . غير ان ثوريي البورجوازية الصغيرة لم ينفتحوا على التبادل الأممي . فجعلوا كثيراً من فصائل الطبقة العاملة العربية تصاب بمرض « النكوص » آنف الذكر . ساعد على ذلك أخطاء بعض المتفقهين في دراسة الماركسية الذين لم يتفهموا مسألة التبادل الثقافي ودور القومية الثقافي ومبدأ وحدة الكفاح العربي والأممي ، وكون القومية مرحلة تاريخية لا بد أن تقطع للوصول الى الاشتراكية [2] . صحيح ان تجارب العالم الثالث اختصرت المراحل ، لكن هذه التجارب نفسها ليست فوق الزمان

١) النزعة التحررية في القومية المعاصرة هي في كونها ذات وضع تاريخي معاد للاستعمار وفي كونها مضطهدة وذات تركيب اقتصادي غير مستغل، متخلف أو تام .

٢) راجع كتاب « الاسس اللينينية » لستالين ، فصل المسألة القومية .

والمكان . انها صحيحة في مكانها . هكذا كان للنشاط الفكري الذي مارسه بعض مفكري القومية أثر في خلق ردود فعل محافظة لدى الجماهير ، لأن هؤلاء كانوا يعلنون ان القومية العربية شمولية وليست مرحلية [1] ، وكان كل من يقول عكس ذلك يوصم بوصمة « الشعوبية » [2] .

٣ ـ سيادة التكوين العقلي الزراعي لدى معظم مجموعات الطبقة العاملة العربية وفصائلها . هكذا حالت الأصول الريفية للعمال دون تفهم الجانب المادي في الثورية العربية المعاصرة ودون التعمق في الظواهر السياسية للوصول الى نتائج فكرية وفلسفية منهجية . وهذا ما يفسر وجود وصاية فكرية عليها من قبل مثقفي المدن ، بل بلغ الأمر حد قيام ريادات فكرية «أبوية» . وبات الوصول الى القيادات الحزبية والنقابية رهيناً بشرط التحصيل الثقافي الأكاديمي، مما جعل الطبقة العاملة تعاني « نقصاً » نفسياً ومادياً في آن .

٤ ـ اتخاذ ثورية البورجوازية الصغيرة مفهوماً مغامراً بحيث أصبح القفز الى السلطة هو كل شيء . اما الاحزاب الشيوعية التقليدية فقد ظلت تتمسك بصيغ النضال الشرعي في ظل الديمقراطية ، مع أنه ما من سلطة عربية بورجوازية ، كبيرة او صغيرة ، تتيح لشرعية هذا النضال ان تعيش وتتجسد. وعلى الرغم من النكسات والهزائم التي رافقت المفهومين الثوري البورجوازي الصغير والشيوعي الكلاسيكي ، ما تزال الغالبية تتمسك بها . وكان لهذه الهزائم والتجارب تأثير بالغ في ذهنية الجماهير والعمال ، اذ ولّدت لديهم كرهاً للسياسة وأوجدت الانتهازية والنفعية والوصولية .

٥ ـ جو اليأس الذي انتشر في الستينات ؛ اذ ان هذه المرحلة اتسمت بالأزمات السياسية والمغامرات الثورية ، والانشقاقات والأزمات الاقتصادية

---

١) راجع كتاب كمال الحاج « القومية ليست مرحلة » وكتاب « البعث القومي » اشترك في تأليفه بديع الكسم ، عبدالله عبدالدائم ، صدقي اسماعيل وميشيل عفلق .

٢) استخدمت كلمة الشعوبية لمحاربة الاشتراكية في فترة معينة من تاريخ العرب المعاصر . وكلمة شعوبية ترداف الأممية ، لكنها ليست مطابقة لها تماماً . فقد وصفها الجاحظ بانها حكم الشعوب المعادية للعرب في زمانه . فاتخذت المدلول نفسه الى جانب صفات الفوضوية . وقد تعمّدت البورجوازية والبورجوازية الصغيرة استخدام هذه التهمة لوصم كل حركة تقدمية . وينبغي أن تحذف هذه الكلمة من قاموس التعامل السياسي لاثرها الرجعي وارتباطها التاريخي بحساسيات طائفية ومذهبية، او ان تثبت كمصطلح سياسي له مفهوم تقدمي يقابل مفهوم«الاممية» كي تتخلص من التخبط الدلالي .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

والفوضى الفكرية ، كما اتسمت بتصاعد المتطلبات المادية وبالتوتر الاجتماعي والانتقالات الطبقية نتيجة النمو التجاري والوظيفي في المدن ، وبالانفلات النفساني وشيوع العنف بسبب العداوات السياسية بين الجماهير التي تآكلت ثوريتها في جدل بيزنطي .

٦ – الخيانات والاتهامات التي تبادلتها القيادات السياسية ، فكثرت الأكاذيب واختلطت المقاييس وأصبح اليمين يساراً واليسار أكثر تطرفاً، وكثرت المزايدات سعياً الى كسب امتيازات طبقية جديدة .

تراكم الازمات والتيار الاصلاحي

ان افضل طريق لمعرفة «نوعية الأزمات» التي تراكمت بعد مرحلة الخمسينات والستينات في البلدان العربية ، هو النظر الى شخصية الحكومات التي تعاقبت . كانت هذه الحكومات تدعي التقدمية بينما كانت ممارساتها العملية مناقضة لذلك. وبنتيجة التجارب الثورية السياسية المغامرة التي قامت بها هذه الحكومات البورجوازية الصغيرة لجأت الى الضغط والتعذيب . واستلزم ذلك التعذيب وجود سلطة تمارس القمع ، وبالتالي ايديولوجية يحرك باسمها الانسان ضد الانسان [1] . هكذا بدأ تطرف جديد يظهر في ساحة العمل السياسي . بدأ الشبان يتساءلون ويتململون : لا بد من عمل . لا بد من قيادات جديدة . لقد فقدت الأحزاب التقدمية القديمة ثوريتها ، وخانت البورجوازية الصغيرة مبادئها ، وأصيب الفلاحون والعمال بعدوى البرجزة ، وبات البحث عن حل جديد ، عن طريق جديد ، محتماً .

هذه العوامل مجتمعة أدت بثوريي البورجوازية الصغيرة الى انتهاج الطريق الاصلاحي . ذلك ان ردود الفعل في البنية السياسية والجماهيرية لأحزاب هذه الطبقة ولّدت اتجاهات محافظة وأخرى متطرفة من أجل الوصول الى السلطة وحل المشكلات المتراكمة التي خلفتها التجارب ، والتي جاءت هزيمة حزيران تبلورها بلورة تامة .

---

١) انظر بهذا الصدد كتاب فرانز فانون « من اجل افريقيا » ص ٤٩ ، المطبوعات الوطنية الجزئرية ، عام ١٩٦٦ .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

واذن فقد طرح الحل الاصلاحي كمحاولة مألوفة وسهلة لحل المشكلات حلاً سطحياً يطمئن الطبقات الشعبية موقتاً ، خصوصاً أن الظرف مناسب ، لأن التجارب العنيفة وهزيمة حزيران أبرزت جواً من اليأس واللامبالاة ، وهو الجو الصالح للتيار الاصلاحي ، اذ يبقى الوعد بتغيير العلاقات الانتاجية والمعيشية قائماً رغم كل شيء . ولما كان ثوريو البورجوازية الصغيرة غير قادرين على تغيير هذه العلاقات لجأوا الى الاصلاح « كورقة رابحة » ضد الثورة الحقيقية. وقد حاولت أغلب الاحزاب ان تضفي صفة الثورية على اصلاحاتها لتعزيز شرعيتها مستعينة على ذلك بشعارات اليسار .بينما ظل اليسار ، باستثناء الأصلاء في الأحزاب ، تجريداً سياسياً . السبب في ذلك ان لعبة الانقلابات والثورات كانت لعبة مغامرة ، تنتهي عادة بالهرب من المشكلة . وكما ولّدت الانقلابات لدى الشعب احساساً بالعجز والانسحاق ، ولّدت لدى الطبقة الحاكمة التعالي وتوكيد الذات والاستغلال ، وهذا كله يكمله وضع طبقي بورجوازي متصاعد .

نحو يسار عربي جديد

هكذا يتضح كيف تفرز أوضاع بلدان العالم الثالث طبقة بورجوازية صغيرة تحاول الحلول محل البورجوازيات الكبيرة ، وكيف ان بعض قادة هذه الطبقة يخلقون لانفسهم «غيتو» خاصاً من خلال السيطرة على السلطة السياسية ،وأخطر ما في هذا « الغيتو » انه ينطوي على شعور بالهروب من الشعب ومبادلته الاحتقار وعدم الرغبة في مشاركته همومه .ويبدو أن بلدان العالم الثالث تعيش هذه الظاهرة المرضية لان يسارها متناقض وموزع في اتجاهات ايديولوجية متعددة .

أما يسار البلدان العربية ، فقد أصبحت الثورة عنده كالحلم ، لانها اضحت مستحيلة بعد أن فشل في انجازها وفي تطبيق ما نادى به من شعارات ، وبعد أن تبددت اصالته في ثورات او انقلابات مفتعلة أبرزت تناقضه وضعفه وسيطرة البورجوازية على قياداته .

ان يسار البلدان العربية يحمل في داخله تناقضاً خطيراً لانه حاول اعادة تجارب اليسار الاوروبي في بلاد شبه اقطاعية وشبه رأسمالية . فاليسار الاوروبي يعيش ضمن ديمقراطية بورجوازية ويعمل في مناخها ؛ وتفسح له

مقتضيات تعدد الأحزاب في الديمقراطية الغربية فرصة المعارضة[١] بينما لا تسمح الأوضاع السياسية العربية بذلك . ثم حاولوا أن يعيدوا تجربة كومونة باريس عن طريق الاضراب العام فلم ينجحوا . ويبدو ان سبب قصور اليسار في البلدان العربية يرجع الى **جهله بالقانون الجدلي** لأرضية الواقع العربي ، قطرياً وقومياً ، فالجماعيون الذين يعتمدون الحجج المادية يقعون أحياناً كثيرة في تصورات وهمية ، وهذا مما يوقعهم بمرض خلط الذاتي بالموضوعي . ويكون الخطأ أحياناً أخرى في المناهج ، مما يزيد في تعقيد العالم الواقعي ، ويمكن ارجاع ذلك الى الخطأ في نقل تجارب الآخرين .

ان نقل تجارب الآخرين هو الذي صادر اصالة اليسار في البلدان العربية . وانعدم بتأثير هذه التجارب العمل النضالي الخلاق المبتدع من الواقع . كان اليسار في الوطن العربي يعيش في الحلم على عكس اليسار **البلشفي الروسي** الذي صنع ثورة ١٩١٧ والذي كان ينتمي الى عالمه ، وعلى عكس **اليسار الصيني** الذي ابتدع استراتيجيات الحرب الطويلة والعصابات والتطويق والحرب المتحركة والدفاع السلبي الخ . [٢] واكتشف القوة النضالية والعددية للفلاحين واستعمل الريف كقواعد ثابتة ومتحركة لتطويق المدن [٣] .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ان اليسار مجبر على الرفض لكن رفضه يجب أن يدرك الوسيلة التي يستطيع فيها السيطرة على المجتمع ليحوله ، وعليه أن يكتشف القوانين التي تحول تأثيراته من وهم الى واقع ويستمد من هذه التأثيرات الشجاعة ويتخطى جميع الحواجز انطلاقاً من التجربة الخاصة بكل شعب ؛ فيضع التكتيكات الملائمة لذلك ، وأساليب العصيان أو الثورة أو الانتفاضة أو الكفاح المسلح أو حرب الفدائيين والأنصار [٤] .

---

١) انظر «استيقاظ آسيا» فلاديمير لينين : مطبعة اللغات الاجنبية ، الطبعة العربية ١٩٦٨ .

٢) راجع ماوتسي تونغ « ست مقالات عسكرية » بكين ١٩٦٨ ، الطبعة العربية .

٣) راجع في الموضوع نفسه فصل « تحرير الماضي من الحاضر » من كتاب «ثورة في الثورة» ، وكتاب لين بياو « عاشت ذكرى انتصار الحرب الشعبية » بكين ١٩٦٧ ـ الطبعة العربية .

٤) يحدد ماوتسي تونغ في كتابه « المشاكل الستراتيجية لحرب الانتصار على اليابان » القانون الذي اكتشفه الحزب الشيوعي الصيني بطبيعة الاسلوب الذي ينبغي اتباعه لتحقيق النصر . كذلك يحدد « أوكاكورا » في مؤلفه « الروح اليابانية » الروح الدافعة للمقاومة اليابانية ، مع ملاحظة مثالية المؤلف الأخير .

ولعل أخطاء اليسار هي التي دفعت ثوريي البورجوازية الصغيرة الى التحرك السريع والمبادرة والقفز الى السلطة . ذلك ان اليسار لم يتصدّ لهذه المهمة لاعتقاده ان قوى الرجعية أكبر منه بكثير . الا أنه حاول ذلك بعد فوات الأوان ، فترك «مسافة زمنية» فصلته عن الحاضر . ومن واجبه الآن ان يكتشف قوانين لحركته ليأخذ مهام الثورة في البلدان العربية على عاتقه .

بيد أني أراه غير قادر ، لأن ملامح اليسار الجديد بدأت تبرز وتظهر بينما يزداد اليسار التقليدي تناقضاً في الداخل ، وتتحلل روحه المعنوية وتضمر مفاهيمه وتعقم أعماله . كيف يتسنى له اذن توليد مهام جديدة وأفكار جديدة وقيادات جديدة ؟

قد تكون الصلة بين **اليسار التقليدي** والواقع هي التي تبرز **اليسار الجديد** من داخله . فكما ينبثق النقيض من النقيض يبقى اليسار التقليدي منبعاً لليسار الجديد البريء من أخطاء القديم ؛ ولعلنا نغالي في التفاؤل ، غير اننا نلاحظ هنا في العراق ، وبعض البلدان العربية الأخرى ان اليسار الجديد لا يعتمد الماركسية على نحوٍ نصوصي محنّط ، وإنما على نحو جدلي مرن ، مضيفاً الى ذلك التجارب السياسية في المجالات القطرية والعربية . وقد مارس هذا اليسار تأثيراً في الأحداث من خلال الكتابات الفكرية والمشاركات الجدلية في الصحف والمناقشات . صحيح ان اليسار الجديد قريب من التفكير الكوبي - الكاستروي - الجيفاري ، والصيني الماوي ، ولكنه في الوقت نفسه ، بعيد عن التقليد والاتباعية والنقل والانبهار بكل شيء خارجي الى حد تمثيل الشيء وتقمصه بشكل مسرحي ، بعيد عن استيراد التجارب والثورات . لكنه ما يزال ، حتى الآن ، غير منظم . وهو منتشر في أوساط الشبان وبعض أوساط العمال والمثقفين . ولم يبلور أي من هؤلاء ، حتى الآن ، أي شكل تنظيمي جديد . وهو يمارس تأثيراً ثقافياً على الشارع على الرغم من أن مجالات النشر غير ميسرة له ، وان العوز المادي يثقل كواهل الطاقات الشابة فيه .

مرحلة جديدة

نستخلص مما تقدم أن مرحلة البورجوازية الصغيرة آخذة في الأفول ولا بد من أن يتم انتقال السلطة الى الطبقات الجديدة التي تؤلف الطليعة الثورية ، أعني الفقراء المعدمين وأنصاف البروليتاريين المنتجين في المدن ، وثوريي الوسط

الطلابي الاشتراكي، ومن يمكن تسميته بالمثقف الثوري الذي يرتبط كلياً بالنضال، وورومانسيي الفكر الاشتراكي العلميين الذين تحركهم الحوافز المعنوية [1] . ولن يتم هذا الانتقال بصورة سلمية ، لأن المجتمعات العربية قد حولت ، بتوسعها المدني الاستهلاكي ، سكان المدن وبينهم كثير من جماعات العمال الى بيروقراطيين. وكلما مر الزمن وتكشف زيف شعارات البورجوازية الصغيرة وفشلت أساليبها النظامية وغير النظامية في محاربة اسرائيل ازداد الاندفاع الى العمل النضالي الجدي السليم .

ان عشق الحلول الادارية هو الذي شارك في اسقاط القوى التقدمية لثوريي البورجوازية الصغيرة ، ودفع اليسار التقليدي الى السقوط في الهاوية . ولقد شارك اليسار القديم والقوى التقدمية الأخرى في اضعاف ارادة الجماهير ، وضخما الدور السلبي للمقاومة النضالية ، وجعلا الثورة انقلاباً محضاً ، وحولا السلطة الى اداة هيمنة بيروقراطية لا الى أداة مشاركة شعبية ، ومنحا الدولة قوة ادارية من خلال تقوية دورها واضعاف دور الجماهير التي أصبحت تابعة أو قطيعاً تؤمر فتطيع ، وخدما الفكر الرسمي بدل خدمة الفكر الثوري عن طريق تحويل « الثوري » الى شرطي أمن يترصد المناضلين الآخرين ، وحرّفا دوره وحقيقته التي تؤكد ان الثوري هو الملتزم والشاهد والناقد والمجرب والحيوي والمندمج في الطبقات الشعبية . وقد اعتمدا في ذلك على القوة المجردة التي لعبت فيها الجيوش الدور الأول لأنها الأكثر تنظيماً واستعداداً للحركة والأكثر قوة وكفاءة في الصدام بفضل ما لديها من آلة حربية ونظام صارم .

لقد أسهمت هذه الأعمال التي قامت بها القوى الثورية البورجوازية الصغيرة واليسار القديم في تطوير صيغ الرجعية العربية وجعلتها تتقنع بأقنعة تقدمية ، اذ تطور رجعيو ما قبل الخمسينات والأربعينات ، وتظاهروا بتقبل الواقع كي يخدعوا القوى العاملة . هكذا لا يبقى أمام الشعب العربي غير الثورة التي تتصدى للعدوان الامبريالي الصهيوني ، الثورة التي تغسل دنس الانقلابات السلطوية ، الثورة النقية الأصيلة .

---

١) أشرنا في ما سبق الى المصدر الجيفاري الذي يؤكد على الحوافز المعنوية .

الراهنة تنمو وتتطور وتتجاوز نفسها فتتحول الى مرحلة ثانية . وعلى هذا فان مسألة مضمون الوحدة تبقى نصب عينيه على الدوام .

جـ - ومن هنا فان الماركسي - اللينيني ، رغم أنه يناضل في سبيل وحدة قد تتحقق بقيادة البرجوازية الصغيرة وتحت علم ايديولوجيتها الوسطية ، فانه يناضل في الوقت نفسه لتثقيف الجماهير وتعبئتها وتنظيمها في سبيل شق طريق بروليتاري للوحدة العربية . ولكن مسألة النضال في سبيل شق طريق اشتراكي بروليتاري للوحدة ، لا يجوز في حال من الأحوال ان تتحول الى معارضة للوحدة البرجوازية الصغيرة ، ما دامت هذه الوحدة خطوة الى أمام في طريق تحرر الجماهير العربية من الامبريالية .

يجري النضال الوحدوي اليوم تحت ايديولوجيا برجوازية صغيرة ، ليست ايديولوجيا الرأسمالية ولا ايديولوجيا الطبقة العاملة ، بل ايديولوجيا وسطية معارضة للاقطاع والرسمالية والامبريالية الى حد كبير . والماركسي اللينيني العربي مطالب بتثقيف الجماهير والنضال معها من خلال شعارات وحدوية على مستويين : يتضمن المستوى الأول مطالب الحد الأدنى ، ويتضمن الثاني مطالب الحد الأقصى . تتلخص مطالب الحد الادنى بـ ١ - تأييد الوحدة حتى وان كانت ذات طابع برجوازي صغير (علماً بأن التطور التاريخي للنضال الوحدوي قد ألغى احتمالات وحدة بقيادة الرجعية او البرجوازية) ٢ - توضيح مضمونها الطبقي للجماهير . ٣ - توسيع محتواها الديمقراطي ضماناً لنمو حركة الجماهير في المستقبل . اما مطالب الحد الاقصى فتتلخص بشعار الطريق الاشتراكي البروليتاري الى الوحدة ، الذي لا يهدف الى قيادة البروليتاريا لوحدة أمتها فحسب ، بل يهدف كذلك الى التأكيد على حرصها على مستقبل الثورة الاشتراكية في الوطن العربي ، والنضال في سبيل الوحدة البرجوازية الصغيرة جدلياً .

د - ان تجارب النضال الوحدوي ، وبخاصة منذ عام ١٩٥٨ ، قد أكدت ان مسألة الطريق الى الوحدة ، وبالتالي مضمون الوحدة ، قد أصبحت من وسائل النضال الوحدوي المهمة الحاسمة . لقد ألغى التاريخ احتمالات وحدة بقيادة الرجعية او البرجوازية . وكان عبدالناصر فرصة العرب التاريخية في وحدة ذات مضمون برجوازي صغير ؛ وقد افلتت هذه الفرصة او تكاد (وهذا يتوقف على قدرة النظام الناصري على تصفية آثار العدوان) . ان قيام وحدة عام ١٩٥٨ ثم سقوطها عام ١٩٦١ ، ثم فشل الشعب العربي في سورية

(و٨٠ ٪ منه ما زال يؤيد الوحدة بين مصر وسوريا) في اعادة ، وأخيراً اجهاض ميثاق ١٧ نيسان ... هذه التجارب الثمينة كان يجدر بنديم البيطار ان يحللها ويستخلص منها بعض المعطيات التي تتعلق بمسألة ارتباط مضمون الوحدة بامكانية تحققها ، الا أنه اكتفى بالتأكيد على ضرورة الالتفاف حول ثورة ٢٣ يوليو كطريق للوحدة . ان الالتفاف الجماهيري العربي حول ثورة ٢٣ يوليو كان متوفراً ، واعتقد انه ما يزال هو نفسه الى حد كبير . ومع ذلك فان النضال الوحدوي الذي يقوده النظام الناصري ما زال يدور في طريق مسدود منذ سنين عديدة . ان الجماهير العربية في سورية – مثلاً – كانت شديدة الايمان بثورة ٢٣ يوليو ؛ وهي ما تزال على مواقفها رغم الخيبة والمرارة اللتين تعانيهما من جراء نتيجة هزيمة حزيران المذهلة . فلماذا عجزت هذه الجماهير عن فرض ارادتها ؟ المسألة الحقيقية ، اذن ، هي ان نبحث عن أسباب عجز حركة الجماهير الشعبية الوحدوية عن التأثير في مجرى الاحداث ، هي ان نفتش عن اسباب عجزها عن درء الهزيمة التي واجهها النضال الوحدوي . وعلى هذا فان مسألة الطريق الى الوحدة ، وبالتالي مسألة مضمون الوحدة ، لم تعد مسألة محاولة الوصول الى اشكال أعلى واكثر تقدماً للوحدة ، بل أصبحت مسألة كيف نضمن تقدم النضال الوحدوي الى أمام ، بلا ازمات وبلا تراجعات وبلا نكسات . اصبحت مسألة اخراج النضال الوحدوي من عجزه وأزمته التي يتخبط فيها منذ سبع او ثماني سنوات .

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

شهادات

الزيارة

كتب وسيكتب الكثير عن الفدائيين من الخارج ، عن العمليات .. الـخ . اما انا ، فلقد حاولت أن أعاين حركة المقاومة من الداخل ، وان اكتشف العالم الداخلي للفدائي الانسان ، همومه ، خوفه ، مشكلاته ،احلامه . كنت ابحث عن الانسان الجديد الذي يولد عبر الكفاح المسلـح الذي سيقرر في النهاية ، مصير حركة الكفاح المسلح باسرها .

قدر لي ان التقي بالفلسطيني في العراق وفي الكويت وفي لبنان ، مهزومـاً ذليلا ، مسلوباً حتى من حس الكرامة الشخصية رغم كل ما في هذا التعبير من قسوة ، الا اني لا القي اللوم بالتأكيد عليه . وعندما زرت معسكرات منظمات مختلفة ، كنت ارقب بفرح وغبطة ، كيف ان الفلسطيني الذي عاش سنوات طويلة محني الظهر ، بدأ يأخذ استقامة البندقية وعنفوان الرشاش ، وحسم المدفع .

وسمحت لنفسي بالحديث ليس عما تثيره حركة المقاومة في وجدان المشتركين فيها ، بل في وجداني الشخصي كزائر ، من انفعالات وتـداع وذكريات ، وعذري في ذلك أني كنت أتوخى الصدق .

*

رفيقتي الانكليزية تكاد تتداعى . نحيلة،طويلة ، تتلفع الطرحة العربية البيضاء ، والسروال الضيق يكاد ينزلق عند الكشحين . التفتت الي :

ـ الطريق طويـل » ؟

ـ لا أدري .. » بانكليزية مهشمـة .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ابتسمت وتحاملت على نفسها . اردت ان اقدم لها كتفي ، لكني خجلت . وظل يمتد امامنا طريق جبلي متشعب ، صخري حيناً ، مترب حيناً ، ورفيقتي الانكليزية تتداعى ، وأنا اخجل ان اقدم لها كتفي .

*

هكذا ، اذن ، لم أكن في الطريق الى امريكا . كان كل شيء سيبدو هيناً . سيستدعيني اقاربي هناك ، وستقدم لي بعض عجائز العائلة المساعدة ثم ، فجأة ، أجد نفسي في امريكا . امضغ اللبان ، واضع القبعة الصغيرة في زاوية رأسي ، واقبض الدولارات ، والصغيرات البيضاوات ، وسأنسى كل شيء .. الاناشيد القديمة ، والمغزل العتيق ، والحكايات والاسرار الصغيرة . سأنسى كل شيء . أولئك الذين اسأت اليهم ، واولئك الذين اساؤوا الي . اللواتي احببتهن ولم يبادلنني الحب ، واللواتي احببنني ولم احبهن . وسأنسى سنوات القهر والحرمان الطويلة المعذبة التي اورثتني الانهيار والعاهات .

سأنسى كل شيء . سأولد من جديد ، وسأتخذ اسماً جديداً :«هاري» ، اي شيء ، إلا حمدان القديم الذي تعذب كما لم يتعذب احد ، والذي يبحث عن الحب ، والولادة ، والفرح . ولكني لم اكن في الطريق الى امريكا .. بل الى قاعدة للجبهة الشعبية الديمقراطية . والطريق ، صخري حيناً ، مترب حيناً ، والشمس تتوسط كبد السماء ، والعرق الطيني ينسكب من جبهتي ومن اسفل اذني . وكنت احس طعم الملح والتراب بين اسناني . والى جانبي انكليزية نحيلة تتداعى. وأنا اخجل ان اقدم كتفي . وامامي خط متعرج طويل من الرؤوس واللحى الشقراء ، ومن بينها جميعاً ، يضيء وجه اسمر محروق ، وشاربان كثان أسودان ، ونهر من الصمت ، والشعر ، والغضب ، والثورة .

*

حين قال لي « ذاهب الى المقاومة ، زيارة ، تذهب معي » ؟ هدر في داخلي شلال الاناشيد القديمة ، وتحرك المغزل العتيق ، وصرّ .. بكى حمدان القديم ، ضحك ،توسل ، تهدد ، شتم . وولدت في داخلي من جديد ، الارض المحروقة المخضبة ، والوجوه السمر ، والقبضات المعروقة الهزيلة ، وبرق ، فيما يشبه الرؤيا ، وجه « حبيبتي ١ » التي هجرتها على الصليب قبل ست سنوات . يبتسم .

- « متى » سألت .
- « غداً .. » محاولاً اخفاء ابتسامة ماكرة .. ثم « الى اين »؟
- سأحضر حقيبتي الصغيرة ، فرشاة الاسنان ، والنعل المهترىء و«الزبون» وضحك .
- والهارمونيكا ؟
- اهديتها لابن اخت لي أحبه . يشبهني . وليس باستطاعتي شراء واحدة جديدة .
- وأمريكا ؟
- « طز »!

*

« اسمك في الليل يسيل الصمغ عن التفاح »
« نهر ينتاب الحرليالي الصيف » ٢

---

١) مدينتي .
٢) من قصيدة للشاعر العراقي مظفر النواب.

ARCHIVE
http://ArchiveBeta.Sakhrit.com

اني ابحث عن وجهك يا سيدتي في كل الوجوه التي التقيتها ، وانصت ، لعلي في زحمة الاصوات الجشاء المصنوعة ، اسمع صوتك الريفي المبحوح يقطر حزناً ودم بكارات مستباحة، ووعداً .

في شوارع عمان الدبقة ، يا سيدتي ، خيل إلي انني لمحت طرف فوطتك الســوداء ، متى ستنزعينها ؟ ركضت.. صرخت .. بكيت ، ولكنك غبت في المنعطف ، وعندما ادركتك .. لم اجدك .

*

ـ « طالبة » ؟ سألت رفيقتي الانكليزية .

ـ كلا ، تخرجت السنة الماضية من معهد المعلمين ، مارست التدريس ، سألتحق بالجامعـــة في السنة المقبلة .

ـ ولكنك متعبة ، ما الذي دفع بك الى هنا ؟ هل باستطاعتي ان افعل شيئاً من اجلك ؟

ـ لا ، شكراً ، أصبت بالتهاب في القصبات . كنت في معسكرات « فتح » مع اوروبيين آخرين .. ايقظتنا الفيتنام على قضايا الحركة الثورية المعاصرة . نمارس الرفض ، والضيـــاع ، ونغرق خيبتنا من عصرنا في الجنس والمخدرات احياناً . نبحث عن طريق الخلاص ، ونحلم بانسان جديد ، بريء مثل طفل ، قوي مثل إله ، نقي مثل جبل ثلج ، متدفق وعفوي مثل نبع ، وجميل .

*

وسيدتي ايضاً كانت بريئة مثل طفل ، قوية مثل إله ، نقية مثل جبل ثلج ، وكانت تتدفق نبع اغان ورؤى . وحين سمّروها على الصليب ، طفلتي ، الآلهة ، النبع ، تدفقت شلالاناشيد بكر ، والذين رأوها اقسموا انها لم تكن في يوم اجمل منها يوم صلبوها ، لكأنها عروس تُزفّ . اما انا يا سيدتي . فرغم اني حضرت عرسك الدموي ، لم اظفر باستجلاء طلعتك البهية ، فقــد سقطت عيناي على التراب ، وسحقتها الأحذية المسمّرة . سلبتها نعمة الرؤيا .

.. أخيراً وصلنا . بضع خيام متناثرة بين التلال . قادونا الى واحدة . تهالكت رفيقـتي الانكليزية على الارض ، وصدرها يعلو ويهبط مثل منفاخ صغير .

*

ـ «اجمع !» صوت آمر .

ولكننا لم نرتح بعد .

ـ «اجمع !»

انتظمنا مع صف المقاتلين الاخضر . بعضهم كان حافياً ، بعضهم ينتعل حذاء مهترئاً . وجوه مترِبة ، متعبة ، ولكنهم كانوا يتواثبون .

اجمع ! استرح « جبهة » ! استعـد « ثورة » ! الى الامام سر ! رفيقتي الانكليزية تغالب التعب ، وتبتسم كطفلة ، وتحاول ان تقلد ، كأنها تتعلم كلماتها الاولى «جبهة ثورة . سر .»

وارتفع صوت فتي حاد :

باسم الحريـه نضحي بالارواح
جبهـة يساريه هي امضى سلاح

*

ببارود ومدافـع عن ارضي بدافع

يا بلادي راجع تحيا الاميه

*

فلسطين بلدي لاخويا وولدي
واللي يتعدي روحه بايديه

وباسم الحريه ..

- « بسمي الهوريا » . وتبتسمين . جميل أنك تتعلمين كلماتك العربية الاولى عبر الثورة الفلسطينية وفصائلها المسلحة ، وتبتسمين ، وتتطلعين الى من حولك. لا يضحكون ؟ حسناً اذن « بسمي الحرية » مرة اخرى .

كانت المسيرة متعبة ، ومدربنا الحدث يلقي الينا بالأوامر في نزق واستعلاء . هكذا خيل الي . تعبت ، غضبت ، ايها الرفاق ، لم اعد فتياً ، ولقد نسيت الاناشيد القديمة ، وهجر سيدتي أمضّني وأذلّني .

في الطريق الى الخيمة مرة اخرى . اشتبكت مع الشاربين الكثين في نقاش حام . سخرت بمرارة .

- « انك بورجوازي صغير حتى العظم . ماذا كنت تحسب ؟ قادم الى نزهة ؟ ولماذا تغرق في التفاصيل ولا ترى الوجه الاساسي لحركة المقاومة »؟

كان مصيباً الى حد ما ، ولكني لم اقبل التراجع . انسحبت الى الخيمة وافترقنا . حسناً ، أنا بورجوازي صغير ، ولا اريد ان اتظاهر باني شيء آخر ، لا اريد ان اتظاهر بالبطولة البروليتارية . لقد فعلت ذلك طويلاً ، فاصبت بالازدواجية . بورجوازي صغير ؟ ليكن ، شرط ان اكون صادقاً وحقيقياً فذلك خير من بروليتاري مدّع . كنت اعض شفتي قهراً .

*

- «اجمع !»

خرجنا من الخيمة ، وانتظمنا في طابور طويل .. طابور أممي ، انكليزي ، فرنسي ، الماني ، اميركي - لاتيني ، عربي . وكنا نمر الواحد تلو الآخر امام قدْر كبير نتناول نصيبنا من الطعام نصف قرصة خبز وحبة بندورة . في الطابور كذلك اشتبكت في نقاش حام مع مقاتلين هاجم احدهم منظمة اخرى . استهجنت ذلك . قلت له : انكم تقفون جميعاً في خط واحد ، والرصاص الاسرائيلي لن يحيد عن مقاتل من المنظمة الاخرى ليأتي الى صدرك وحدك .. تركت الطابور واتصلت بمرافقنا من مكتب الجبهة . شرحت له الامر . اتصل فوراً بالمقاتلين ، وانفجر النقاش :

- ولكننا ينبغي ان نوضح هويتنا المستقلة .
- ليس بهذا الاسلوب .
- كيف ؟
- عبر النقاش الهادىء والمحاكمة المنطقية ، وعبر السلوك العملي الملموس .
- اننا نأكل الخبز اليابس والبندورة في حين يتلقى مقاتلون في بعض المنظمات الاخرى طعاماً جيداً .
- اخترنا بارادتنا هذا الطريق . ولا داعي لان نستعلي على الآخرين وان نجرّحهم .

كنت اقف على مقربة ، امضغ الخبز اليابس والبندورة . نظر الي احد المقاتلين بغيظ :

-«كل هذا بسببك .. انتم ايها المثقفون؟لماذا لا تدعوننا وشأننا .تأتون الينا بحجة التعلم من الشعب، وسرعان ما تركبوننا .»

*

في الخيمة من جديد. وابتدأ مقاتل يشرح تطور الثورة الفلسطينية .ثورة ٣٦ ، القيادة الاقطاعية الدينية ، الاستسلام ، تدخل الدول العربية ، النكبة ، سقوط بعض انظمة البورجوازية الكبيرة والاقطاع ، الخيانة ، الانقلابات العسكرية . استدعيت وزوار عرب من منظمة مقاتلة اخرى خارج الخيمة .

- من اين ؟ وكيف ؟ من ارسلكم ؟

تذكرت كافكا - والمحاكمة . حسناً .. سيقودونني خلف التلة .. ثم : واحد ، اثنين ،ثلاثة، وينتهي كل شيء . بدا لي الموقف مضحكاً بعض الشيء رغم مأساويته . لكني ورفاقي الآخرون لم نعبر التلة .

- معذرة ايها الرفاق .. تقدّرون .. التباس .

عدت الى الخيمة . المحاضر يسترسل .. هزيمة ٦٧ ، سقوط برامج البورجوازية الصغيرة ، الجبهة الشعبية الديمقراطية ، البرنامج البروليتاري المستقل . في المساء ، ركضت ، زحفت ، وتدحرجت على الشوك ، وكدت ابكي من التعب والغيظ .

*

لكم اعاني من اجل ان اعود اليك ، قوياً ، نظيفاً ، كما كنت مرة افترش الارض ،اتدحرج على الشوك ، وامضغ العرق والتراب والخبز اليابس . في الطرق الرملية اغوص حتى الركبتين ، وفي الطرق الجبلية تتجرح قدماي . قدماي تبحثان عبر كل الدروب عن الطريق اليك .

يوماً سأعود . سأكتشف عبر الالم والنفي والهجر ، طريقك . عندها يا سيدتي ، سأنسى كل عذابات الطرق الاخرى . وسأولد على طريقك من جديد .

*

سقطت على ارض الخيمة . نمت ، لم أحلم .

٢

- «اجمع !»

وكدت اصرخ : لن أجمع ! فالساعة الخامسة صباحاً ، ولكني نهضت . تمارين الصباح . هرولة ، انحناء ، انبطاح . تدلى لساني . في السابعة انتظمنا في الطابور من جديد . وطعامنا هذا الصباح ، الصعتر والزيت والشاي . وتحلقنا خمسة حول صحن معدني . صفرت وانا احسو الشاي ، نشيداً قديماً . انصت رفيق الماني مدهوشاً . ثم بدأ ينشد بالالمانية . لحق بنا رفيق انكليزي ، ففرنسي ، فزنجي من هاييتي . كنت اتذكر بصعوبة كلمات النشيد القديم :

هبوا ضحايا الاضطهاد ضحايا جوع الاضطرار
بركان الفكر في اتقاد هذا آخر انفجار

توقفت لم اعد أتذكره ولكن الكورس الامي واصل الانشاد. والمقاتلون ينصتون مدهوشين. لحن واحد ، ولغات مختلفة !

يجمـــوع قويــه هبّـــوا لاح الظفـــر
غــــد الاميــــه يوحـــد البشـــر

ـ «ولكن .. ما هذا ؟» سأل احد المقاتلين .
ـ الامية .
ـ تحفظه ؟ اكتبه لي ..
ـ نسيت اكثره .. سأرسله لك عندما اعود ، كاملا ، فلعلي التقي بواحد ممن لا يزالون يواصلون الانشاد ، فاطلب منه ان يعلمنيه من جديد . مضحك ، اليس كذلك ، ان احاول الآن تعلم الاناشيد القديمة مرة اخرى ، ولكني سأفعل .

✡

في الطريق لحضور ندوة تثقيفية يومية للمقاتلين كنت ادندن اغنية لجوان بايز تعلمتها حديثاً

We Shall over come
Some day

اقترب مني رفيق انكليزي :

ـ انها اغنية قديمة ولبرالية ، ولا تعكس الوضع الحقيقي للشبيبة الثورية في اوروبا الآن . في الخمسينات ، كان الغد الافضل والامل بالانتصار ، حلماً ضبابياً ، يوتوبيا .. والاصوات القليلة التي ارتفعت في الولايات المتحدة واوروبا تغني هذا الغد ، كانت تحلم بجنة قد لا تتحقق على هذه الارض . ولكن الوضع مختلف الآن . ان اوروبا والولايات المتحدة تغلي اليوم بالروح الثورية . والامل بالانتصار ، وهذا ما تدركه الشبيبة ، اصبح رهناً بنشاطها وبنضالها . لقد حورنا كلمات هذه الاغنية . اتريد ان تسمع ؟ وانطلق يغني بصوت ثابت :

We Shall over throw
to day

We Shall smash the bosses
to day

We Shall fight ! We Shall win
Paris, London, Rome, Berlin..

✡

في الطريق اليك ، اتذكر الاناشيد القديمـــة ، واتعلم اناشيد جديدة . عائد اليك ، اضفر لجبينك المدمّى اكليلا مما الممه في الطريق ..أزهاراً برية ، وحكايا ، ووجد شبّابات ، واحلام صبايا . سيدتي ، هل تقبلينني ؟

✡

الحزب ، كان موضوع الندوة . المحاضر فلسطيني ، طالب في المانيـــا ، يمضي عطلته في المعسكر ، الحزب ، لينين ، روزا لوكسمبورغ ، كارل ليبنفخت ، لوكاش ، الطبقة العاملة الفلسطينية ، فشل الكفاحات الفلسطينية السابقة لافتقارها الى الحزب الثوري . كان يتكــلم

العربية بلكنة المانية . التفت ابحث عن المناضل الذي عيرني باني مثقف . لم يكن يسمع . كان يحلم ، ربما ، بالارض القديمة المثخنة على الجانب الاخر من النهر .

ـ حسناً ايها الرفيق المحاضر ،لست منكم ، كما اني لست من اية منظمة اخرى وانا ابحث عن الحقيقة في البداية . هل ثمة طبقة عاملة فلسطينية بالمفهوم العلمي للكلمة ؟

«ابو العبد» المسؤول السياسي للمنطقة ،تولى الاجابة :

ـ الامر لا يتعلق بالطبقة العاملة الفلسطينية وحدها . بل بالطبقة العاملة في اكثر البلدان المتخلفة . فليس هناك بروليتاريا صناعية عريقة كما في اوروبا ، والبروليتاريا الفلسطينية كما هي في البلدان العربية الاخرى، بروليتاريا «رثة» ،عمال خدمات بأغلبهم.

ـ الامر هنا مختلف ايها الرفيق . في العراق ،في مصر ،في سوريا ثمة طبقة عاملة ثابتة نسبياً .ثمة بالتالي بورجوازية محلية. والطبقة العاملة في هذه البلدان دخلت وتدخل في صراع طبقي مع مستغليها المحليين والاجانب .الامر مختلف الى حد معين بالنسبة لفلسطين . ثمة عمال فلسطينيون في الكويت ،في السعودية، في العراق، في لبنان. .الخ وتناقضاتهم ليست مع البورجوازية الفلسطينية بل مع البورجوازية المحلية والمستغلين الاجانب في البلدان التي يقيمون فيها . وبهذا فان نضالهم الطبقي جزء من النضال الطبقي لعمال هذه الاقطار . وبالمقابل فان الرأسماليين الفلسطينيين اندمجوا بالبورجوازية المحلية او تشاركوا مع الرأسمال الاجنبي في الاقطار التي اقاموا فيها . وهم يمارسون ،شأنهم في ذلك شأن الرأسماليين الاجانب والمحليين ،استغلال كادحي هذه البلدان . اريد ان اخلص من هذا الى انه لم يقدر لقطبي الصراع الطبقي: العمال وحلفاؤهم، والبورجوازية بمختلف اجنحتها وحلفاؤها ، ان يدخلوا في علاقات انتاجية . وحتى لو دخلوا في مثل هذه العلاقات في مرحلة معينة من مراحل التاريخ الفلسطيني الحديث ، فان العدوان الامبريالي الصهيوني قد قطع سلسلة التطور الطبيعية هذه . كلا ايها الرفيق لست يمينياً ولكن حملي للأفكار اليسارية لا يمنعني من معاينة الوضع الحقيقي للأشياء . انه على العكس يدفعني الى ذلك دفعاً ويمكنني من رؤية افضل للاشياء كما هي في الواقع . تستشهدون غالباً بتجربة الثورة الصينية ولكنكم تؤكدون فحسب على جانب واحد من هذه التجربة الفذة . اعني حرب التحرير الشعبية . ونادراً ما تشيرون الى النشاط السياسي الهائل المتعدد الوجوه الذي مارسه الحزب الشيوعي الصيني ، حتى اصبح بامكانه قيادة حرب التحرير الشعبية الى النصر . أود ان اذكر بفترة معينة من تاريخ الصين الحديث واعني بها فترة الغزو الياباني عندما طرح الحزب الصيني شعار الجبهة المتحدة وتعاون ليس مع البورجوازية الوطنية فحسب بل حتى مع تلك الاقسام من البورجوازية الكبيرة التي خانت الثورة وارتبطت بالرأسمال الاميركي . لقد تحالف الحزب حتى مع شان كاي شك الذي قاد حرب الابادة ضد الشيوعيين عام ٢٧ ، والقى بالشيوعيين والعمال الثوريين وقوداً للقاطرات في شنغهاي . انكم تتحدثون عن القوانين العامة للثورة في البلدان المتخلفة ولكن ما هي خصوصية الثورة الفلسطينية ؟ لست ضد تبنيكم ايديولوجية الماركسية – اللينينية . انني على العكس اؤمن ان الفكر الماركسي هو وحده القادر على حل معضلات الثورة العربية والفلسطينية . وانا اؤمن ان احد النواقص الاساسية للثورة الفلسطينية هي غياب الفكر والتنظيم الماركسي – اللينيني الجماهيري لفترة طويلة . لكني ضد التبني الشكلي للماركسية . ضد التطبيق النصي بدون دراسة الواقع الخاص بوطنكم . انا بمعنى آخر ضد الخلط بين مسائل النضال الايديولوجي وقضايا التكتيك اليومي . الماركسية

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ايديولوجية طبقية . صحيح . لكن هذا لا يعني بالضرورة افتعال او توهم صراعات طبقية غير موجودة . مرة اخرى ، ما هي خصوصية الثورة الفلسطينية ، وما هو التناقض الأساسي للثورة الفلسطينية ؟

ـ تعتقد اننا نخلط بين قضايا الايديولوجية والتكتيك ؟ لكنني ألاحظ انك تخلط واسمح لي ان استعمل تعبيرك بين مسألة القيادة في الثورة ومسألة التحالفات . وحده ، الحزب الماركسي -- اللينيني ، الحزب الطبقي بامكانه ان يمارس سياسة تحالفات صحيحة . ولكي يصبح هذا بمقدوره فان عليه قبل كل شيء ان ينفصل تنظيمياً وايديولوجياً عن المنظمات البورجوازية الصغيرة ويمارس دوره المستقل داخل المجتمع . وان يتولى قيادة الثورة . وفيما عدا هذا فان سياسة التحالفات ستقود في الواقع الى الاستسلام لايديولوجية ومصالح البورجوازية والسير في ذيل الحركة . لسنا ضد التحالف مع الطبقات والفئات الاجتماعية الاخرى . ولكننا ضد قيادة البورجوازية الصغيرة لحركة الكفاح المسلح وللثورة باسرها لأننا نؤمن ، استناداً إلى التجربة التاريخية ، ان هذا سيقود في الواقع الى هزيمة جديدة .

ـ لكن كيف تتصور ان مسألة قيادة الثورة ستحل ايها الرفيق ابو العبد ، باتخاذ قرار بان المنظمة الفلانية ، بما انها تتبنى الايديولوجية الاكثر ثورية والبرنامج الاكثر جذرية وتعبر عن مصالح الطبقات الاكثر استعداداً للكفاح حتى النهاية ، فهي التي يجب ان تقود .وعليكم انتم يا ممثلي البورجوازية الوطنية والصغيرة ان تتخلوا عن مقعدكم لنا؟

ـ كلا . بالتأكيد . ليس لدينا اي وهم بان مسألة القيادة ستحل بهذه الطريقة الطوباوية . إننا على العكس نعتقد ان مسألة القيادة تحل عبر الكفاح اليومي الدؤوب وعبر تمتين التحالف مع الفلاحين جيش الثورة الاساسي والفقراء منهم خصوصاً وعبر سياسة تحالفات مبدئية وطبقية . اما خصوصية الثورة الفلسطينية التي أثرتها فتكمن في انها تواجه استعماراً استيطانياً. وهي بهذا حركة لاسترداد الأرض قبل كل شيء . ولكننا نؤمن ان الكادحين الفلسطينيين هم اصحاب المصلحة الحقيقية في استرداد الارض . وهم الاكثر قدرة على مواصلة الكفاح بمختلف اشكاله ، وخصوصاً الكفاح المسلح حتى النهاية .

لكن الرفيق العربي من المانيا كان له رأي آخر :

التناقض الأساسي،هكذا يعلم ماركس، هو التناقض بين العمل ورأس المال .

ـ «صحيح» أجبت ولكن لم يقدر لماركس ان يشهد تطور الرأسمالية في اواخر القرن التاسع عشر الى مرحلتها الجديدة العليا الامبريالية وقدر للينين ان يحلل هذه الظاهرة الجديدة بعمق وان يكتشف بالتالي ان الحركة الوطنية في الاقطار المستعمرة والتابعة جزء من الثورة الاشتراكية . التناقض يظل على النطاق العالمي بين العمل ورأس المال ولكن يتوجب البحث عن الاشكال الخاصة التي يتبدى بها هذا التناقض في كل حالة ، وكل قطر.

حسناً . اني زائر وحسب يبحث عن الحقيقة . ولعلكم تعرفون ظروف وطبيعة نضالكم اكثر مني ولكن لدي بعض الملاحظات :

١ ـ ان الصراع الايديولوجي داخل الثورة الفلسطينية هو بمعنى من المعاني انعكاس للصراع الايديولوجي على النطاق العالمي بين الايديولوجيتين الاشتراكية والبورجوازية .

٢ ـ انه بهذا المعنى وبحكم الترابط الجدلي الوثيق بين الثورة الفلسطينية والثورة العربية،

امتـــداد للصراع الفكري والسياسي والطبقي بين الايديولوجيتين – البرنامجين : الاشتراكي – والبورجوازي لحل معضلات الثورة العربية .

٣ - هــذا الصراع ، بتعبير آخر ، ليس انعكاســاً لصراع طبقي ملتهب على الساحة الفلسطينية نفسها .

٤ - ملاحظة اخيرة .حاولت البورجوازية بمختلف اجنحتها وخصوصاً البورجوازية الصغيرة ومنظماتها السياسية في الوطن العربي - حاولت طيلة عقدين او اكثر من السنـــين ان تقودحركة الثورة العربية الى مواقع يمينية وقومية متعصبة متذرعة بالقضية الفلسطينية . وبحجة الدفاع عن عروبة فلسطين كانت تحارب الفكر التقدمي اليساري ، ولكن قضية فلسطين نفسها اليـــوم تدفع حركة الثورة العربيةبأسرها بما في ذلك اجنحة مهمةمنالبورجوازية الصغيرة اكثر فاكثر الى مواقع الفكر اليساري والتقدمي لأن جماهير فلسطين والجماهير العربية ادركت بتجربتها ان هذا الفكر وحده هو القادر على قيادة الثورة العربية وفي المقدمة الثورة الفلسطينية ، الى انتصارات حقيقية . اليس هذا ايها الرفيق ابو العبد ، منطق التاريخ ، او ما يسمى « بجدليـــة التاريخ »؟

ابتسم ابو العبد . لنستأنف النناش في الخيمة . فالمقاتلون والزوار من حولنـــا تعبوا . وفي عيني اكثر من واحد من المقاتلين قرأت نظرة عتاب . « واحـــد يحدثنا عن روزا لوكسمبرغ . والآخر عن جدلية التاريخ .. ايها المثقفون » !

*

- «شيوعي» ؟ سألني ابو العبد في الطريق الى الخيمة .
- «سابق» أجبت ببرارة .
- «وماذا تفعل بيننا »؟
- ابحث عن سيدتي ، وعن الولادة . اخبرني عرّاف اني سأولد من جديد ، عندما التقيها .

أبحث كذلك عن الانسان الجديد، الفلسطيني والعربي الذي يولد في معارك المقاومة الفلسطينية. وفي رأيي ان هذا الانسان يمكن ان يوجد فيمعسكراتكم ، وفي معسكرات المنظمات الأخرى، بل لقد التقيت بعضهم قبل أن آتي اليكم . التقيت بهم بعيداً عن المكاتب . معذرة ايها الرفيق. قرأت الكثير من نشريات المكاتب المختلفة في الصحف البيروتية ، وسمعت الكثير من النقاشات بين منظّري الثورة العربية والعالمية ! في «الدولتشيفيتا» ، و« الهورس شو » عن ستراتيجيـــة الثورة وتكتيكها . وكنت احس الثوري الفلسطيني الحقيقي يختنق بين ضباب اللفائف الأجنبية المترفة والسيجار في المقاهي وعلى ارصفة شوارع الحمراء والروشة .

هنا ، فقط ، في معسكراتكم ، ومعسكرات المنظمات الأخرى ، التقيته ، يعيش ،يتدرب، يمارس البطولة . يموت احياناً ، بصمت ، وعلى شفتيه اغنية حزينة ، وفي عينيه رؤيا . ان بعض المثقفين ، ولعـــلي واحد منهم ، يتكومون على ثورتكم الآن ، مثلما يتكوم الذباب على قرص الحلوى .. كل يريد ان يشارك في وليمة الثورة .. وستعانون كثيراً بسبب ذلك .

اما انا ايها الرفيق ابو العبد ، فزائر عابر ، في الطريق الى سيدتي .

- «رومانسي» ؟ سأل مبتسماً .

*

.. وعاشق يا سيدتي ..

على جبينك زهو الشمس ، وفي عينيك حزن البيارات وفسائل النخيل المجهضـــة . وعلى شفتيـــك ملوحة البحار الغريبة وعذوبـــة الينابيـــع البكر . تظهرين في كل مرة ، جديـــدة ومختلفة . سيدتي ، كيف سيتسنى لي ان اعرفك في المرة الآتيـــة ؟

في خيمة القيادة ، استأنفنا النقاش .
ـ أمضيت بيننا وقتاً طيباً ، كيف ترانا ؟
ـ أنا ، قبل كل شيء ، لم أمض بينكم وقتاً طيباً ، بمعنى ان يومين ، وقاعدة واحدة ليست كافية لتكوين رأي مكتمل .. ولكن اسمح لي ان احدثك عن بعض ما رأيته .

حدثته عن مظاهر البيروقراطية التي لمستها والتي تقود احياناً إلى نقيضها: التحلل والاصطدامات حول مسائل تافهة ، الارتجال في تنظيم الزيارة ، وافتقارها الى برنامج مدروس ، وغيرها من المسائل الصغيرة .

وكان ابو العبد يقضم شاربيه ، ويتسمع بصمت ، يقطب حيناً ، ويبتسم حيناً ، وكان مقاتلون آخرون ينصتون ، وفي اعينهم شعور بالذنب ، وبالعتاب : « حسناً ، ايها المثقف .. عملتها فينا !»

بلى سأتكلم ، ما دمتم تعرفونني الآن افضل . وبعد ، فانكم تدركون . لست منكم ، ولكني صديق ، صديق ايها الرفاق .

ـ « ندرك دوافعك . وسنحقق في انتقاداتك . سنعقد الليلة اجتماع نقد ونقد ذاتي . ولكن اسمح لنا ايها الصديق الطيب . اننا نضع خطواتنا الاولى ، وحركة المقاومة ليست حفلة راقصة ينقل فيها الراقصون خطواتهم برشاقة وشفافية . حسناً ، ستتيح لك زيارة قواعد اخرى . ولكن نأمل ان تفهم . هذا هو واقع حركة المقاومة . ان امامها طريقاً طويلاً مليئاً بآلام المخاض والولادة . ستكبو حيناً لتنهض اكثر فتوة وأمضى عزماً . اننا ضد اشاعة فكرة رومانسية عن حركتنا .»

.. وكنت اجمع أشيائي الصغيرة : النعل المهترىء ، وفرشاة الاسنان ، و« الزبون ». ضحكت لو تسنى له الآن ان يراني ذو الشاربين الكثين الاسودين ، والوجه المحروق . اني اضحك من نفسي بالنيابة عنك . وعندما ستلتقي بالبورجوازي الصغير مرة ثانية ، فسيكون لديه ما يحدثك عنه . لم يهرب . بقي ، وانتقد ، واثار نقاشات حامية . صاحبك البورجوازي الصغير .

*

شددت على ايديهم الخشنة المتربة مودعاً ، وشدوا على يدي بقوة . تناقشنا ، وانفعلنا ، ولعله كان بينكم من فكر في البداية بقيادتي الى الجانب الآخر من التل . ولكن ، ها نحن أولاء ، يشد بعضنا على ايدي البعض الآخر ، ونتبادل التمنيات ، ونتفاهم بشكل أفضل . وبعد كل شيء ، انتم وصاحبي ذو الوجه المحروق ، محقون ، فأنا شبه مثقف ، برجوازي صغير ، ورومانسي كما قال ابو العبد . ولعلي سأبقى هكذا .

صرخ بي احدهم وانا ارتقي السيارة : «اجمع» ! فجمدت عند الباب .. ضحك .. ثم قال «لا تنس نشيد الأممية .. أرسله لنا كاملاً ».

كانوا يلوحون ، والسيارة تبتعد بي ، وبزوار آخرين ، وبعضهم انشد .. وكنت كلما ابتعدت بنا السيارة ، وتضاءلوا ، أراهم أكبر .

وعندما غابوا تماماً ، حضروا ...

ابراهيم الحريري

دفتر افكار

الشعر والثورة :

ندوة لبنانية - سوفياتية

بدعوة من اتحاد الكتاب السوفيات ، عقدت في موسكو بين ١١ و١٢ ايلول الماضي ندوة سوفياتية – لبنانية بحثت فيها بعض مشكلات العلاقة بين الأدب والمجتمع ، ووسائل توثيق الصلات الثقافية بين اتحاد الكتاب السوفيات واتحاد الكتاب اللبنانيين *.

افتتحت الندوة بكلمتين ، ألقاهما اليكسي سوركوف وسهيل أدريس أكدا فيهما أهمية اللقاء بين الاتحادين ، وأهمية توثيق العلاقات بينهما . ثم أعطي الكلام لأدونيس ، فقدم بعض الملاحظات حول الشعر والثورة .وقد أثارت

---

* تألف الوفد السوفياتي من : اليكسي سوركوف (شاعر ، أحد الأمناء العامين لاتحاد الكتاب السوفيات) ، قيصين كوليف (شاعر) ، روبرت روجديستفنسكي (شاعر) باولو بوتزو (شاعر ، سكرتير اتحاد كتاب جمهورية مولدافيا) ، سيمون كيرسانوف (شاعر) ، ميخائيل كودينوف (شاعر ، مترجم) ، موريس فاكساخر (ناقد ، ومترجم) ، ميخائيل لوكونين (شاعر) ، قسطنطين تشوغونوف (رئيس تحرير مجلة الادب الاجنبي) ، أنور عليم جانوف (شاعر) ، يوري روميانتسيف (نائب رئيس القسم الآسيوي الافريقي في اتحاد الكتاب السوفيات) .

وتألف الوفد اللبناني من : عايدة مطرجي ادريس ، سهيل ادريس (الامين العام لاتحاد الكتاب اللبنانيين) ، محمد يوسف نجم ، جوزيف مغيزل ، حسين مروه ، منير بعلبكي ، محمد دكروب ، أدونيس .

ملاحظاته نقاشاً طويلا بين المؤتمرين * .

تركز النقاش الذي أثارته ملاحظات أدونيس حول ثلاث قضايا : علاقة الشاعر الثوري بتراثه ، علاقته بالنظام السياسي والايديولوجيا ، علاقته بالجماهير . وكان هذا النقاش بالغ الأهمية لأنه كان مناسبة لتوضيح بعض المفاهيم التي شاعت خطأ ، وبخاصة فيما يتعلق بالشعر والثورة السوفياتيين . وزاد في أهميته أن بين الذي شاركوا فيه شعراء رافقوا الثورة منذ بداياتها ، وبينهم من كان رفيقاً وصديقاً لمايا كوفسكي (سيمون كيرسانوف) .

١ - سيمون كيرسانوف : لا شك أن وجود شاعر كأدونيس في المجتمع العربي دليل على أن لهذا المجتمع مستقبلا عظيماً . إن في ملاحظاته ما يشير الى مشكلاتنا ، رغم اختلاف ظروفنا وأنظمتنا . فنحن ما نزال نواجه ، مثلا ، مشكلة العلاقة بين المضمون والشكل ، وبين اللهب والموقد كما يعبر أدونيس. لقد فتح مايا كوفسكي أبواب اللهب ، فيما وضع قدميه في الموقد. كانت تلك لحظة تاريخية عشناها مع نمو الثورة . كان هناك تناقض بين التراث والتجديد ، بين الموقد واللهب ، لكن الفرق بينهما أخذ يتلاشى . فالثورة غيّرت التقاليد نفسها . لكن لا بد من الملاحظة أن الشكل الجديد ليس بالضرورة ثورياً . الشكل عند الشاعر تفاردوفسكي* مثلا ، شبه تقليدي ، ومع ذلك نعتبره شاعراً ثورياً . غير أننا في الوقت نفسه نؤكد ما قاله أدونيس من أن الشاعر هو لهب الامة .

أما فيما يتصل بعلاقة الشاعر بالنظام ، فأعتقد ان التناقض بين الثورية والنظام يضعف في البلدان الاشتراكية الثورية حقاً ، ويتلاشى فيها ، بالتالي ، التناقض بين الثورة والتقليد .

وفيما يتصل بالعلاقة بين الشعر والجماهير ، فقد تمنى شعرنا أن تفهمه الجماهير . أحياناً بسطنا على حساب العمق . كان هذا التبسيط نتيجة للمذهبية وترسيخاً لها في آن . وساعد في تشديد هذه المذهبيـة فهم خاطيء لبعض آراء لينين . وبخاصة الرأي الذي ورد على لسان كلارا زاتكين .

وكان هذا الفهم الخاطيء نتيجة للترجمة الخاطئة . فقد اوردت على لسان لينين عبارة ترجمت من الالمانية الى الروسية هكذا : « يجب أن يكون الفن مفهوماً من الشعب » . أما الترجمة الحقيقية فهي هذه : « على الشعب أن يتعلم كيف يفهم الشعر » .

وهذا ما يؤكده الحوار الذي دار بين لينين وكلارا زاتكين . كان لينين يقول : الخبز أولاً ، ثم العلم . وهذا ما يحلم به أدونيس : التآلف بين الشعر والجمهور المثقف . كثيراً ما كان يقال إن الجماهير لا تفهم مايا كوفسكي أو باسترناك. لكن من الصعب أن نجد الآن سوفياتياً يقول عن هذين الشاعرين انهما غير مفهومين .

ان القاريء يبحث عن نفسه في شعر الشاعر . الشعر من هذه الناحية يفصل الانسان عن

---

* ألقت عايدة مطرجي ادريس كلمة عن « أدب المرأة والمجتمع العربي » ، ومحمد دكروب كلمة عن « آثار هزيمة حزيران في القصة العربية القصيرة » ، اكتفي بسماعها ولم يدر حولها نقاش وقد نشرتها « الآداب » في عددها الأخير ، تشرين الأول ١٩٦٩ .

* رئيس تحرير مجلة «نوفي مير» (العالم الجديد)

الجمهور . يتيح للانسان ان يعي ذاته . للشعر ،بهذا المعنى ، دور غير نقل الافكار . لكن هذا لا يعني أن الشاعر يجب ان يعتزل . كانت العزلة موقفاً تقليدياً للشاعر في الماضي . لكن ميزة الشاعر الجديد هي اليوم ان يكون ضد العزلة ، أن يكون ضد اللامبالاة ؛ ان ميزته هي في نفيه الفعال للامبالاة . وأدونيس ينفي اللامبالاة في كلمته نفياً فعالاً .

٢ - سهيل ادريس : اننا لا نوافق أدونيس في نظرته الى العلاقة بين الشاعر والجمهور . فهو يجعلها علاقة قائد بمقود ، أو تابع بمتبوع . والواقع أنها علاقة تبادل وتواصل ، تأثيراً وتأثراً . ثم ان الشاعر الثوري لا يقدر أن يقود الجمهور اذا لم ينقد اليه هو أولاً . أضف الى ذلك ان الشاعر الثوري لا يولد الا في مجتمع ينبض ببذور الثورة . فالمجتمع غير الثائر لا ينتج شاعراً ثائراً. ولو لم يكن عالمنا العربي ينبض ببذور الثورة لما نشأ فيه شاعر ثوري واحد. ان المجتمع هو المنبع والمصب لكل نتاج أدبي .

٣ - روبرت روجديستفنسكي : يصعب بحث الموضوعات التي أثارها صديقنا أدونيس في الوقت المحدد لنا . لكنني أريد أن أؤكد على التلاحم بين الشعر والسياسة . ليس هناك مشاهدون على مسرح الحياة . الحياة مسرح مناضلين ، لا مشاهدين . أكيد أن العالم اليوم خال من الابراج العاجية . لكن الشاعر يستطيع أن يصطنع برجاً يعيش فيه منعزلاً . غير ان حياته هذه ستكون عديمة الجدوى . ان أي كيان ينفصل عن السياسة كذب خالص . فلا خيار أمام الشاعر : لا فصل بين الشعر والسياسة .

٤ - حسين مروه : هناك صعوبات كثيرة في فهم أدبنا العربي تنشأ من نوع مشكلاتنا . شعبنا العربي كله في حركة وطنية ثورية ، يتداخل فيها الكفاح الاجتماعي والكفاح الوطني للتحرر من الاستعمار .هذا التداخل قسم الادباء الى تيارات عديدة . معظم الكتاب الوطنيين يقفون مع حركة التحرر ضد الاستعمار . لكنهم فيما يتعلق بحركة التحرر الاجتماعي ، ينقسمون الى تيارات تقدمية ووطنية وهي جميعها ثورية ، لكنها تختلف بمفاهيمها الثورية وأهدافها وأساليبها . ومن هنا تختلف النظرة الى ادبنا العربي تبعاً لاختلاف هذه المفاهيم . وفي كلمة أدونيس صورة لهذا الاختلاف .

يقول مثلاً ان المجتمع العربي لم يصبح بعد ثورياً ، مع انه يواجه مشكلات ثورية . وفي رأيي أنه لا يمكن القول ان مشكلاتنا ثورية ومجتمعنا غير ثوري . فلا يمكن الفصل بين المشكلات الثورية والمجتمع ، فهي ليست خارجه ، بل داخله ، وهو الذي خلقها . وعلى هذا فان المجتمع العربي في حالة ثورية ، وفي حالة تحرر اجتماعي ووطني . لقد حدثت فيه ثورات عديدة تجسدت في طبقات متعددة الاتجاه . ومن هنا نشأت المشكلة الثورية ، وان كانت الثورية فيه لم تصل بعد الى مستوى أن تصبح نظرية .ليست الثورة تغيير نظام العلاقات القديم بنظام جديد، كما يقول أدونيس ؛ فهذا التغيير هو هدف الثورة ، لا الثورة نفسها . عدم التغيير لا يعني اذن عدم وجود الثورة . لهذا اكرر ان المجتمع العربي مجتمع ثوري .

انني اوافق تمام الموافقة على ما قاله ادونيس عن علاقة الشاعر بتراثه وعلاقته بالنظام القائم . لكنني اعتقد في الوقت نفسه أن وجود شاعر في المجتمع العربي مثل أدونيس يؤمن بالثورة الى هذا الحد ، بالاضافة الى كونه شاعراً ثورياً ، دليل على ان مجتمعنا ثوري .

صحيح ما يقوله أدونيس من أن الشعب العربي لم تصبح لهبعد نظرية ثورية.صحيح كذلك ان

الشاعر يتقدم الشعب بعبقريته في رؤيته للأشياء ، لكن لا يمكن أن تكون ثوريته خارج المجتمع . واود هنا ان اوضح ان هناك شعراء نعتبرهم ثوريين وليست لهم نظرية ثورية .

أما فيما يخص الثورة الفلسطينية فهي ثورة فعلية تقدمية كما يقول أدونيس لانها ضد الاستعمار ولانها تحمل في داخلها بذور تحرر اجتماعي . لكنني فهمت منه كأنه يجعل منها ثورة منفصلة عن الثورة العربية . ورأيي انها تمثل شكلا او اسلوباً من الثورة العربية . فهذه وحدة ، ولكن بأشكال ثورية مختلفة . ومن الخطر كما أظن اعتبار الثورة الفلسطينية منفصلة عن الثورة العربية .

٥ - اليكسي سوركوف : ان كلمة أدونيس مليئة بالافكار . والصورة التي أعطاها عن اللهب والموقد صورة تناسبنا . أحب ان اكتفي بالتوكيد على ان هناك جدلية بين الشاعر والجمهور ، بين الادب والشعب . واذكر هنا ما كان يردده مايا كوفسكي من أن الشاعر هو قائد الشعب وخادمه في آن .

كذلك أحب ان اشير الى انه كان على الشعراء والادباء الروس في بدايات الثورة ان يختاروا بين الماضي والمستقبل . ولم يكن هناك مكان لحل وسط . وقد اختار غوركي ومايا كوفسكي المستقبل .

وفيما يتعلق بالثورات التي تتفجّر في العالم العربي وفي بلدان أخرى من العالم الثالث ، فهي ثورات تحررية ، ما تزال ذات طابع وطني وقومي . ان لثوراتكم اذن ميزات خاصة بها ، ذلك ان ظروفها تختلف عن ظروف ثورتنا . ولا بد من أن تكون هذه الميزات قد ظهرت في نتاجكم الأدبي .

٦ - محمد دكروب : إن نشأة الادب الثوري في المجتمع لا تتوقف ، بالضرورة ، على قيام نظام ثوري . فقد دلت التجربة على ان من الممكن ان ينمو الادب الثوري في مجتمع أو نظام اقطاعي . بل ان الادباء الثوريين هم الذين يمهدون لقيام النظام الثوري . لهذا أعتقد ان الكاتب الثوري يرتبط ، في المجتمع الاقطاعي ، بالفئة الثورية ، لا بهذا المجتمع او بنظامه . ومن هذه الزاوية ننظر الى الادب الثوري في العالم العربي .

٧ - انور عليم جانوف : ان مفهوم ادونيس عن الشعر الثوري واسع لكنه محدّد. ان الشاعر المبدع متصل بالشعب ، ضرورة ، لانه يعبّر عن الحقيقة. ولهذا فان الشعر بطبيعته ثوري . هكذا كان الشعر الكازاخستاني ثورياً في حين كان مجتمعنا اقطاعياً وهكذا حيّا شعراؤنا الثورة الروسية على الرغم من ان مجتمعنا لم يكن آنذاك مهيأً للثورة . ان مسؤولية الكاتب امام جمهوره اصبحت أمراً بدهياً لا يناقش .

٨ - قيصين كوليف : كلمة ادونيس رائعة . وقد طرح فيها المشكلات بشكل عظيم . الشاعر الكبير لا بد ان يكون ثورياً ، لانه يحب الحقيقة ولانه يقف ابداً الى جانب الضعفاء ، المظلومين ، المستغلين . وهذا واضح ، بدهي . احب هنا ان اوضح مسألتين مهمتين. الاولى هي أن كل شاعر يكتب بلغته الام ، لكنه يجب ان يكتب للشعوب الاخرى . فما العمل ؟ الجواب هو ان الشاعر حين يعبر عن تجربة شعبه التاريخية ، وعن ارضه يسلك الطريق الوحيد الى ان يكون ثورياً من جهة ، والى ان يصبح عالمياً من جهة ثانية . ومن هذه الناحية ليس هناك فنان شرقي وفنان غربي . هناك فنان وحسب : حين يغني شاعر جبال وطنه ، مثلاً ، فهو في ذلك يغني جميع جبال العالم .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

اما المسألة المهمة الثانية فهي ان على الشاعر الثوري ، لكي يبقى ثورياً ، أن يبقى فناناً .

٩ - **قسطنطين تشوغونوف** : لا بد من ان يوجد الادب الثوري في كل مجتمع رأسمالي او انتقالي . اما فيما يتعلق بالثورة العربية ، فان فيها تناقضات كثيرة . ويصعب تحليل المجتمع العربي دون معرفة هذه التناقضات . بالاضافة الى ان الوحدة اللغوية والدينية والجنسية في العالم العربي لا تكفي لوحدة الثورة العربية .

وهناك ناحية لا بد من الاشارة اليها ، وهي اننا حينما نتحدث عن الثورة ، بشكل عام ، نعني الانتقال من حالة الى حالة . الماركسية تقسم الثورة الى نوعين: ثورة طبقة مستغلَّة تصبح بدورها مستغلّة.وثورة تقضي على الاستغلال كلياً . ودور الشعر يتغير ،بالطبع ، تبعاً لهاتين المرحلتين . وهذا يعني ان الأدب هو في كل حال ، وثيق الصلة بالسياسة .

وقد شارك محمد يوسف نجم خلال المناقشات في ايضاح الوضع الثوري العربي فقال بأن الثورة العربية ما تزال حديثة العهد . وقعت سنة ١٩٥٢ وبدأت فعلاً سنة ١٩٥٦ . ومن الطبيعي اذن أن لا يكون قد نشأ بعد جيل الكتاب الذين يعبرون عن هذه الثورة .

وأشار الى ان العالم العربي ، رغم انه يتحدث بلغة واحدة ، ورغم أن تاريخه واحد ، مختلف في اوضاعه بين بلد وآخر .فهناك المجتمع الديني ، والمجتمع الاقطاعي ، والمجتمع الثوري. وهي مجتمعات متمثلة في دول . لهذا نلاحظ تبايناً شديداً بين ادبائنا . وهكذا عندما نتحدث عن الادب العربي الثوري ، لا بد من ان نتحدث عن بلاد معينة .

وحول هذا الرأي علقت عائدة ادريس بقولها اننا قد نجد مختلف انواع المجتمعات في نطاق دولة واحدة ، على عكس ما يقوله محمد نجم . فالدول العربية الرجعية لا تضم بالضرورة مجتمعات رجعية . والا كيف نفسر مثلاً ثورة ليبيا التي كانت ، الى ايام قليلة ، احد المعاقل الرجعية العربية ؟

وفي ختام المناقشات رد أدونيس موضحاً بعض آرائه التي بدا ان بعض اصدقائه من الوفد اللبناني رأوا فيها أكثر مما قصده ، وغير ما قصده . وكانت هذه الآراء واضحة بالنسبة الى اصدقائه السوفيات، حتى ان كثيراً مما قالوه كان بمثابة رد على بعض ما ورد في آراء الذين شاركوا في المناقشة من أعضاء الوفد اللبناني . وقال ادونيس ان اكثر ما أود قوله سبقه اليه الاصدقاء السوفيات وبخاصة كيرسانوف فيما يتعلق بمعنى الثورة ، بالمفهوم الماركسي . وتابع قائلاً :

ان المجتمع العربي لم يصبح بعد مجتمعاً ثورياً بمعنى ان نظام علاقاته القديم ، الاقتصادي والثقافي والاجتماعي ، لم يتغير تغيراً جذرياً ويحل محله نظام علاقات جديد . وهذا المعنى هو المقصود من كلمة ثورة ، في المفهوم الماركسي ؛ وهو نفسه المعنى الذي أكده الشاعر سيمون كيرسانوف في رده على حسين مروه ، مؤكداً ان المجتمع العربي لم يصبح بعد ، بهذا المعنى الجذري الذي يقصده ادونيس ، مجتمعاً ثورياً .

وأضاف ادونيس قائلا ان الحركة الثوريةالعربية ما تزال ضمن اطار التحرر الوطني والقومي.

أما عن الشاعر والجمهور فقال ادونيس انه يؤكد في كلمته العلاقة الجدلية بينهما . وهذا واضح فيها .واضاف قائلا ان الشاعر العربي في هذه المرحلة الثورية التحررية يجب ان يكون جذرياً ، صلباً ، عنيفاً ، خشية ان تصنع الثورة باسلحة غير ثورية . وفيما اكد ان الشاعر ضمير الشعب اكد على انه كذلك ناقد الشعب . فلكي ننقد شعبنا يتحتم علينا احياناً ان نحطم أغلى ما يقدسه .

أما عن الشعر والسياسة فأوضح ان كلمته تؤكد الصلة الجوهرية بينهما . وقال اننا من هذه الزاوية يمكن ان نعرّف الشاعر بانه حيوان سياسي .

ومن الواضح فيما يتعلق بالثورة الفلسطينية ، أنه لا يفصلها عن الثورة العربية ، بل بالعكس يجعلها النواة الحقيقية للثورة العربية الشاملة .

وبعد ان انهى ادونيس ايضاحاته هذه اختتم اليكسي سوركوف المناقشات مؤكداً اهمية الافكار التي أثارها ادونيس ، قائلا ان عليه وعلى العرب جميعاً ألا يخافوا من التقاليد والتراث، لانهم اصحاب حضارة اصيلة عريقة . فالامة التي لا ماضي لها ، لا مستقبل لها . فالانطلاق من الماضي شرط للاتجاه نحو المستقبل. وكان قد أعلن خلال كلمته رغبة اتحاد الكتاب السوفيات في ترجمة مختارات من شعر أدونيس الى الروسية ومنها الى بعض اللغات السوفياتية الاخرى . وقد تم مبدئياً الاتفاق على هذه الترجمة .

وفي الجلسة الثانية استمع المؤتمرون الى كلمتي عايده ادريس ومحمد دكروب ، وبعد ذلك اختتمت الندوة باتخاذ المقررات التالية :

١ ــ لقاءات دورية بين مندوبي الاتحادين في لبنان والاتحاد السوفياتي لتوثيق التعارف بين الادباء وتعزيز التعاون .

وقد وجه اتحاد الكتاب اللبنانيين الدعوة الى وفد يمثل اتحاد الكتاب السوفيات للقاء آخر في بيروت خلال عام ١٩٧٠ ، على ان يحدد الموعد الدقيق للقاء وموضوعه بالتشاور بين الاتحادين .

٢ ــ تبادل الآثار والمؤلفات والمنشورات على اختلافها بين الاتحادين ودراستها ليطلع ادباء كل بلد على نتاج ادباء البلد الآخر اطلاعاً واسعاً .

٣ ــ الاتفاق على ترجمة آثار نموذجية من الثقافة السوفياتية الحديثة الى اللغة العربية ، على ان يسعى اتحاد الكتاب اللبنانيين لدى بعض دور النشر اللبنانية لنشر هذه الترجمات وتوزيعها في العالم العربي .

٤ ــ الاتفاق على اختيار مجموعات من الشعر والروايات والقصص والمسرحيات والدراسات العربية لترجمتها الى الروسية ونشرها في الاتحاد السوفياتي .

٥ ــ الاتفاق على نشر نتاج الادباء اللبنانيين في المجلات السوفياتية المتخصصة في الفكر والأدب ، ونشر نتاج الادباء السوفيات في المجلات اللبنانية المماثلة .

٦ ــ دراسة امكانية تقديم نتاج كتاب البلدين وفنانيها في المسارح والمعارض في البلدين .

٧ ــ التعاون لتوزيع الكتب والمجلات التي يصدرها كل بلد في البلد الآخر اما بواسطة الاتحاد او عن طريق مكتبات متخصصة .

٨ ــ دراسة امكانية اصدار مجلة شهرية او فصلية باللغة العربية في الاتحاد السوفياتي على غرار المجلات التي تصدر باللغات الاجنبية الأخرى .

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

٩ ـ اقتراح تأليف قاموس عصري حديث جـامع ، روسي عربي ، وعربي روسي .

١٠ ـ اقتراح دعوات كتاب من كل بلد يقيمون في البلد الآخر فترة لا تقل عن سنة تمكنهم من التعرف عن كثب الى الاتجاهات الفكرية والادبية والفنية .

ملاحظات حول الشعر والثورة

وفيما يلي النص الكامل لملاحظات أدونيس :

على الرغم من ان المجتمع العربي * لم يصبح بعد مجتمعاً ثورياً ، فان المشكلات التي يواجهها مشكلات ثورية . قضية الادب والمجتمع التي نتداول فيها اليوم هي ، لذلك ، بالنسبة الينا ، نحن العرب ، قضية الأدب والثورة .

اقصر ملاحظاتي هنا على الشعر . ويبدو لي ان ما يشغل الشاعر العربي الثوري فيما يتصل بالعلاقة بين الشعر والمجتمع ، يمكن ايجازه في ثلاثة امور :

١ ـ علاقة الشاعر الثوري بتراثه .

٢ ـ علاقته بالنظام القائم .

٣ ـ علاقته بالشعب .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

١ ـ الشاعر والتراث

فيما يتعلق بالناحية الأولى اوجز ملاحظاتي كما يلي :

اولاً ـ النظرة التقليدية تعتبر التراث مثالاً كاملا . وترى ان مهمة الشاعر ان يقلد هذا المثال ، فيكرره بشكل او آخر . التراث ، بحسب هذه النظرة ، نموذج واصل وينبوع لكل ابداع . اما النظرة الثورية فتميز اولاً بين مستويين في التراث : العمق والسطح ، او اللهب والموقد . الموقد يمثل الطرائق والأساليب والاشكال . واللهب يمثل الحركة والتفجر . الموقد متصل بالفترة الزمنية ، بتجربة معينة في زمان ومكان معينين . اما اللهب فمتصل بالانسان كانسان ، بالحياة كحياة . والشاعر الثوري يتأصل في اللهب لا في الموقد .

ثانياً ـ هكذا يأخذ الشكل ، في النظرة الثورية ، معنى جديداً . انه حالة

---

* خلاصة مكثفة لدراسة طويلة عن « الشعر والثورة في الحياة العربية المعاصرة »، ننشرها بنصها الكامل في عدد مقبل من «مواقف» خاص عن «الشعر والثورة» .

منتهية من اللانهاية. اعني ان الشكل متناه ، بينما الحياة لا متناهية . تغير الشكل من هذه الناحية ، هو اذن مقياس لتغير المجتمع. والتمسك بشكل واحد لا يتغير دليل جمود وتخلف .

ثالثاً ـ اعادة النظر المستمرة في الماضي وفي كل شيء هي اذن صفة جوهرية من صفات الشعر الثوري . وتعني اعادة النظر ، فيما تعني ، ان الشعر الثوري لا يجيء من الماضي ، اي من النموذج والمثال ، بل من المستقبل ، اي من المغامرة والمجهول . وتعني كذلك اننا اذا اردنا ان ننقذ الماضي فلا بد من ان نتجه نحو المستقبل .

رابعاً ـ ينتج عن الملاحظات السابقة ، ملاحظة اخيرة هي ان الجوهر الحقيقي للتراث الحي هو البحث والتجريب ، لئلا يجيء الغد مطابقاً للامس والحاضر شبيهاً بالماضي ، كما في المجتمعات التقليدية . الوقوف ، اذن ، في وجه التجديد ، أياً كان [1] ، ليس وقوفاً في وجه التراث وحسب ، بل هو كذلك وقوف في وجه الانسان . فحين نعرقل التجديد نعرقل نمو الانسان والحياة. ولذلك فان مقياس القصيدة الثورية حقاً هو في مقدار ما تفتح من آفاق المستقبل.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

٢ - الشاعر والنظام

وفيما يتعلق بالناحية الثانية ، اي علاقة الشاعر الثوري بالنظام القائم ، اوجز ملاحظاتي فيما يلي :

اولاً ـ لا بد للثورة لكي تغير وتفعل فعلها من ان تتجسد في نظام .

لكن الثورة اشمل من ان تكون نظاماً وحسب . لذلك يميز الشاعر الثوري بين الثورة كحركة ، والثورة كنظام . الثورة ـ الحركة هي ضمان الثورة ـ النظام .هي اللهب الذي يتيح للنظام ان يتجدد ويتجاوز نفسه باستمرار .وحين يحاول النظام ان يلبس الثورة كالرداء ، وان يحولها الى مؤسسة تختنق وتتلاشى.

ثانياً ـ الشاعر الثوري متصل بالثورة ـ الحركة . الشعر والثورة ، من هذه الناحية ، واحد . ذلك ان النظام مرتبط بتاريخ معين ، بواقع معين . اما القصيدة فتتجاوز التاريخ والواقع ، وان انبثقت عنها . نخطىء اذن حين

---

١) يقول لينين : « ... المقصود هو ان تساعد جميع بذور الجديد ، أياً كانت ، والحياة تختار أيها اكثر قابلية للبقاء » . (في الثقافة والثورة الثقافية ، ص ٩٠ ، الترجمة العربية ، دار التقدم ، موسكو .)

نحاول التوحيد بين الشعر والنظام . ان هذا التوحيد يقتل في النتيجة ، الشعر والثورة معاً .

ويقدم لنا لينين في هذا الصدد قدوة عظيمة . فليس في التقليد اللينيني ما يدل على ان الفن يجب ان يكون تابعاً او خاضعاً للنظام .

انه هو نفسه لم يكن يتخذ من ذوقه الشخصي مقياساً لتقييم الفن . كان يقول بتواضع كل مفكر وقائد عظيم : « لا اقول عن نفسي بأني اختصاصي في شؤون الفن »[1] . ويقول لونا تشارسكي : « ان لينين لم يجعل ابداً من عطفه ونفوره الجماليين فكرة للتوجيه والقيادة »[2] .

وفي هذا يؤكد لينين رأي ماركس الذي كان يناهض الحد من حرية الابداع لاسباب سياسية .

ثالثاً – الشاعر العربي الثوري يجابه ازاء الانظمة القائمة في المجتمع العربي الوضع التالي :

انه يساند بكل قوته الانظمة التحررية العربية في محاربة الاستعمار والصهيونية والامبريالية . لكنه لا يستطيع ، من جهة ثانية ، الا ان يقف ضدها في عدم جذريتها الثورية . فهي تقوم على ثقافة ذات بنية دينية ومضمون تقليدي سلفي . ثم ان موظفي هذه الانظمة يتخذون من اذواقهم مقياساً وحكماً فيحاربون الشعر الثوري ، والانظمة تتبنى موقفهم هذا . هكذا نجد هذه المفارقة : مجتمعات تتجه نحو التحرر ، لكنها تحارب ، باسم الثورة الاتجاهات الثورية الشعرية . وما ينطبق على الشعر هنا ينطبق على جميع النواحي الثقافية الاخرى .

٣ - الشاعر والجمهور

« لكي يكون في وسع الفن ان يقترب من الشعب وفي وسع الشعب ان يقترب من الفن ، ينبغي ان نرفع في البدء مستوى التعليم والثقافة العام »[3] . ليس كافياً ان نقول ان الفن للشعب . فهذا امر اصبح واضحاً . لكن ماذا يعني قولنا : « الفن للشعب » ؟

يقول لينين : « الشعب هو تحالف العمال والفلاحين » . هو ، بعبارة اخرى ،

---

١) في الثورة والثقافة الثورية ، ص ٢٥٠ .
٢) المصدر السابق ، ٢٤٤ .
٣) لينين ، في الثقافة والثورة الثقافية ، ص ٢٢٩ .

الشغيلة الذين يسترشدون بنظرية ثورية غايتها ، بالطبع ، تحويل الواقع جذرياً وكلياً من اجل بناء المجتمع الاشتراكي ، مجتمع المستقبل . لكن هل تكوّن ، بهذا المعنى ، الشعب العربي ؟ ان عمالنا وفلاحينا لا يسترشدون كجمهور باية نظرية ثورية ، وهم غير متحالفين ، بالمعنى اللينيني ،وليس لهم نظرية ثورية ؛ فليست لهم ، بالتالي ، ثورة.

ولا اعرف كيف يمكن ان يتوجه شاعر ثوري الى جمهور ،كجمهورنا العربي، يجهل الكتابة والقراءة ، بالاضافة الى انه جمهور محشو بتقاليد ثقافية ودينية مغلقة تناقض الثورة.ان الجمهور الذي يمكن ان يتوجه اليه الشاعر العربي الثوري في المرحلة الحاضرة،هو الذي يتكون من فئات البورجوازية الصغيرة التقدمية ، وفي طليعتها الطلاب والمعلمون والمثقفون . وهو ما يزال ينتظر التربة التي تتيح لشعره ان ينمو ويتفتح ـ اعني الشعب المتعلم المثقف . الشاعر الثوري لا ينقاد للجمهور ، بل يتقدمه . انه ُيغْنيه ، ويفتح لحسه وفكره آفاقاً جديدة ويسير به في اتجاه المستقبل . وهذا ما قصده لينين في الكلمة التي نقلها غوركي على لسانه والمتعلقة بالشاعر ديميان بيادني ، فهو ينتقده بقوله : « انه مبتذل بعض الشيء ، فهو ينقاد للقارىء في حين ينبغي ان يتقدمه ».

والواقع ان الشعراء العرب الاكثر تأثيراً ليسوا الذين يعبرون عن مشاعر الجمهور وواقعه ، بل الذين يحاولون ان يضعوا امام قرائهم لحظة فنية تثير فيهم مشاعر لم يألفوها وتدفعهم بالتالي الى تجاوز واقعهم والبحث عن واقع آخر.

اختتم هذه الملاحظات بالاشارة الى اننا اليوم نخوض تجربة جديدة هي ظاهرة الثورة الفلسطينية .في هذه التجربة الثورية الحقيقية يثور العامل والفلاح الى جانب المثقف والكاتب . والمسألة في هذه الثورة تتجاوز تغيير البنية السلطوية ، كما الفنا حتى اليوم ، الى تغيير بنية المجتمع ذاتها . هكذا تنمو تجربة شعرية جديدة تواكب هذه الثورة وتحياها . ولعلها ان تكون نواة اللقاء بل الوحدة بين الشعر العربي والثورة العربية .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com